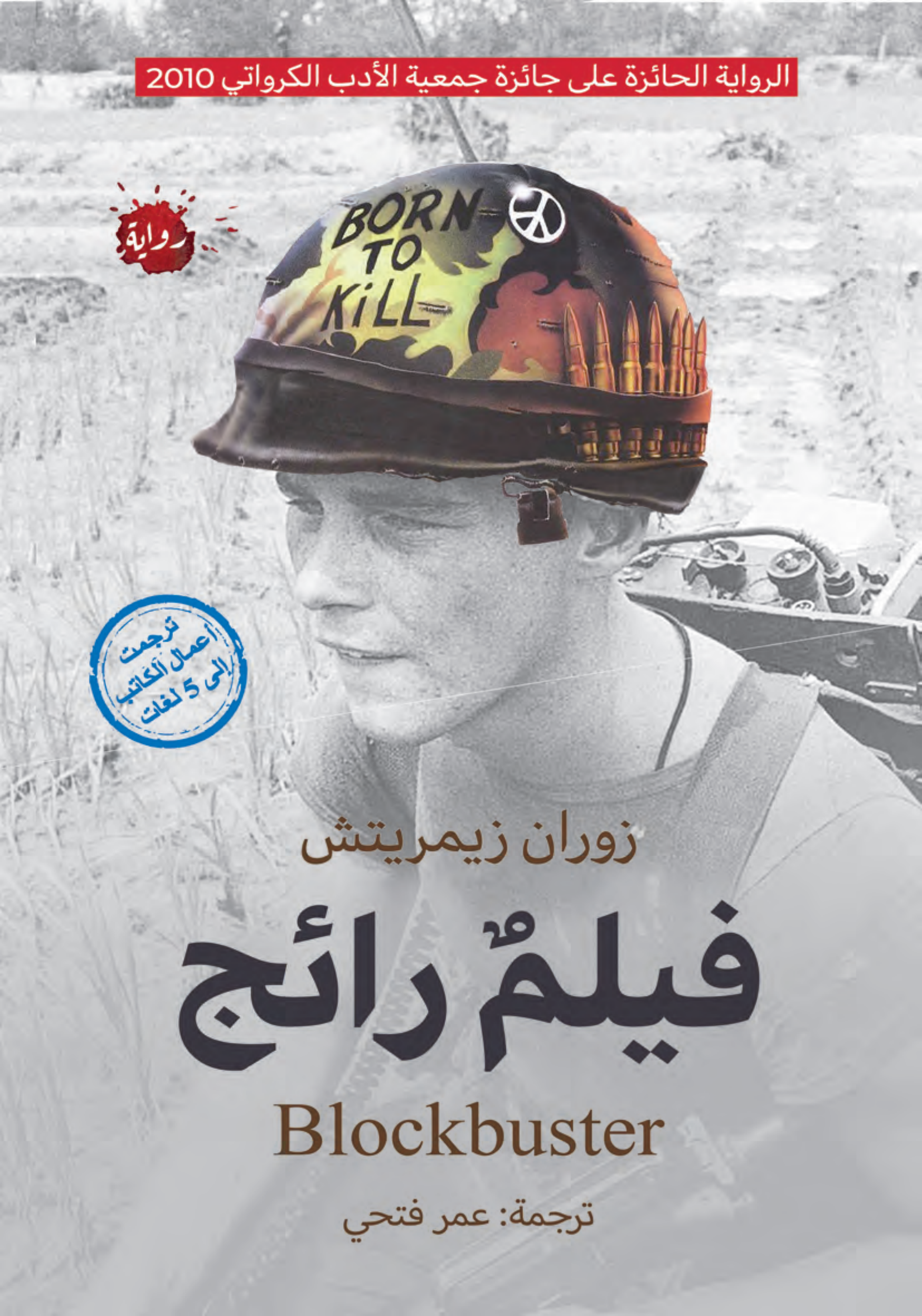

الرواية الحائزة على جائزة جمعية الأدب الكرواتي 2010

رواية

ترجمت أعمال الكاتب إلى 5 لغات

زوران زيمريتش

فيلمٌ رائج

Blockbuster

ترجمة: عمر فتحي

فيلمٌ رائج

Blockbuster

زوران زيمريتش

رواية

1

عمر فتحي/ مترجم مصري تخرج من جامعة حلوان عام 2017، نشرت له مقالات مؤلفة ومترجمة في العديد من المنصات العربية. صدر له عدة كتب مترجمة منها: "محاط بالحمقى" لتوماس إريكسون(2021)، "إشكالات الفلسفة السياسية" ديفيد رفائيل (2020)، "مدخل إلى الفلسفة السياسية" أ. ر. موراي (2021).

فيلم رائج
طبعة 2022
رقم الإيـــداع: 2022/4814
الترقيم الدولي: 978-977-821-254-9

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

BLOCKBUSTER by Zoran Žmirić
Copyright © Zoran Žmirić, 2009
Translation rights arranged by Hena com publishing, Zagreb, Croatia
All rights reserved

Knjiga je objavljena uz financijsku potporu Ministarstva kulture Republike Hrvatske.

Republika Hrvatska Ministarstvo kulture
Republic of Croatia Ministry of Culture

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

زوران زيمريتش

فيلمٌ رائج

Blockbuster

رواية

ترجمة: عمر فتحي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

زيمريتش، زوران
فيلمٌ رائج: Blockbuster : رواية / زوران زيمريتش،
ترجمة: عمر فتحي، الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع
والدراسات، ٢٠٢٢
٢٥٠ ص، ٢٢ سم
تدمك ٩-٢٥٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص اليوغوسلافية
٢- القصص الكرواتية
أ- فتحي، عمر (مترجم)
ب- العنوان ٨٩١,٨٢٣

رقم الإيداع: ٤٨١٤/ ٢٠٢٢

يبدأ البشر الحروب وتنهي الحروب البشرية.

شيمي

منشرة الأخشاب

كانت منشرة الأخشاب المهجورة هي المبنى الوحيد المأهول بالسكان في القرية، بينما قبعت مجموعة من المنازل المحيطة بها خالية من الناس والأشياء على حد سواء. كان المكان مقفرًا للغاية لدرجة أنه كان من الصعب تخيل أن الناس كانوا يعيشون فيه قبل أشهر قليلة فقط. كنا نخرج أحيانًا في النهار، من مخفرنا، وننظر حولنا، ونتساءل كيف خطر لأي شخص أن يبني منزلًا على هذه الأرض. ولكن في يوم من الأيام كان الناس يأتون إلى هنا للعمل. كان المنحدر الحاد الذي يؤدي إلى القرية مثاليًّا لتزويد المنشرة بالخشب، وكان النهر الذي يلتف حول الجزء الخلفي لساحتها يوفر طريقًا طبيعيًّا للنقل. أثناء إقامتنا في القرية، دائمًا ما كنت أتخيل صوت جذوع الأشجار المتساقطة أسفل المنحدر، وأصوات فؤوس التقطيع، والأصداء الحادة التي تنتشر عبر الغابة، وهسيس البخار القادم من غرفة مرجل المنشرة، وطنين السيور المطاطية على عجلات المناشير الدائرية، وصوت تناثر الأخشاب في الماء، وكنت أفكر كم هو غريب أن تكون هناك ولا تسمع أيًّا من هذه الأصوات؛ أصوات الحياة. لكن الأفكار من هذا النوع كانت تزيد من حدة القلق. كان المكان بلا أي روح، بحيث لم يكن يمكن حتى لوجودنا أن يحييه.

إذا كان لدي أي شكوك في السابق، فقد أصبحت متأكدًا الآن من أن وجودنا في القرية لا يخدم أي غرض. كنا وحدة صغيرة من عناصر

الاستطلاع، وكنا متمركزين بشكل مفيد بقدر فائدة حَمَل مقيد أمام حظيرة ماشية محاطة بالذئاب. أدركت بعد فوات الأوان أنني يمكنني بسهولة التفكير في مئات المواقع الأخرى الأفضل لإقامة مخفر جنود على الجبهة. أما إقامته في أرض فارغة محاطة من ثلاث جهات بغابة كثيفة من الصنوبر لم يكن حقًّا أفضل من ترك قدر من اللحم أمام وحش جائع. ومع ذلك تم وضعنا داخل هذا القدر وكنا لحومًا. وكما قد يتصور المرء، فإن المتوحشين لم يتأخروا كثيرًا في المجيء.

كنّا في مساء يوم "ذكرى الأموات"[1]، الذي لم يكن أقل كآبة من الأمسيات الأخرى في ذلك الوقت من العام. ساد ظلام الشتاء مُغطيًا ضوء النهار بحلول وقت العشاء، وبما أن القمر ظل مختبئًا، مقررًا، ربما، عدم إظهار وجهه حتى حلول وقت أكثر سعادة، فقد كانت الرؤية ضعيفة، حتى مع تغطية الثلوج للأرض. لم يبدأ الهجوم بشراسة، بل قاموا فقط بمحاوطتنا بشاحناتهم، مما خلق حصارًا من خلفنا أدى إلى قطع السبل الممكنة لانسحابنا.

بمجرد أن يقيم الجيش النظامي هذا الجدار خلف ظهورنا، يمكن للبقية أن يُجهزوا علينا بدم بارد، واثقين من أنه لا يمكن لأي روح أن تترك المكان على قيد الحياة. بالنسبة لنا، لن تكون هذه هي المرة الأولى التي نواجه فيها العدو، لكن مواجهة العدو لم تصبح أسهل مع مرور الوقت. كنا نظل محبوسين في تلك المنشرة لعدة أيام، ولم نكن نتركها سوى للخروج في دوريات قصيرة، بينما كنا طوال الوقت نقمع معرفتنا بأن هذا اليوم سيأتي عاجلًا أم آجلًا؛ لأن قمعها يجعل الانتظار أسهل.

1- يوم ذكرى الأموات All soul's day هو يوم للصلاة وتذكر أرواح الأحباء الذين فارقوا الحياة، تحتفل به بعض الطوائف المسيحية (المترجم).

إذ إنك إذا حاولت جاهدًا عدم التفكير بشيء ما، فيمكنك التصرف كما لو كان ليس موجودًا. لقد حاولنا، بقدر ما يسمح موقعنا المخيف، أن نتصرف بأقرب طريقة ممكنة للحياة الطبيعية.

في النهار كنا نشوي النقانق والبطاطس، وحتى لحوم الخنازير المعلبة، كان مذاقها جيدًا بعدما شويت على النار. كان أميدزا، الذي كان يعتبر أي شيء له شكل صالحًا للأكل، يأكل الرنجة بنهم بينما يغمسها في صلصة الأناناس، التي تبرعت بها إلينا جمعية خيرية، والتي لم يكن أي شخص آخر يملك الشجاعة الكافية لأخذ عينات منها. أما الخبز الذي ظل ملفوفًا في أكياس بلاستيكية مغطاة بالثلج، فإن البرودة أبقته صلبًا مثل الحجر، ولكن بعد بضع دقائق على صفيحة معدنية مشتعلة، سيكون مذاق الرغيف أفضل من أي شيء مخبوز طازج في المخبز. وجد برانكوفيتش قطعة من لحم الخنزير المقدد منسية على سطح أحد المنازل. قمنا بتسويتها جيدًا، وقطعنا منها شرائح رقيقة واجتمعنا جميعًا حولها. كانت وجبات العشاء يعقبها تحلية بالخوخ المعلب، أو بالشوكولاتة، التي أرسلها إلينا الأطفال الصغار من المدن، والذين أرفقوا هداياهم برسائل مؤثرة وبعض الرسومات غير المتقنة. في الذكريات اللاحقة، كان الطعام موضوعًا للعديد من الشكاوى. لم يكن لدي أي نصيب منها، ربما لأنني كنت أفضّل دائمًا الوجبات السريعة على الطهي المنزلي. إذ إنني لم أكن أُقدّر الوجبات التي يتم تناولها بالملعقة حتى تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمري.

كانت الدوريات، التي حاولنا التعامل معها على أنها نزهات عادية عبر الغابة نعود بعدها للمخفر الدافئ، بمثابة تجربة فريدة. كانت درجات الحرارة منخفضة جدًّا في الصباح، حتى إن دلو الماء كان يتجمد على

الرغم من إبقائه على بعد ذراع واحد فقط من البرميل الفولاذي الذي كنا نستخدمه كموقد. كان السطح الخارجي للبرميل ساخنًا للغاية لدرجة أننا كنا نشعل السجائر منه، ومع ذلك كان الماء في الدلو يظل متجمدًا. في بعض الأحيان، كانت تنفجر قطع الأخشاب التي استخدمناها كحطب في موقدنا المرتجل. قبل وصولنا، كان أحدهم قد وضع مفرقعات نارية بداخلها -ربما بعض الأطفال، فعلوا ذلك كمزحة- لذلك كل بضعة أيام كانت إحدى قطع الأخشاب تنفجر. قيل لنا إنها عادة في المنطقة. يُقال إن شخصًا ما كان يسرق الحطب من أحد الجيران، وقد توصل هذا الأخير إلى خطة ذكية. قام بحشو بعض جذوع الأخشاب بالألعاب النارية وتركها في فناء منزله كطُعم. وعندما وقعت انفجارات في أحد المنازل المجاورة تم التعرف على السارق. تم الحفاظ على هذه العادة، حتى وإن لم يعد هناك أي سبب آخر لها غير تسلية الأطفال. بالنسبة لنا، كانت الانفجارات بمثابة تذكير بأننا لم نكن في نزهة. منذ الطلقة الأولى التي جاءت من الغابة، علمنا أنه ليست لدينا طريقة للرد على النيران. إذ لم يكن مدى بنادقنا يزيد على خمسين مترًا، وحتى لو كان يزيد، لم يكن لدينا مكان لإقامة موقع دفاعي. وإذا خرجنا من المنشرة، فسنمنحهم أهدافًا سهلة، بينما لم يكن بإمكاننا أن نرى أبعد من بضعة مترات قليلة في اتجاه الغابة. كانت لديهم كشافات كبيرة مثبتة أعلى شاحناتهم، مما أبقى المنشرة ومعظم الساحة مضاءتين جيدًا، وبينما كانوا يتقدمون أسفل المنحدر ببطء وثقة، وهم يهتفون بعبارات لتشجيع بعضهم بعضًا، شعرنا بالذعر، محاولين التفكير فيما يجب علينا القيام به. إذ إنه على الرغم من كل الترقب والقلق الذي رافق إقامتنا في المنشرة، لم يخطر ببالنا أبدًا أننا قد نجد أنفسنا محاصرين تمامًا. كنا قد سمعنا

نيران دبابة قبل نصف ساعة، لكننا لم ندرك معنى ذلك إلا قبل قليل فقط. لقد استولوا على الأرض الفاصلة بيننا وقطعوا سبيل هروبنا على الجهة اليمنى، وجعلونا في وضع النمل الجاثم على ورقة شجر عائمة تحيط بها المياه من كل جانب. انفجر صاروخ أُطلق من الغابة على سطح مخفرنا فتساقطت شظايا من قراميد السطح وعوارضه الخشبية علينا.

"إلى القبو!" صرخ أحدهم، فهرولنا على الدرج. حاولت التفكير بوضوح رغم الخوف الذي ملأ قلبي وارتعدت له أوصالي. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من التوصل إلى خطة أفضل، إلا أن القبو كان فخًّا واضحًا. "لا يوجد مخرج من هناك!" صرخت. "إذا ذهبنا إلى هناك، فنحن في عداد الموتى!".

لم يسمعني أحد أو لم يُرِد أن يسمعني أحد. جريت مع الآخرين. ألقينا بأنفسنا على جدار القبو، ننظر إلى بعضنا، بينما كانت تأتينا صيحات وضحكات صاخبة من الخارج. تساءلت عما إذا كانوا متعطشين للدماء كما يبدون، أم أنهم أيضًا شعروا بالخوف وحاولوا قمعه بالتصرف بوحشية. تذكرت ما قاله لنا العقيد كفاتيرنيك عندما وصلنا لأول مرة إلى الجبهة الأمامية: "الرجل الطبيعي في الظروف غير الطبيعية يتصرف بشكل غير طبيعي".

"يا رفاق، استمعوا إلي". قال شيمي وهو يبدو هادئًا كما لو كان قد مر في السابق بعدد من المواقف المماثلة. كانت الحقيقة أنه لم يكن هادئًا على الإطلاق، ولكن على عكس بقيتنا، كان بإمكانه أن يحافظ على رباطة جأشه في أوقات الأزمات. قد يعتقد المرء عندما ينظر إليه

أنه تلقى سنوات من التدريب العسكري. فلا شيء عنه يمكن أن يشي أنه كان يعمل قبل ثلاثة أشهر فقط في متجر لتأجير شرائط الفيديو. بالتأكيد أدرك أحد قادة اللواء هدوءه وسعة حيلته؛ لأنه تم تكليفه بقيادة مجموعتنا على الرغم من أنه لم يكن قد حمل أي رتبة من قبل. "القبو به نافذة. أترون؟ هناك بالأعلى".

كانت كلمة "نافذة" جيدة أكثر من اللازم بالنسبة للفتحة الضيقة الموجودة بالقرب من السقف، التي ربما تكون مناسبة بما يكفي ليمر من خلالها طفلٌ بينما تعتصره. لكن في تلك اللحظة، بدت وكأنها بوابة الجنة. كانت تُطل على الجانب الآخر للساحة، الجانب الذي لم يكن مُضاءً. في الطابق العلوي، انفجرت قنبلة يدوية، تبعها صوت طرق أحذيتهم على الدرج. لقد استولوا على المبنى وكانوا يبحثون عنا.

"أمسكوا بهم! إنهم هنا! إنهم هنا!".

أطلقوا النار على غرفٍ مختلفة، بشكل عشوائي وفي رشقات نارية قصيرة، وهم يصرخون، رغم أنهم لم يكن لديهم أي فكرة عن مكان وجودنا. كانوا يعرفون فقط أنه كان هناك عدد قليل منا. كان هذا الأمر واضحًا؛ لأن المنشرة لا يمكنها إيواء عدد كبير من الناس. فقد كان معظمها عبارة عن منطقة إنتاج في الهواء الطلق مغطاة بألواح معدنية متعرجة، بينما كانت عدة عشرات من الأمتار المربعة فقط هي ما تنتمي إلى مبنى فعلي من الطوب والأسمنت، والذي كان يحتوي على مكتب المدير السابق، وغرفة لخلع الملابس مع غرفة استحمام صغيرة، بالإضافة للقبو ومرحاض قرفصاء.

"هيا واحدًا تلو الآخر، ولنكن سريعين في ذلك"، أمرنا شيمي.

تمركز تحت النافذة وأشبك يديه معًا ليرفعنا للأعلى. مر تشيركيز وسبيدي عبر النافذة بسهولة أكبر مما توقعت. اندفعا من النافذة وانزلقا إلى الخارج في الظلام. لم نتمكن من سماع صوت أحذيتهما، لكن عدم إطلاق النار في الخارج أوضح لنا أنهما تمكنا من الفرار.

حصلت معنوياتنا على دفعة من الدعم والتعزيز كنا في احتياج شديد لها. "النافذة الخلفية"[2]، "ها يا شيمي؟".

في ظلام القبو، استطعت بصعوبة أن أرى عينيه مفتوحتين عن آخرهما والامتنان يظهر فيهما. كان سيحتاج أي شخص آخر إلى التركيز، لكنني كنت أعرف شيمي. كان بحاجة إلى إلهاء وتشتيت.

أجاب وهو يتنفس الصعداء: "هيتشكوك، عام 1954. اقفز يا أميدزا!".

مر أميدزا عبر النافذة بنفس السهولة التي أمر بها من خلال الباب. توقف أميدزا عن النمو في المدرسة الثانوية. ونتيجة لذلك، كان نموذجًا مثاليًّا لعنصر الاستطلاع؛ صغير الحجم وسريع ورشيق كالقط. قرع حذاءه على الحائط، ثم اختفى هو الآخر. كنت أستعد لأتبعه عندما اكتُشف طريق فرارنا. "النافذة! الفئران يهربون من النافذة! من هنا، من هنا!".

تجمدتُ في مكاني، لا أعرف ما يجب عليّ فعله. كان شيمي لا يزال واقفًا تحت النافذة، يبدو وكأنه يقرر ما إذا كان سيشجعني على القفز أم لا. أنهى برانكوفيتش هذا التردد القصير. ركض باتجاه شيمي، ورفعه

2- النافذة الخلفية Rear Window هو فيلم تشويق وإثارة أمريكي إنتاج عام 1954م، وإخراج المخرج الإنجليزي ألفرد هيتشكوك (المترجم).

شيمي بسرعة نحو السقف. تمكن برانكوفيتش من الإمساك بإطار النافذة، لكن انزلقت قدماه من على الحائط، طالبة الدعم. تدخلت أنا وشيمي وبدأنا ندفعه لأعلى من خلال الفتحة. وبينما كنت أنعت نفسي بالأحمق، وأنا أفكر كيف كانت ستبدو مؤخرتي إذا كنت أنا من يتم دفعي عبر النافذة، جاءت رصاصة من الخارج.

سقط برانكوفيتش من بيننا جثة هامدة. كان برانكوفيتش ذو الأربعة والعشرين عامًا قد عاد من الإجازة قبل أسبوع فقط. تحدثنا في ذلك اليوم، وأخبرني أنه قرر الزواج. لقد ظل مع حبيبته لمدة ثلاث سنوات، لكن دائمًا ما كان يبدو له أنه صغير جدًّا على الزواج. كنا نشرب البراندي[3] عندما قال: "نحن في نفس العمر، أنا وهي. ربما أكون صغيرًا جدًّا، لكن الوقت مناسب لها. نحن نحاول بالفعل أن ننجب طفلًا الآن. نمارس الجنس كثيرًا وأقذف بداخلها، ولا أمانع في الواقع إذا التصق سائلي المنوي بها". "إذا التصق بها"، آه كم نفرني هذا التعبير وأشعرني بالاشمئزاز في المرة الأولى التي سمعته بها تمامًا كما حدث في كل مناسبة لاحقة. كنت أكره نفسي لأنني غير قادر على العثور على شيء أفضل لأتذكر برانكوفيتش به، لكن في كل مرة أفكر فيه، سيتبادر هذا التعبير إلى ذهني. أثار منظر جثته نفوري. قبل ثانية كان صديقًا. الآن هو جثة هامدة بلا روح تعوق نجاتنا. حملناه إلى الزاوية كما لو كان كيسًا من القمامة القذرة التي تفسد محيطنا المريح.

"من هنا! عثرت على أحدهم! من هنا، كما أقول لكم! إنهم يهربون من النافذة!". تضاءل صوت الصراخ القادم من الخارج بفعل صوت

3- البراندي هو مشروب كحولي مستخلص من تقطير العنب (المترجم).

طرق أحذيتهم على الدرج وهم يهرولون للأسفل، ثم بدأ الطرق بعنف على باب القبو. وبينما كنت أنا وشيمي ننظر بعضنا لبعض وإلى الباب والنافذة، سقطت قنبلة يدوية بيننا. لم يكن لدينا مكان لنهرب إليه منها. فأينما ذهبنا في القبو، كانت الشظايا ستصيبنا. هسهسة القنبلة، وهي تتدحرج على الأرض بيننا بينما كنا نحدق بها، ونحن في حالة من الشلل التام. فكرت في أخذها وإعادتها من حيث أتت. لكن إذا انفجرت في يدي، فسوف تمزقني أشلاء. أما إذا لم ألمسها، فربما تصيبني ببعض الجروح فقط؟ ولكن إذا حدث ذلك، فكم من الوقت سأعيش كي أندم على عدم المحاولة وأخذ المخاطرة؟ لن أعرف أبدًا كيف تقوم أدمغتنا بربط ما لا يمكن ربطه، لكنني رأيت الحل فجأة. على الجانب الآخر من الغرفة كان يوجد مرحاض القرفصاء دون باب. ركلت القنبلة فسقطت في فتحة المرحاض وانفجرت بداخل ماسورة الصرف.

نظر إليّ شيمي غير مصدق، بينما تعلو وجهه ابتسامة عريضة. التفتُّ إلى النافذة. وفي ومضة الضوء الخافتة التي أتت من الخارج، رأيت قنبلة يدوية أخرى تتطاير باتجاهنا. ركضتُ نحوها، وبينما كانت القنبلة لا تزال في الهواء، صدمتها بكلتا يدي لتمر عبر النافذة مرة أخرى، على نحو غريب، بنفس الطريقة التي كنت أفعلها مع الكرة عند لعب الكرة الطائرة حينما كنت طفلًا. لم أتعلم أبدًا كيف أمرر الكرة بأطراف أصابعي مثل الأطفال الآخرين، ودائمًا ما كنت أضربها بقوة براحة يدي، وحتى مع الصرخات الحقودة الماكرة التي كانت تتعالى من قبيل "كرة هجومية.. كرة هجومية" إذا قمت أحيانًا بتنفيذ الضربة بشكل صحيح، فكان يظل الأمر محل شك لأنني كنت معروفًا بأنني لاعب ضعيف. لقد سخر مني حتى أولئك الذين لم يكونوا أفضل مني، ربما لأن ذلك جعلهم يشعرون بشعور أفضل تجاه أنفسهم. أين أنتم الآن أيها

الحمقى؟ أعتقد أن ضربتي نجحت الآن. أسكت الانفجار صوت الصراخ في الساحة كما أسقط باب القبو. ورددنا بإطلاق النار لأول مرة في ذلك المساء. أتذكر أنني كنت أفكر في أننا لن نموت دون إطلاق ولو رصاصة واحدة، وكيف بدا ذلك وكأنه الجانب الإيجابي لوضع ميؤوس منه. إذ كنت قد استسلمت للموت. جاءتنا الصيحات والشتائم واللعنات من جميع الجهات. اختلط ألمهم وغضبهم بألمنا وغضبنا، ودفعنا إلى آفاق جديدة من اليأس. أطلقنا النار تجاه الباب بينما نصيح. لا بد أننا كنا مشهدًا مسليًا، بشرط أن تراقب قوة عليا خبيثة المشهد من الأعلى؛ فهناك خاسران مسعوران، يصرخان ويطلقان النار بشكل أعمى بعضهما على بعض. لم نتمكن حتى من رؤية بعضنا. كان أزيز الرصاص بيننا منذرًا بدخولهم وبموتنا. للحظة ساد الصمت كل شيء. دون تفكير، استدرتُ وركضتُ وقفزت نحو النافذة. لاحقًا فكرت كثيرًا في تلك القفزة. هل من الممكن للمرء أن يقفز لمسافة مترين ويطير لأعلى ليمر من خلال نافذة ضيقة مثل كرة مقذوفة بقوة؟ إذا كنت قد استخدمت أي شيء ليدفعني بينما أقفز، فأنا لا أعرف ما هو. ربما أعارني شيمي كتفه. كل ما أعرفه هو أنني في اللحظة التالية كنت أجري عبر الغابة ويدي ممدودة أمامي، محاولًا عدم إيذاء نفسي بالاصطدام بشجرة.

الهروب

صحيح أنني استطعت الإفلات من الفخ، لكن لم يكن لدي أي اعتقاد بأنني أصبحت بأمان. فإذا كان العدو عازمًا على السيطرة على المنطقة، فلن يترك أي ناج يفلت من قبضته. كنت متأكدًا من أعدادهم أن الهجوم علينا لم يكن مقصودًا منه أن يكون عملية صغيرة استثنائية. أصاب صاروخهم الأول معدات الاتصال الخاصة بنا، وبالنسبة للاتصالات اللاسلكية فقد كنا بعيدين جدًّا عن قاعدتنا. كل ما كان عليهم فعله الآن هو القضاء على كل ما تبقى منا، ويمكن حينها أن تستمر مداهمتهم الليلية دون انقطاع وصولًا إلى الموقع الذي يشغله لواؤنا.

على الرغم من أنني قضيت فترة في المنطقة، إلا أنني وجدت أنه من المستحيل بالنسبة لي أن أقوم بتوجيه نفسي في الظلام. كان الطريق المؤدي مباشرة نحو ساحة المنشرة في الاتجاه الجنوبي الشرقي، باتجاه أراضي العدو. بينما كانت قواتنا متمركزة في جنوب غرب القرية، مما يعني أنه للوصول إليهم كان على المرء أن يتجه يسارًا، بحيث يتعين عليه عبور النهر. لم يكن لدي أي فكرة عن المكان الذي كنت أركض فيه. لقد تمكنت من الركض على طول الطريق أعلى المنحدر وكنت الآن أتجول عبر الغابة، تائهًا. كنت أبذل قصارى جهدي حتى لا أفكر فيما حدث في المنشرة بعد خروجي. كنت أفكر في أميدزا، وسبيدي، وتشيركيز، الذين تمكنوا من الفرار. كانت فرصة الاصطدام بأحدهم ضئيلة للغاية، لكني تمسكت بشدة بأمل أنهم كانوا رابضين في الظلام

في مكان قريب، يتساءلون عن الطريق الذي يجب أن يسلكوه.

في السنوات التي تلت ذلك، غالبًا ما كنت أبكي ليلًا حتى أنام وأنا أفكر بالطريقة التي تركت شيمي بها. هل أضعت فرصة هروبنا؟ هل كان سيفعل الشيء نفسه لو كان بمكاني؟ كنت أعلم أنه لن يفعل. إذا أراد الركض، كان بإمكانه ذلك، لكنه بقي وقاتل. لقد واصل إطلاق النار بينما كنت أقفز على الجدار وتركته ورائي. هل كان يمكننا أن ننجو نحن الاثنين إذا وقفت إلى جانبه؟ هل كان سيتمكن من المرور من خلال تلك النافذة الضيقة؟ مثل هذه الأسئلة كانت تبقيني مستيقظًا ليلًا لفترة طويلة تلت ذلك. كنت أنهض من سريري وأتجول في المنزل، وأستحم وآخذ أنفاسًا عميقة، وأشرب الكثير من الماء بينما أبتلع الحبوب المهدئة سريعًا من قبضة يدي، محاولًا التخلص من القلق الذي أصاب ساقي. لكن في ليلة الهروب، لم أفكر مطلقًا في شيمي ولو لمرة واحدة.

كانت أكبر مخاوف العدو هي أن يصل أحدنا إلى موقع آخر على الجبهة وينبِّه اللواء. ما لم يكن بإمكانهم معرفته هو أنه لم يكن هناك موقع آخر على الجبهة وأن الطريق أمامهم كان خاليًا من الأساس. كانوا يعرفون فقط أن البعض منا قد تمكن من الهروب من المنشرة والتخفي في الغابة، وكانت تلك المعرفة تجعلهم يستمرون. من الناحية التكتيكية، كان لدي هدفان: تجنُّب التعرض للقتل وتحذير اللواء. في الحقيقة، الجزء الأول فقط هو ما كان يعني لي كل شيء. لم أكن أهتم بما إذا كان اللواء سيتعرض للهجوم. فهم بعددهم وعتادهم، يمكنهم التعامل مع أي خصم، بينما كنت أتعثر في الظلام وحدي، يلاحقني الرعب ويطاردني مثل الوحش الكاسر.

تجولت هائمًا على وجهي في الغابة متسائلًا كيف وصلت إلى هناك. فمنذ أشهر قليلة فقط، كنت أعيش الحياة الطبيعية لشاب ذي بضعة وعشرين عامًا؛ أذهب إلى السينما والحفلات الموسيقية، وأدرس في الجامعة. وفي أوقات فراغي، كنت أقضي أمسياتي في الحانات مع رفاقي، حتى إحدى تلك الأمسيات، بينما كنا نجلس حول الطاولة ونشاهد الأخبار، ظهر مشهد مزعج على التلفاز. فقد قام العدو، بدافع الحقد الشديد والنكاية، وفقط لإثبات قوته، بقطع إمدادات المياه عن ملجأ للأطفال المعاقين. كانت وجوه هؤلاء الأطفال هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لم أكن أستطيع أبدًا تحمل أولئك المتنمرين والمستقوين الذين يعتقدون أنهم يستطيعون فعل ما يريدون لأولئك الأضعف منهم. وقفت سريًعا بحركة غاضبة. كلنا فعلنا ذلك في الواقع. تركنا الجعة على الطاولة، وأطفئنا السجائر، وسرنا مباشرة إلى المركز المجتمعي لوضع أسمائنا على قائمة المتطوعين. وفي غضون شهر، تلقينا جميعًا خطاب التجنيد وتم إرسالنا إلى الجبهة. تم وضعي في وحدة استطلاع على الرغم من أنني خدمت قبل ذلك فترة تجنيد في جيش الدولة السابقة مع قوات سلاح الإشارة. لكننا كنا في الأيام الأولى للحرب، وتم ملء وحداتنا بأي طريقة ممكنة بسبب قلة المتطوعين.

فقط بينما كنت أتلمس طريقي محاولًا تجنب الارتطام بالأشجار، لاحظت أنني فقدت بندقيتي. لا أستطيع أن أتذكر ما إذا كنت قد تركتها في القبو أو أسقطتها أثناء الركض أعلى التل. ربما ألقيتها جانبًا قبل أن أقفز من النافذة. لم يكن اهتمامي بذلك بسبب أنني كنت سأستخدمها الآن. فقد كنت بالكاد أستطيع حمل نفسي، وأهرول بصعوبة إلى الأمام في طقس تقل درجة حرارته عن عشرين تحت الصفر. أحرق البرد

حلقي، لكنني لم أستطع أن أجبر نفسي على التنفس من أنفي. عندما لم أتمكن من السير خطوة أخرى، انزلقت على جذع شجرة واستلقيت في حفرة. سرعان ما سمعتهم ينادون بعضهم بعضًا. كانوا ينتشرون في صف واحد، ويمشطون المكان بحثًا عنا، بينما يطلقون صيحات وشتائم بذيئة، محاولين إخافتنا. رأيتُ أنهم كانوا يؤدون دورهم ببراعة مذهلة. إذ لم يمكن لأي قدر من التدريبات أن يعلمهم ما كانوا يفعلونه. لقد كان سلوكًا لا يمكن أن ينشأ إلا من الغريزة البدائية للصياد، التي كانت على استعداد لتفعيل نفسها في أول لحظة مناسبة بغض النظر عن آلاف السنين من الحضارة. في بعض الأحيان كانوا يصمتون، ثم تبدأ المحادثات والصراخ من جديد.

”ها هو! رأيته! ما الذي تنظر إليه؟ تعال، لن نؤذيك! هاهاها!“.

حاولت النهوض بنفسي وتعثرت. كانت قوتي تتداعى. لو كان هذا أحد أفلامي المحببة، لكنت تمكنت من الركض طوال الليل. لكن بما أنه لم يكن كذلك، فقد قررت أن أستلقي وأدعو الله ألا يجدوني. ومع ذلك، حتى لو لم يجدوني، فأين سأذهب؟ أعود إلى المنشرة؟ كانت هي المعلم الوحيد الذي استطعت التفكير فيه، ولكن في أي اتجاه كانت من هنا؟ كانوا قريبين جدًّا لدرجة أنني سمعت صوت صرير الثلج تحت أحذيتهم. لم أستطع معرفة ما إذا كان بإمكانهم رؤيتي، فتقوقعت أسفل الشجرة، متشبثًا بالجذور، أرتجف من البرد والخوف. وخوفًا من اكتشافهم لي من خلال تنفسي المرتعش، قمت بوضع يدي على فمي. كان قلبي ينبض بقوة لدرجة أنني كنت متأكدًا من أن دقات قلبي يتردد صداها عبر الغابة، مما ينتج عنه قرع يمكن سماعه لمسافة عدة كيلومترات. وعلى مسافة تقل عن عشرة أمتار، توقف ظل أحلك من الليل المحيط

وتوجه نحوي. شعرت به ينظر تجاهي.

"يوجد واحد هنا! تعال! اخرج، أيها اللعين!".

فكرت بداخلي، يا إلهي، إذا كنت موجودًا، فلا بد أن يكون لديك سبب وجيه لذلك. لا أعتقد أنني أستحق هذا المصير، لكن إذا كنت تعتقد ذلك، فليكن، فليكن... لكن ما الذي سيحدث بالضبط؟ إعدام في الثلج، حيث لن يعرف أحد من عائلتي قبري أبدًا. حيث لن يعرف أحد ألمي وخوفي. حيث لن يساعدني أحد في تحمل هذا العبء.

آه كم أردت أن يكون شخص ما معي حينها. أي شخص ليشاركني اللحظات الأخيرة. أردت أن أحتضن أحدهم، أن أحتضن امرأة من قرية منعزلة خلف طريق وعر، غير معروفة لي وللعالم. حيث يمكنني بالكاد رؤية وجهها في الظلام بينما تغشاه نظرة حزينة وهي تودعني. كانت الوحدة التي أشعر بها أكثر صعوبة من أي وقت مضى. سأصبح وحيدًا في الغابة، مرتعدًا، بلا مقاومة، مذبوحًا مثل الحمل، المقدم كالأُضحية، عاجزًا تحت السماء. لكن لمن تتم التضحية بي؟ الله؟ ومن أجل ماذا؟ السلام؟ لم أستطع حتى تقبل مصيري بسلام. كان سيل من الدفء ينتشر بين ساقي. كنت أتبول لاإراديًا، ولم أحاول حتى قبض عضلاتي وإيقاف التدفق. في الأيام اللاحقة، كنت كلما شعرت بضغط في مثانتي، أتذكر لحظة شعوري بالشلل بسبب الخوف والشعور بتلك المتعة الغريبة الناجمة عن دفء البول. في إحدى المناسبات التي لا تُنسى -يوم ذكرى الأموات في العام التالي- استيقظت لأجد البلل قد انتشر على سريري بينما كنت نائمًا. لم أكن حتى أحلم بأي شيء. لقد تدفق مني البول دون سبب. وفي هذه الأيام، أحيانًا ما أتبول عن قصد في

سريري وأنا نصف نائم، سعيدًا أن بإمكاني فعل ذلك.

"اخرج، هل تسمعني!".

أعادني الصوت إلى الوعي. قررت أن أنهض وأموت على قدمي، بغض النظر عن مدى اهتزازها وغمرها في البول. فتحت فمي لأسبه قائلًا شيئًا بذيئًا عن والدته. أردته أن يعرف أن وضعنا الحالي -أنني أموت بينما هو ينجو بحياته- لا يعني أنه يستحق أن يكون حيث كان. كان من الممكن أن يرتب القدر الأمر بشكل مختلف بسهولة، وكان من الممكن أن تكون أدوارنا معكوسة. كان من الممكن أن أكون أنا من كنت أطارد حياته لاقتناصها. ومثل مرات عديدة من قبل، ذهب عقلي إلى مكان غير مناسب تمامًا بالنظر إلى خطورة الموقف. ذات مرة عندما كنت بالمدرسة، توفي والد أحد زملائي وذهب عدد قليل منا نحن الأطفال لتقديم تعازينا للعائلة. سارت الأمور على ما يرام حتى قرعنا جرس الباب، فانفجرنا في ضحك هستيري كما لو أن شيئًا فوقنا كان يعبث بمشاعرنا ويسلي نفسه من خلال الاستهزاء بإرادتنا. أما الآن، فقد ذهب عقلي إلى فيلم كازابلانكا[4]. حدقتُ في من سيسلبني حياتي وأنا أفكر في أناس ضحوا بالحب من أجل قضية أسمى. استنتجت أنه لم تكن توجد قضية أضحي من أجلها بأي شيء على الإطلاق، على الأقل طوال حياتي. فأن أعيش كان هو هدفي الوحيد، ورغبتي الوحيدة. لا عجب أن لا أحد يصنع أفلامًا عن أشخاص مثلي. إذا أدرك فقط من يطاردني كم كنت غير مهم، وأدرك مدى ضآلة ما سيحدثه موتي من تغيير، كنا سنكون في بداية صداقة جميلة الآن. كنا سنجلس على نفس الطائرة،

4- كازابلانكا Casablanca هو فيلم رومانسي صدر عام 1942 خلال الحرب العالمية الثانية، بطولة همفري بوغارت. (المترجم)

ونطير بعيدًا، ونترك مشاكلنا لشخص آخر ليحلها، وفي هذه الأثناء، نسلي أنفسنا بالحديث عن بوغارت[5]، الذي لم يعرف أبدًا مدى عمق ما سُتعاش به أدواره من قبل أناس عاديين في الحياة. كنا سنسترخي في مقاعدنا بينما نشاهد شقراء فاتنة تقول وداعًا بلا اهتمام لشخص غريب يقف على المدرج.

عندما فتحتُ فمي لأصرخ، كان كل ما خرج هو بخار دافئ. لم يكن صوتي هناك. تحول الغضب إلى خوف، وما حاولت تقديمه لنفسي كشجاعة لم يكن أكثر من مجرد يأس. وقفت صامتًا تحت الشجرة بينما راح الظل يبتعد ويهمس للآخرين: "لا شيء هنا. لنذهب".

لا أعرف كم من الوقت مضى حتى استجمعت أخيرًا الشجاعة للتحرك. مشيت بهدوء، محاولًا عدم إصدار أدنى صوت. أزعجني كثيرًا صوت انسحاق الثلج تحت أقدامي. توجهت في الاتجاه الذي أتى منه مطاردِيّ، على أمل أن يكونوا قد أتوا من المنشرة. كنت على حق. بالزحف الحذر والبطيء، تمكنت أخيرًا من رؤية القرية التي هجروها بالفعل. وكان القلة الذين بقوا يتجولون حول ساحة المنشرة ويقلبون أكوام الأخشاب ويدسّون فوهات بنادقهم في كل فتحة وحفرة.

لم يتخلوا عن فكرة العثور علينا. لم تكن هناك طريقة لعبور الجسر الذي يربط القرية بالمنطقة الواقعة خلفها والبقاء هناك دون أن يلاحظني أحد. كان الطريق إلى الجسر يمر مباشرة عبر الساحة، وما زالت شاحنتان من جنودهما تنتظران على الضفة الأخرى. شققت طريقي حول الساحة في قوس عريض واتجهت نحو النهر. كان جسدي

5- همفري بوغارت Humphrey Bogart ممثل أمريكي. (المترجم)

يرتجف بالكامل. لم تعد ملابسي الداخلية دافئة. أصبحت البقعة على بنطالي مغطاة بقشرة رقيقة متعرجة. كان السبيل الوحيد يتمثل في عبور النهر. انزلقت في الجزء الأكثر انحدارًا من الضفة وسمحت لجسدي بالانغماس في الماء القاتم. من المضحك مدى سهولة نسيان المرء لبعض تجاربه؛ فقد كنت على الشاطئ، في الصيف، أحب القفز في البحر عندما يكون الماء باردًا قدر الإمكان. فقط الأعماق المظلمة تثير أحيانًا شعورًا بعدم الارتياح.

غمرت المياه ملابسي بعد لحظات وأثقلتها مما جعل السباحة صعبة. تمكنت من تحمل برد الماء، لكن عندما خرجت على الجانب الآخر، أصيب جسدي بالكامل بتشنجات. نزعت سترتي وتخلصت منها، مندفعًا إلى الأمام مثل إنسان آلي، وقدماي تتحركان بإرادة خاصة بهما. كنت أعتقد أنني إذا وقعت الآن، فلن أنهض مرة أخرى. أردت أن أستدير وأنظر إلى القرية لأثبت لنفسي أنني قد عبرت بالفعل إلى الضفة الأخرى. لكن الضفة الأخرى لم تكن أكثر أمانًا. فقد كنت أسير في المنطقة التي كانت منطقة فاصلة حتى الليلة الماضية؛ المنطقة التي اجتاحها العدو قبل ساعات فقط. فهل عسكروا في مكان ما؟ هل أقاموا نقاط تفتيش وهل كنت أسير باتجاه إحداها؟ أمامي بعيدًا، في الظلام الذي يشبه الحبر الأسود، رأيت ضوءًا خافتًا. قرية ولكن قرية من؟ أيًّا كان، لم تكن لدي أي قوة. لن أستطيع السير إلى هذا الحد، وحتى لو وافقت قدمي على التعاون، فلا يزال هناك خطر الوقوع في كمين. بدأت الحمى تتلبسني. كنت أشعر بالعطش الشديد. وضعتُ حفنة من الثلج في فمي وامتصصته، وبصقت كتلًا من التراب. وبينما أنا جالس على الأرض ألهث كالكلب، جاء صوت كالرعد من اتجاه القرية. نيران مدفعية. ارتفعت ومضات الانفجارات

عاليًا، لتضيء السحب الكثيفة المنخفضة. كنت محمومًا للغاية ولم أستطع معرفة ما إذا كانت النيران تضرب القرية أم أنها قادمة منها. جثوت وضغطت وجهي في الوحل. كانت الأرض وَحِلَة بشكل غريب بالنظر إلى برودة الجو، وأدركت أنني كنت أتمرغ في مسارات العدو. من المؤكد أنهم كانوا يمرون لفترة طويلة حتى تتحول الأرض المجمدة لطين ووحل هكذا. شعرت برغبة في البكاء، لكن لم تخرج الدموع ولا الصوت مني. كانت هناك فكرة تطفو على السطح في ذهني: هل رآني الرجل في الغابة وتركني أذهب؟ أم أنه كان يصيح فقط بتهديدات عشوائية في الظلام؟ لو كنت بمكانه ورأيته، كنت سأتركه يذهب. آه، كانت تلك كذبة، أليس كذلك؟ كان عليّ أن أكون صادقًا مع نفسي الآن بعد أن تلقيت هبة الحياة مرة أخرى. كنت سأتخذه أسيرًا. أم أن هذه كذبة أخرى؟ أعتقد أنني كنت سأتخذه أسيرًا في ظروف مختلفة. لكن إذا كنت أقوم بتمشيط المحيط أثناء هجوم، كنت سأقتله دون تردد. ففي خضم المعركة، فإن واحدًا أقل في عددهم هو واحد إضافي في عددنا. لم تترك الحقيقة المُرة مجًالا لوخز الضمير. سقطتُ مغشيًّا علي.

الرجل المجهول

"انهض يا هذا! إنه الصباح!".

أمسكت بي أذرع قوية تسحبني إلى وضع الجلوس. "حظيت بقيلولة جيدة؟".

"دعنا نذهب الآن، هيا انهض سريًعا".

لم تكن الضربة التي تلقيتها على رأسي مؤلمة. شعرت فقط بنفسي أتساقط للوراء. فتحت عيني وأصبحت واعيًا بما حولي. كنت مستلقيًا على الأرض مبتلًّا وأشعر بالبرد، بينما كان يقف من حولي أربعة رجال يرتدون زيًّا مموهًا. قام ثلاثة منهم، والذين لم يتجاوز عمر أحد فيهم العشرين، بتوجيه بنادقهم نحوي. أما الرجل المتبقي، الذي لم يكن أكبر سنًّا من البقية، كان يقف ويداه مقيدتان أمام جسده ووجهه مغطى بدماء جافة.

"نحن تلتقطهم مثل الفطر، أليس كذلك يا إيليا؟".

"نعم، تمامًا مثل الفطر. أنت هناك، هل يمكنك التحدث، أم أنك أصم وأبكم مثل صديقك؟ الاسم والرتبة والوحدة؟".

"وفر أنفاسك يا إيليا. قيّده، ودعنا نذهب. سيعتني الآخرون بهم. إنه ليس واحدًا منا. يمكنك معرفة ذلك من خلال الرقعة القماشية على كمه".

”ها، تحقق مما هو مكتوب على كمه. ”أفلام رائجة!“ عاشق للأفلام أنت، أليس كذلك؟ سيروقك وجودك معنا تمامًا!“.

بعد عدة دقائق، كنت أسير بجوار الأسير الآخر ويداي مقيدتان أمامي. كان يحيط بنا حارسان مسلحان، واحد من كل جانب، بينما كان الحارس الثالث يسير خلفنا. ألقيت نظرة خاطفة على رفيقي المجهول. لم يكن لزيه المموه أي شارة. كما أنه لم يرتدِ أي قبعة منسوجة. بينما كان الكم الأيمن من زيي به رقعة مطرزة عليها اسم وحدتي، وكنت أسأل نفسي لماذا. هل لجعل الحياة أبسط للعدو؟ الغريب أن الذعر الذي شعرت به حيال أسري قد خففه وجود ذلك الرجل المجهول. كان مظهره يشع هدوءًا. إذا لم يكن مقيدًا ومُلطخًا بالدماء، كنت سأعتقد أنه واحد منهم. وحتى بوضعه الحالي، بدا وكأنه سيطرح نكتة، وبعدها يضحك الجميع ويربتون على ظهره. وإذا كانت النكتة تدور حول جندي هرب من الحصار فقط لينام خلف خطوط العدو، فإن ذلك سيكون أقل ما أستحقه.

بدأت أتعثر على الأرض غير المستوية، شديدة البرودة لدرجة أن ساقي كانت تهددني بألا تتعاون وتفسح المجال من تحتي للسقوط. ”أنت أيها الأصم والأبكم، ساعد صديقك. لا نريده أن يؤذي نفسه!“ بدا لي أنهم لن يمانعوا في الدوس علي إذا وقعت، لذلك أجبرت نفسي على الاستمرار. استمعتُ إلى الخطوات الواثقة لرفيقي قليل الكلام وحاولت السير مثله بنفس إيقاعه.

واصل آسرونا الدردشة فيما بينهم. ”إذًا، فأنت يا إيليا، تقول إن

"يوجيمبو" أفضل من "من أجل حفنة من الدولارات"؟".[6]

"بالتأكيد، هذه حقيقة".

"نعم، أعرف ما تقوله. لكن لا يزال يزعجني كوروساوا. ليس لدي أي صبر على ذلك الهراء الشرقي المطول. فقط أعطني فيلمًا إيطاليًّا قويًّا، ويمكنك الاحتفاظ باليابانيين".

"ما تقوله يعني أن كلينت[7] أحمق. إن أفلام السباغيتي الغربية[8] من دون كلينت، مثل النهار دون أشعة الشمس".

"كلينت بارع بالتأكيد. مع ذلك يجب أن أقول إنني أحببت أعماله في السبعينيات أفضل من فترته الغربية".

مشيت بصعوبة متثاقلًا، بينما استحوذت عليّ رغبة متزايدة في الانضمام إلى المحادثة. كان أسلوب حديثهم غريبًا بعض الشيء على أذني، لكن ليس الموضوع. من الواضح أنهم نشؤوا على نفس الأفلام التي نشأت عليها. إذا كانت الظروف مختلفة، كنا سنطلب البيرة الآن، ونمرر السجائر لبعضنا، ونناقش الكلاسيكيات. جعلتني الفكرة أرتجف وأوبخ نفسي. لا يمكن للعدو أن يكون من محبي الأفلام. كان العدو قاتلًا وسفّاكًا للدماء. وأينما كان الثلاثة يأخذونني، فلم يكن ذلك لحلقة

6- يوجيمبو Yojimbo هو فيلم ياباني من إخراج أكيرا كوروساوا وإنتاج عام 1961، أما من أجل حفنة من الدولارات A fistful of dollars فهو فيلم إيطالي إخراج سيرجي ليون وإنتاج عام 1964. (المترجم)

7- كلِينت إيستُوود Clint Eastwood هو ممثل ومخرج ومنتج سينمائي أمريكي من مواليد 1930، وقد حاز على جائزة الأوسكار 4 مرات. (المترجم)

8- تشير مصطلحات أفلام السباغيتي أو السباغيتي الغربية أو الويسترن سباغيتي (Spaghetti Western) إلى مجموعة أفلام تدور أحداثها في الغرب الأمريكي وتم إخراجها من قبل مخرجين إيطاليين. وقد برزت على ساحة السينما خلال ستينيات القرن العشرين. (المترجم)

نقاش. ومع ذلك، فقد كنت أود المشاركة، والتباهي قليلًا، وذكر إلى أي مدى كنت أعتقد أن كلينت قد وفق وجمع بين الستينيات والسبعينيات. أو ربما كنت سأخفف من حدة ذلك التفاخر، وتجنب الظهور وكأني أعرف كل شيء، وأخبرهم فقط أن لدينا قواسم مشتركة أكثر مما يتصورون. فإذا جعلتهم يحبونني بشكل كافٍ، فربما سيتركونني أرحل؟ نعم، فكرت بداخلي، وربما قاموا أيضًا بتبديل ملابسي، وإعطائي علبة سجائر، وبعض الأطعمة المعلبة، والجوارب الجافة، وبندقية مع بعض الذخيرة، وقاموا بمرافقتي للوائي.

ومع ذلك، قررت أن أجرب حظي. قلت: "كلينت كان أفضل رجل يمكن للمخرج ليون أن....".

لكن لم يكن مقدرًا للأمر أن يكتمل. تعثرت مرة أخرى واندفعت للأمام، مدركًا بشكل خفي أن رفيقي المجهول قد أوقع بي عن قصد. وبالنظر لشدة إرهاقي، كان كل ما يمكنني فعله هو حماية وجهي. سقطتُ وارتطمت على الأرض مثل كيس من الإسمنت. توقف آسرونا، وتفاجؤوا من تعليقي بقدر ما تفاجؤوا بسقوطي. التففت على جانبي، غير متأكد ما إذا كنت أتوقع يد المساعدة أو ركلة في ضلوعي. كل شيء بعد ذلك حدث في غمضة عين. وصل رفيقي المجهول إلى الحارس الأقرب إليه، وانتزع سكينته بكلتا يديه، ودفعها بشراسة في معدته. إذا كان الحارس يحمل السكين بالطريقة الصحيحة، كان لن يتمكن رفيقي المجهول من سحبها بهذه السرعة، لكن الحارس كان يرتدي غمده رأسًا على عقب، مع مقبض السكين للأسفل. كان هذا ما يفعله العديد من الجنود لأنه يجعل عملية السحب أسهل وأسرع. لكن في هذه الحالة، كان أيضًا خطأً قاتلًا. كان رفيقي يستدير بالفعل في اللحظة التالية، ويسحب السكين

من أمعاء الحارس الأول فقط ليغرزها في صدر الحارس الثاني. قرقر الرجل المطعون مؤخرًا. أخرج رفيقي المجهول السكين بحركة سريعة وحادة من الحارس بينما كان يدفعه باتجاه رفيقه الآخر الذي كان يسير خلفنا. اصطدم الاثنان بقوة، فقفز رفيقي ببساطة فوق الرجل الذي يقرقر واستخدم زخم القفزة لدفع كامل طول السكين في حلق الحارس المتبقي. وقبل أن أدرك ذلك، كنا نركض عبر الحقول، بينما يحملني رفيقي من إبطي وهو يمسك بيده الأخرى بندقية كلاشينكوف مسروقة. كل عدة مئات من الأمتار كنا نتوقف مؤقتًا حتى يتمكن من الإنصات والنظر من حولنا، ثم نقوم بتغيير الاتجاه والركض مرة أخرى. لم نبطئ سرعتنا حتى اختفينا عميقًا تحت الأشجار. وبينما كنا نلهث بشدة من أجل الهواء، جثونا على الأرض ونظرنا بعضنا إلى بعض. حاولت إعادة تذكر تسلسل الأحداث التي قادتنا للتحرر من الأسر، لكن لم أستطع تجميع الشظايا المتناثرة للأحداث في صورة واحدة معقولة. إذا كنت أشاهد مشهدًا مشابهًا على التلفزيون، كنت سأبحث عن جهاز التحكم عن بعد سريعًا بينما يعتريني الغثيان.

ربما كان يمكن للساموراي في فيلم يوجيمبو أن ينجح في ذلك، أو ربما الرجل المجهول في ثلاثية ليون الشهيرة[9]، ولكن بالتأكيد لا أحد غيره. ”مع أي وحدة أنت؟“ سألته، بينما أحاول التنفس بصعوبة.

نظر إلي بعينين مفتوحتين عن آخرهما ثم قال: ”لا أعلم“.

”ما....ماذا تقصد بذلك؟“.

9- ثلاثية الرجل المجهول The Man With No Name Trilogoy هي سلسلة من ثلاثة أفلام إيطالية من إخراج سيرجيو ليون. (المترجم)

”أنا فقط لا أعلم“.

”كيف تم القبض عليك؟“.

حدّق للأمام قليلًا كما لو كان يفسر السؤال. ”لقد أسروني الليلة الماضية. أطلقت بازوكا على دبابة. وردت الدبابة بإطلاق النار. فدفعني الانفجار في الهواء“.

”ثم؟“.

”ثم جاء هؤلاء الرجال وأيقظوني“.

”يا رجل، تتحدث عن الأسر بينما كنت تحظى بقيلولة! أين كان الآخرون؟“.

”أي آخرين؟“.

”الآخرون من وحدتك“.

”لا أدري، لا أعرف. أعتقد أنني كنت وحدي“.

”هل كنت تحارب دبابة وحدك؟“.

”أعتقد ذلك“.

”مع أي لواء أنت؟ ومن أي بلد؟“.

بناءً على لهجته، اعتقدت أنه سيكون محليًّا من نفس المنطقة، لكنه لم يقل شيئًا، فقط كان يحدق بي بعمق وبصدق. فنظرت إليه بشيء من

القلق والتوجس.

"ما اسمك؟"، سألته.

لا شيء. لا إجابة. تسلل ظل من الريبة إلى تعبير وجهه لأول مرة منذ أن التقيته.

"هذا الجرح على رأسك". أخبرته بينما أشير إليه. "هل أنت بخير؟".

"مجرد خدش. أذني تطن قليلًا، لكني بخير".

"ماذا سنفعل الآن؟".

"مع أي لواء أنت؟".

"لواء رقم 199. ليس لدي أي فكرة عن مكانهم، ولا عن مكاننا نحن كذلك".

لواء 199؟ نهض رفيقي المجهول -أو الرجل المجهول تيمنًا بثلاثية ليون- ووقف على قدميه. "هل يمكنك المشي؟".

"أعتقد".

-"لواء رقم 199 آه.. لنذهب. لكن إذا سألتني عن رأيي".

"بلى تفضل؟".

"لا بأس بليون، لكن كوروساوا كان مبدعًا".

مقر القيادة

كان اللواء رقم 199 يتمركز على بعد خمسة عشر كيلومترًا خلف الخط الفاصل. كان مقر القيادة هو مدرسة مهجورة بإحدى القرى. تم إنشاء غرفة العمليات في الطابق الأول في الفصل التعليمي الأخير على الجهة اليمنى، بجوار معمل الأحياء، والذي أصبح بمثابة مهجع لضباط الأركان. بجانبه كان يوجد المطبخ، الذي كان مفتوحًا في جميع الأوقات، حيث كانت لا تزال طباخة المدرسة تذهب لتلبية احتياجات عملائها الجدد، الذين كانوا أكبر سنًّا إلى حد ما ولكن ليس أكثر نضجًا. كانت مهاجعنا في الفصول الثلاثة في الطابق الثاني، واحد لكل من أعضاء الشرطة العسكرية والاستطلاع وسرية الإشارة. كان معظم الرجال في هذه القوات شبابًا صغير السن أملس الخدود. انشق بعضهم عن جيش بلدنا السابق، الاتحاد البائد الذي أصبحنا الآن في حالة حرب معه، بينما كان آخرون من المتطوعين الذين تم تعيينهم هنا بعد عدة مهام أخرى، أما البقية فكانوا مجندين إجباريين، أي الرجال الذين لم يبادروا لكنهم استجابوا بشرف لنداء الوطن.

كانت غرفة العمليات من الداخل غريبة بالنسبة لي. جلست على مكتب مدرسي وشعرت ببعض السخافة بينما كان ضباط الأركان يجلسون أمامي. كانت تتدلى من خلف ظهورهم سبورة مُعلقة رسم عليها أحدهم شعار نبالة دولتنا المستقلة حديثًا، مُزيّنًا بأزهار صغيرة. تساءلت عما إذا كان قد أصبح سلوكنا جميعًا صبيانيًّا في خضم هذا الجنون، وما إذا

كان ذلك جيدًا أم سيئًا.

كانت إقامتنا هنا على خط الجبهة بالتأكيد تترك بصمة علينا. لقد أدركت لأول مرة مدى ذلك التأثير منذ فترة، عندما عاد برانكوفيتش -الذي كان حيًّا وبصحة جيدة في ذلك الوقت- من إجازة مرضية. كان برانكوفيتش دائمًا جزءًا من مجموعتنا؛ القلائل منا الذين أحبوا نفس الأفلام وضحكوا على نفس النكات. في بعض الأحيان كنا نقوم بعمل مقالب، لكن بلا شيء خبيث أو مؤذٍ. كانت أسوأ مرة قمنا فيها بذلك هو عندما قمنا بتشغيل صفارة الإنذار بجوار أذن شيمي. كان ذلك بعد أيام قليلة من إعطائه قيادة مجموعتنا، وكان قد عاد لتوه من دورية ليلية وخلد للنوم. دفعته صفارات الإنذار هو وبقية من في المقر إلى حالة من الهرج والمرج. وفي أعقاب الحادث، أراد العقيد كفاتيرنيك معاقبة جميع المتورطين، لكن لحسن الحظ، كنا ننتمي إلى وحدة ملحقة، ولم يكن من الواضح ما إذا كان كفاتيرنيك هو المسؤول عنا. سلم الأمر إلى سيروفاك، ونقله سيروفاك إلى شيمي، الذي كان يتمتع بصبر كبير على هرائنا وأقنعهما بأنه سوف يقوِّمنا بمفرده. وفي النهاية، لم يعطنا "شيمي" حتى ولو نظرة مزدرية. فقد أدرك على الأرجح أنه من جلب المقلب لنفسه. إذ إنه قبل أن يخلد إلى النوم، قال إنه كان متعبًا جدًّا لدرجة أنه يمكنه أن ينام حتى ولو أثناء غارة جوية.

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، تعرض برانكوفيتش لكسر في إصبعه. كان يخرج من الشاحنة عندما أقفل تشيركيز الباب على يده بالخطأ. ونتيجة لحدوث كسر في سبابته في مكانين مختلفين، توجب إرساله إلى المنزل لمدة شهر. عندما عاد، لاحظنا أنه أصبح منعزلًا. كان لا يزال يتسكع معنا، لكنه بدا هادئًا للغاية. عندما واجهناه بشأن ذلك،

مشيرين إلى أنه لا يمكن لأحد أن يتغير بنفس الطريقة التي تغير بها، تردد، ثم اعترف قائلًا: "أنا آسف يا رفاق، لكنني لم أعد أفهمكم بعد الآن. أنتم لستم كما كنتم في البداية".

أدركنا بعد ذلك أنه لم يكن برانكوفيتش الذي قد تغير. فلقد مررنا بتحول جذري في غضون شهر، وبالنسبة لشخص فاتته العملية برمتها، لم تكن النتيجة منطقية. فتح تعليقه أعيننا وجعلنا نتساءل عن الجنون. تناقشنا حول ما إذا كان الجنون أشبه بمنحدر زلق أم أنه مجرد عتبة واضحة يتجاوزها المرء بخطوة واحدة. كان السؤال الرئيس حينها هو هل يمكن للمجنون أن يدرك أنه مجنون؟ أو ماذا عن مدمن الكحوليات؛ هل يعرف الكأس المحددة التي ستودي به إلى السكر والهذيان، وحتى لو فعل ذلك، فهل يرتد عن الحافة أم يتجاوزها عن طيب خاطر؟ لم يكن من المفترض علينا أن نحتاج إلى برانكوفيتش ليخبرنا إلى أي مدى تركنا العقلانية خلفنا. فنحن للترويح عن النفس، كنا نقف في روض فسيح ونطلق النار بعضنا على بعض ببندقياتنا من على بعد خمسين خطوة، مستهدفين أقرب ما يمكن إلى رؤوس بعضنا بعضًا. بدا الأمر ممتعًا عند الاستماع إلى صفير الرصاص بجوار آذاننا. فقد أردنا أن نرى إلى أي مدى يمكننا الاقتراب وما إذا كان الفضول يستحق المخاطرة. ورغم أنها كانت لعبة مريضة، إلا أننا كنا نضع حياتنا بين أيدي بعضنا بثقة تامة. بدا ذلك طبيعيًّا حينها.

"أولًا وقبل كل شيء، مرحبًا بعودتك، أيها الرجل المحظوظ". كان الرفيق السياسي يوجّه حديثه لي.

كان لقب "الرفيق السياسي" هو اللقب الذي نطلقه على الضابط الذي

كان يرتدي منذ وقت ليس ببعيد زي الاتحاد الفيدرالي ذا اللون الأخضر الزيتوني. فقبل أشهر قليلة فقط، كان يلقي لجنودهم، الذين أصبحوا العدو الآن، نفس الخطب التي كان يلقيها لنا، فقط من الجانب الآخر.

بعد تحدثه، أعطاني كل الحاضرين نظرة أبوية عطوفة. شعرت أن خدي يحترق من الحرارة. حيث كان الوقت الذي يمكنني فيه التفكير في الأحداث التي وقعت في المنشرة دون أن أشعر بالخزي أو العار لا يزال بعيدًا في المستقبل.

تابع الرفيق السياسي حديثه: "نود أن نسألك بعض الأسئلة، إذا لم تكن لديك مشكلة".

"أخبرت سيروفاك بكل شيء، لكن تفضل. اسأل أي شيء تريده".

"حسنًا، الأمر يتعلق بالرجل الذي أحضرته مع....".

قاطعته: "لم أحضره. هو الذي أحضرني، ولو لم يكن موجودًا...".

"نعم أعرف ذلك. إذًا أنت تدّعي أن هذا الرجل قتل ثلاثة حراس مسلحين وجلبك إلى بر الأمان؟ وفعل ذلك ويداه مقيدتان؟".

"أخبرت سيروفاك بما فعله بالتفصيل. لكنني لم أقل قط إنه قتل الحراس. لقد طعنهم بسكين. لا أعرف ما إذا كانوا قد نجوا أم لا".

"حسنًا. هل قلت إن هذا الرجل يعاني من فقدان الذاكرة؟".

"لا. قال ذلك الدكتور راوكار. قلت إن الرجل أخبرني أنه لا يمكنه تذكر اسمه أو وحدته. لكن ليس لدي أي فكرة عما لديه".

أخرج الدكتور راوكار، عندما سمع اسمه، علبة سجائره ونقر على قاعها، وأخرج واحدة منها وأشعلها. كان الدكتور راوكار أحد المتطوعين. لقد وقّع على وثيقة التطوع بمجرد اندلاع شرارة الحرب الأولى. فقد كان سُعاة البريد في المدن لا يزالون يسلمون خطابات التجنيد من كل من الدولة السابقة وجيشنا النامي حديثًا عندما كان راوكار بالفعل على خط المواجهة في الريف. تم تجنيده مثل أي جندي آخر. ثم نُقل إلى مقرنا بسبب نقص الكوادر الطبية. لم يكن لدينا أي فكرة عن اختصاصه، لكننا كنا نذهب إليه جميعًا سواء أكان لدينا ألم في الأسنان، أو وجع في الظهر، أو حرق في الإحليل.

أخذ نفسًا عميقًا ووضع علبة سجائره على الطاولة. "لقد تحدثت إلى الشاب، ويمكنني أن أقول ما يلي. أولًا، علم النفس والطب النفسي ليسا مجال خبرتي".

"بقدر معرفتنا يا دكتور، فأنت طبيب نساء، ولا يوجد شيء في هذا اللواء يقع ضمن نطاق خبرتك"، قال العقيد كفاتيرنيك ساخرًا.

"لا ليس صحيحًا على الإطلاق، أيها العقيد. فهناك عاهرات في هذه الحرب أكثر مما رأيته في عيادتي".

من ناحية، كنت ممتنًا لهم لمحاولة تهدئة وتلطيف الأجواء. من ناحية أخرى، كنت أتمنى أن يقوموا بتسريع الأمر.

تابع راوكار حديثه: "كما قلت، هذا ليس مجال اختصاصي، لكن هناك شيء واحد أعرفه. في جميع الحالات تقريبًا، لا يتذكر المريض المصاب بفقدان الذاكرة الحادثة التي تسببت في فقدان الذاكرة. لنأخذ حادث

سيارة كمثال. فلن يكون آخر شيء يتذكره الشخص هو الحادث نفسه. بل سيتذكر أنه كان يقود سيارته، وبعد ذلك، ستكون لديه فجوة في ذاكرته. أو دعونا نأخذ الصدمة الناتجة عن...".

تدخل الرفيق السياسي: "لنأخذ حالتنا الحالية كمثال يا دكتور". الرجل يقول إنه هاجم دبابة بمفرده، وبعد ذلك ردت الدبابة بإطلاق النار، وأصابت مكانًا ما بالقرب منه، وجعلته يفقد الوعي".

"يصعب تصديق ذلك. يكاد يكون من المستحيل أن يتذكر لحظة وقوع الحادث نفسه. ربما يتذكر الذهاب في مهمة. ربما يتذكر الدبابة، ولكن إطلاق النار والضربة... أشك في ذلك".

أمسكتُ علبة السجائر من على طاولتهم وأخذت واحدة دون استئذان. كنت متعبًا جدًّا من الليلة السابقة وشعرت أنني معفي من واجب طلب سيجارة أو الإذن بالتدخين. كنت الوحيد في الغرفة الذي نظر إلى العدو في عينيه مباشرة وليس من خلال منظار. وسواء أكان هذا سيزعج الآخرين أم لا، في ذلك الوقت، فقد أردت منهم أن يتذكروه.

قلت: "دكتور، هل الحالة مستحيلة أم شبه مستحيلة؟".

نظر إليّ الجميع باهتمام، ثم أداروا رؤوسهم نحو راوكار. "انظر، كما قلت، إنه ليس تخص...".

"ليس تخصصك يا دكتور، أعرف. ومع ذلك، فأنت ما زلت تتحدث عن الحالة ويُتوقع منك أن تبدي رأيك. فأخبرنا برأيك. هل هناك أي احتمال أن الرجل المجهول يقول الحقيقة؟".

"هناك. بالطبع هناك".

”وهل هناك، في رأيك، سبب وجيه لجندي لطعن ثلاثة من تلقاء نفسه، وتحرير أسير، وإعادته إلى لوائه؟“.

”لا يوجد منطق في ذلك، لا“.

”بالضبط. ولكن، لم يكن هناك منطق في الاحتفاظ بالموقع الذي فقدناه بالأمس. أو أن نُترك هناك مثل كبش فداء دون أي مبرر تكتيكي على الإطلاق. لكن الجميع يسعدهم تجاهل ذلك حتى يبدوا قلقهم من رجل تميز في المعركة. يزعجكم أنه لا توجد رقعة على كمه وأن لهجته لا يمكن تمييزها. حسنًا. دعوني أقول لكم شيئًا. عندما ترسلونني في المرة القادمة في مهمة، سأنزع رقعتي أنا أيضًا. وآمل أن أتعلم اللهجة المحلية. فإذا كان بإمكاني تصوير نفسي كواحد منهم أو كواحد منا حسب الحاجة، فربما لن أحتاج إلى الركض كثيرًا عبر الغابة“.

حاول الرفيق السياسي إعادة الحديث إلى مساره: ”ولكن هذه هي المشكلة بالضبط“.

”ما هي؟ أن يكون لدينا شخص تحت هذا السقف كان يرتدي زيهم وهو يرتدي الآن زينا؟“.

ابتسم الرفيق السياسي بتصنع. حدقتُ به دون أن أرمش. ساد صمت غير مريح بالغرفة.

أنهاه راوكار قائلًا: ”أعترف أنه أمر غير منطقي“.

”إنه حقًّا غير منطقي، أليس كذلك؟ غير منطقي ألا يأخذ أي شخص الوقت الكافي ليسأل نفسه عما إذا كان على شيمي وبرانكوفيتش أن يموتا في المنشرة، لكنكم تسرعون في التكهن بما إذا كان الرجل

المجهول قد أُرسل في مهمة سرية لقطع أعناقنا أثناء نومنا. أنتم لا تفكرون حتى فيما إذا كانت قصته منطقية أم لا. فهو يقول إنه أطلق النار على دبابة فاستدارت الدبابة سريعًا باتجاهه وأطلقت النار عليه. أي دبابة قادرة على رد النيران بهذه السرعة؟".

"دبابة الإم84- تتحرك باتجاه الضرب أوتوماتيكيًّا". قال سيروفاك، الذي ظل صامتًا حتى ذلك الحين.

"هذا صحيح، الإم84-. هل لدينا أي دبابات إم84-؟".

تبادل الجميع نظرات تملؤها الحيرة.

"على حد علمي، نحن نملكها بالفعل". تحدث سيروفاك مرة أخرى. "لدينا واحدة. إنها تتمركز مع اللواء 201، على بعد ثمانين كيلومترًا من هنا".

كان يملك سيروفاك ثقة كبيرة بالنفس. فقد كان مسؤولًا عن الشرطة العسكرية ويحظى بتقدير كبير للطريقة التي كان ينشر ويعسكر بها رجاله. فبينما كان رجال الشرطة العسكرية المتمركزون في المدينة يتجولون في الغالب بلا هدف، كان يؤدي رجال سيرو مهام الحراسة، ويذهبون في دوريات ليلية، ويتناوبون في السجن، ويرعون كبار السن الذين تُركوا وحدهم في القرى، ويجلبون الجنود المخمورين عند مضايقتهم المدنيين المحليين، كما عملوا كفرقة إعدام للمجرمين المدانين، وكانوا يرافقون الضباط في مهام مختلفة، حتى لو كان الضابط بحاجة فقط لإحضار حقيبة منسية. كنت أشعر بالقرب من سيرو لأن وحدتي كانت تتقاسم واجباتها مع رجال الشرطة العسكرية.

وقد أدركتُ في نبرته الدعم. فإذا كان أي من الأشخاص أمامي سيقف إلى جانبي ويدعمني، فسيكون سيروفاك، الذي دائمًا ما يتمسك برجاله ويدعمهم.

تابعت حديثي: "لذا فإن شكوككم لن تكون منطقية إلا إذا كانت القصة تتمثل في أن أحد جنودهم قد أطلق النار على دبابة إم84- لدينا، وفقد الذاكرة، وعبر ثمانين كيلومترًا من التضاريس المتجمدة في غضون ساعتين، وتم أسره في مؤخرة المنشرة من قبل رجاله. لا شيء من ذلك يبدو منطقيًّا، وأنتم تتجاهلون أجزاء القصة التي تبدو كذلك".

نهض راوكار من على الطاولة، ومشى إلى الموقد، ووضع حطبًا في النار. بدا أنه يشاركني رغبتي في انتهاء المحادثة. بدت إيماءاته وحركاته مدفوعة برهاب الأماكن المغلقة أكثر من الحاجة إلى إبقاء النار مشتعلة في الفصل التعليمي الدافئ تمامًا. كنت أشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه. استمر الصمت حتى عاد إلى مكانه. إذا كان يأمل أن يستغل الآخرون غيابه للوصول إلى نتيجة، فقد كان هذا بلا طائل. فقد كان زملاؤه صارمين لا يلينون. إذ لم يرغب أي منهم في أن تكون له الكلمة الأخيرة.

أنهى العقيد كفاتيرنيك ذلك الانتظار: "إذًا، دكتور، ماذا بعد؟".

تنهّد راوكار وفتح فمه ثم تنهد مرة أخرى. ثم بدا أن الإلهام قد هبط عليه في برهة واحدة: "القضية تتطلب رأي متخصص. ويتصادف أنه بحلول نهاية الأسبوع قد تنضم إلينا إخصائيتان نفسيتان شابتان. العقيد كفاتيرنيك على علم بطلبهما. أليس كذلك أيها العقيد؟".

أومأ كفاترنيك موافقًا، وأردف: "طُلب منا السماح لاثنتين من طالبات علم النفس في السنة الأخيرة بالانضمام إلينا لمدة عشرة أيام. تريدان القيام ببعض المراقبة لجنود في منطقة حرب. إنه موضوع أطروحتهن".

تنفس راوكار الصعداء، وقال: "حسنًا، في هذه الحالة، أقترح أن ننتظر حتى يقول الخبراء كلمتهم، وحتى ذلك الحين...".

قال سيروفاك: "حتى ذلك الحين، سنعتني بالرجل. سنعطيه زيًّا جديدًا، ويمكنه أن يهجع مع رجال الشرطة. لدينا العديد من الأسرّة الفارغة. أو يمكنه البقاء مع الاستطلاع".

"لا يوجد فارق فعلي" قال الرفيق السياسي، "فأنت مسؤول عن كليهما. وأنا متأكد من أنك ستراقبه جيدًا".

وضعتُ سيجارة أخرى في فمي وغادرت دون استئذان. تم حل المشكلة، مؤقتًا على الأقل، وكنت سعيدًا بذلك. شعرت فقط ببعض الأسف لراوكار، الذي تم تكليفه بمسؤولية لا ينبغي أن تُلقى عليه. ثم مرة أخرى، سرعان ما سيخرج راوكار من موقف أكثر صعوبة، ليثبت أنه يمكن أن يكون زلقًا مثل قنديل البحر؛ أو بالأحرى كقطعة من هلام البقر.

أميدزا

كان الرجل المجهول مصدر إزعاج للضباط، لكن بقية اللواء لم يستطع الانتظار للترحيب به في صفوفنا. كانت قصة هروبنا تنتشر كالنار في الهشيم، وكان الجميع يريدون مقابلة البطل. وفي غضون ساعات من عودتنا، أخذ مئات الأشخاص يتناوبون على سلامه وتحيته بينما يعتصرون يده ويحشون جيوبه بالسجائر، بينما بالأسفل في حانة القرية، حيث يتم تقديم البيرة عادة فقط، أخذ يحيي الرجال بعضهم بعضًا بالبراندي، والذي كان يُفتح عادة فقط بتصريح خاص من الشرطة العسكرية.

أما أنا فقد عوملت بتعاطف وشفقة، مثل الشخص الذي فقد أحد أفراد أسرته. كان شيمي صديقي وقائدي. وعلى الرغم من أنه كان يكبرني بخمسة عشر عامًا، إلا أنه كان أفضل من أتناغم معه. لقد كان رجلًا ذكيًّا، ذا سعة اطلاع وثقافة، وعلى عكس معظم الناس من حولنا، لم يكن فظًّا على الإطلاق. لم أسمعه مطلقًا يشتم أو يقول أي شيء بذيء أو يهين أي شخص. وكنا نشكل معًا أنا وهو فريقًا لا يُهزم في لعبة تخمين الأفلام. كان غالبًا لا يحتاج إلى أكثر من إشارة أو تلميح واحد بسيط للتوصل إلى عنوان الفيلم والمخرج وسنة الإصدار. لقد كنا متفوقين في اللعبة لدرجة أننا كنا نستمتع بمنافسة بعضنا بعضًا حتى عندما لم نكن نتنافس ضد شخص آخر. حيث نكون على سبيل المثال في

منتصف العشاء فأصرخ "شيمي! السعفة الذهبية[10]عام 1984". فينحني رأسه فوق طبقه، بينما يبتلع الطعام ويجيب "فيم فيندرس. باريس، تكساس".[11] ثم يعود إلى طعامه، غير آبه أو مهتم بينما يمتلئ المقصف بالتصفيق. الآن، كان الجميع يربت على ظهري كما لو كانوا يعزونني.

كان شيمي أكثر من مجرد قائد فرقتنا، فقد كان رمزًا وقدوة بالنسبة لنا. كان ينصحنا عندما يحتاج أحدنا إلى النصيحة، لكنه كان يفعل ذلك بشكل خفي، متجنبًا الوعظ أو التوبيخ. لقد كان يعرف كيف يدفعنا في الاتجاه الصحيح من خلال السماح لنا بالتوصل إلى استنتاجاتنا الخاصة. وإذا أخطأنا، كان يمنحنا مساحة، بحيث يسمح لنا بالتنفيس عن غضبنا حتى ندرك بأنفسنا أننا أخطأنا. قبل التجنيد، كان يدير متجرًا لتأجير شرائط الفيديو دشّنه في مرأب والده.

لقد جاء إلى الجبهة الأمامية مع مجموعة من أصدقائه؛ عشرة منهم أو نحو ذلك، والذين كانوا من بين أوائل المتطوعين. لقد فعلوا هذا معًا، مثل أشياء أخرى كثيرة. لقد نشؤوا وترعرعوا معًا في نفس الشارع وبقوا مقربين من بعضهم جيدًا حتى مرحلة البلوغ. وحتى عندما تزوجوا وغادروا مكان نشأتهم، استمروا في الذهاب للحي القديم للتسكع وقضاء بعض الوقت مع معارفهم القديمة. لقد كانت لديهم ثروة كبيرة من الذكريات المشتركة تبقيهم مستمتعين، وكذلك نية وعزم على الإضافة إليها مع تقدمهم في العمر. قبل ذهابهم إلى الحرب، كانوا لا

10- السعفة الذهبية Palm d'Or هي أعلى جائزة تُمنح للأفلام في مهرجان كان السينمائي. (المترجم)

11- باريس تكساس Paris,Texas هو فيلم دراما صدر عام 1984 من إخراج المخرج الألماني فيم فيندرس Wim Wenders. (المترجم)

يزالون يتقابلون عند مقدمة شارعهم، يضحكون ويتسامرون معًا حتى وقت متأخر من الليل.

لقد جاؤوا من حي يبدو، حتى الآن، كما لو أن الزمن قد توقف فيه منذ قرن مضى. فجميع المنازل عبارة عن مبانٍ تحمل طابع القرن الماضي مع واجهات من الطوب مزينة باللبلاب، ومكونة من طابقين مع شقتين في كل طابق، وحدائق مشتركة في المقدمة. كان يكفي المرء أن يدير ظهره إلى ناطحات السحاب لينسى أنهم هناك. في وقت نشأة شيمي، كان الحي هو ذلك النوع من الأحياء الذي يعرف كل شخص فيه كل شخص آخر. ولم يكن لديه هو وأصدقاؤه نهاية للقصص المضحكة حول تمثيلهم لدور الأبرياء عندما كان يقوم الجيران بتوبيخهم بسبب بعض الأذى الذي تسببوا به في طفولتهم. وإذا لم يكن لديهم مفر من الاعتراف بأنهم قد أصابوا، فعلًا، نافذة جار مطمئن بثمار البرقوق الفاسدة، فقد كانوا يلقون باللوم كله على أميدزا.

لكن في النهاية المطاف، سيفقدون جميعًا حياتهم في الحرب واحدًا تلو الآخر. فلم يتبق من المجموعة بأكملها سوى أميدزا فقط. أراه أحيانًا يسير في شارعه وحده. يتوقف عن سيره ويتمتم ببعض السباب، بينما يتلطخ ظهر معطفه الأسود بالفاكهة الفاسدة. إنه هدف مثير بالنسبة لبعض الأطفال الجدد الذين لا يتكلف آباؤهم عناء توبيخهم. لقد حلّ زمن مختلف واستنزف ذكريات الماضي، مما أدى إلى تلاشيها مثل ملصقات الأفلام المُلصقة على جدران متجر شيمي المهجور.

لم تتزوج زوجة شيمي، التي تعمل مُدرسة، بعد وفاته. أنهى ابناهما الاثنان دراستهما الجامعية بمساعدة المنح الدراسية الحكومية.

وقد حصلت على شقة من المدينة وتعيش هناك وحدها. كان شيمي وأصدقاؤه نواة إحدى أولى وحدات الشرطة العسكرية. ولأنهم عاشوا في نفس الحي وكانوا يتمتعون بسمعة المشاغبين، فقد سميت الوحدة (مشاغبي الحي)[12].

***

نجا سبيدي وتشيركيز من المنشرة بطريقة جعلتني أشعر بالذهول. لقد قفزا في النهر أيضًا، لكنهما تركا ببساطة التيار ينقلهما إلى القرية الأولى في أراضينا. لقد ظلّا مع بعضهما، وبما أن كل واحد منهما وضع أقصى قدر من الثقة في الآخر، فقد شكّلا فريقًا قادرًا ليس فقط على التغلب على المخاطر ولكن أيضًا على لعب دور رئيس في أحداث تلك الليلة؛ إذ كان الوميض الناري الذي رأيته قبل أن أفقد الوعي بسببهما هما الاثنان. لقد خرجا من النهر بعد عدة كيلومترات في اتجاه التيار ووصلا إلى بطارية المدفعية الخاصة بنا. فبفضل الإنذار الذي أطلقوه، لم يضطر لواؤنا أبدًا للانخراط في معركة. حيث قصفت مدافعنا المنطقة الفاصلة بيننا لساعات وأجبرت العدو على الانسحاب والتراجع.

جعلتني قصة سبيدي وتشيركيز أدرك تمامًا مدى ضآلة احتمال أن العدو كان سيعاملني برحمة. لقد وصلوا متعطشين للدماء ولم يتذوقوا سوى حديد قذائفنا. كانوا لن يسمحوا لي بالبقاء على قيد الحياة لو لم يتدخل "الرجل المجهول". أنا مدين له بحياتي، وشعرت أنه أمر غريب بشكل لا يوصف.

12- تعني كلمة Blockbusters في الإنجليزية الآن: الأفلام الرائجة، كما أن الكلمة عند فصل مقطعيها Block-Busters، فإن كل كلمة منهما يكون لها معنى مختلف (مشاغبو الحي)، وهذا التداخل بين المعاني هو في صُلب ما يرومه المؤلف (المترجم).

تم العثور على أميدزا في الصباح من قبل مجموعة من عناصر الاستطلاع في الغابة التي تطل عليها المنشرة. لم يبتعد كثيرًا. أثناء رحلته، فقد حذائه لأنه كان يرتديه دائمًا بشكل غير محكم. سخر منه البعض على ذلك، قائلين إنه لا بد أن يكون غبيًّا تمامًا حتى يفقد حذاءه. لم يضحك أي من أفراد الشرطة العسكرية أو الاستطلاع؛ فقط ضباط الأركان الذين بقوا في الخلف دائمًا. كان يتبختر هؤلاء الضباط من ذلك النوع في الممرات بأحذية عالية دون أربطة، بينما يطلقون هراءً بشأن أحذيتهم التي تثير الرعب في قلوب الأعداء منذ عام 1941. بينما كان يمضي عناصر الاستطلاع والشرطة العسكرية أربعًا وعشرين ساعة في اليوم في حالة تأهب قتالي كامل وعرفوا ما يعنيه العيش في حذاء واحد لأشهر. فقد كنا نقضي عشرين ساعة في اليوم في الخدمة، وحتى بقية الوقت، بينما كنا نحاول اللحاق بالنوم، لم يُسمح لنا بخلع ملابسنا. كنا نحصل على استراحة فقط عندما يصطحب أحدنا العقيد كفاتيرنيك إلى المنزل أو يرافق عملية نقل السجناء إلى سجن المدينة. فالرجل المحظوظ بما يكفي للحصول على تلك المهمة سيبقى في المنزل طوال اليوم ويقضيه في حوض استحمام ساخن.

تم العثور على أميدزا واعيًا ولكنه كان يعاني من قضمة الصقيع[13]. كان لا بد من بتر كل أصابع قدميه. عندما أخبره الأطباء أن أصابع قدميه قد اختفت، لم يرد سوى بالضحك. أخبر مجموعة من ضباط الأركان عن ذلك بعد عدة سنوات، في حفل تكريم. قال إنه كان يعتقد أن الأطباء

13- قضمة السقيع هي الحالة الناجمة عن تلف في أنسجة الجسم نتيجة البرد الشديد. ويظهر ذلك إما على شكل حروق (تدعى الحروق الباردة) أو تورمات في الأجزاء الأكثر تعرضًا للبرودة المفاجئة. (المترجم).

يمزحون معه. حيث أقسم إنه كان يمكنه أن يشعر بكل إصبع في قدمه أثناء إقامته في المستشفى، وصولًا إلى الألم في أظافر قدميه. وعندما أدرك أخيرًا أن الأطباء كانوا جادين، استمر في الضحك. قال للجنرال الذي منحه ميداليته: "كان الأمر أسهل من البكاء".

"ولكن أميدزا، ما هو أول ما فكرت به؟" سأله الجنرال.

اتكأ أميدزا على عكازيه. فكر بعمق ثم تنهد: "كانت هناك تلك الممرضة التي كانت تجعل قضيبي ينتصب بقوة. كانت سوداء الشعر. بتسريحة تشبه تسريحة كليوباترا". حرك إصبعه على جبهته وهو يسترجع تلك الذكريات. "فكرت أنه في اللحظة التي تأتي فيها زوجتي لزيارتي، سأطلب منها قص شعرها بهذه الطريقة".

ضحك الجنرال في حيرة وارتباك. "ولكن ماذا عن أصابعك يا أميدزا". قال أميدزا: "أصباعي جيدة. فقط أغلقت الباب عليها. تبدو أسوأ مما هي عليه، أليس كذلك؟"؛ ثم قام بإظهار أصابعه الوسطى إلى الجنرال.

جنون ارتياب

كانت أجواء المهجع مشبعة بالترقب. جمعنا الدكتور راوكار ليخبرنا أننا بحاجة لأخذ لقاح السل. وكان فريق من الأطباء من المدينة سيأتي لإدارة العملية. لم يتم إعفاء أي شخص؛ حتى أنتوني، الذي لم يكن ينتمي إلى أي وحدة، قيل له إنه يجب أن يشمّر كمه. أما إصراره على أنه جاء لتوه للزيارة فقط فلم يلق آذانًا صاغية. أوضح راوكار سبب ضرورة احتياجنا للتطعيم بالنظر لطبيعة حياتنا، لذلك لم يتذمر أحد كثيرًا؛ على الأقل، حتى دخل الطاقم ذو الملابس البيضاء الغرفة ورأينا أنه لا توجد أي ممرضات، فعند هذه النقطة بدأنا في إطلاق صيحات الاستهجان بصوت عال. وكرر راوكار أنه لن يتم إعفاء أحد. وشمل ذلك الرجل المجهول، لذا فقد أخذ مكانه أيضًا في الصف.

تم التطعيم بسرعة. كان على كل واحد منا أن يقترب من الطاولة، ويسرد بياناته، ويمد ذراعه، ويتلقى الإبرة. كان من المضحك مشاهدة الرجال الذين واجهوا العدو أكثر من مرة وهم تعبس وجوههم من الألم بعد شعورهم بوخز الإبرة. قام الطبيب بتسجيل أسمائنا على ورقة ووضع علامات بجانبها. ذهب أولئك الذين تلقوا تطعيمهم للجلوس على أسرّتهم وانتظروا، بينما تغشى وجوههم ابتسامة خبيثة في انتظار دور الرجل المجهول. وعندما اقترب أخيرًا من الطاولة، كرر الطبيب أسئلته المعتادة. "الاسم، اللقب، تاريخ الميلاد، الرتبة؟".

عم الصمت وساد الهدوء المهجع. لم أشهد أبدًا مثل هذا الهدوء من الثلاثين شخصًا المجتمعين في الغرفة. حتى في الليل، كان دائمًا ما يوجد شخص يتقلب ويتحرك، أو يدخل ويخرج من الغرفة، أو يتمتم أثناء نومه، أو ينقر على ولاعته، أو يضيف الحطب إلى الموقد. الآن، كانت الأجواء وكأننا في منتصف قُدّاس.

نظر الرجل المجهول إلى الطبيب وأجاب بصدق: "لا أعرف".

انفجر الرجال بالضحك. نظر الرجل المجهول متوجسًا، لكننا غمزنا له، موضحين أننا لم نكن نضحك عليه.

كرر الطبيب السؤال بنظرة مندهشة: "اسمك ولقبك من فضلك".

"جيسون بورنا[14]، عميل فقدان الذاكرة"، قلت من سريري.

استجابت الغرفة بوابل من الضحك مجددًا.

"بورنا؟ عميل؟" نظر الطبيب حوله وابتسم في حيرة.

"نعم، نعم، بورنا!" استجابت جوقة من الأصوات من جميع الجهات، وبهذه الطريقة امتلأت الغرفة بالتصفيق.

بدأنا بالوقوف والجلوس، مُشكّلين أمواجًا مثل تلك التي يقوم بها جمهور الملاعب بينما نهتف "بورنا! بورنا! ". انحنى الدكتور راوكار نحو زميله وهمس بشيء في أذنه، ثم التفت إلينا مشددًا على كل كلمة: "يا رفاق، يجب أن أطلب منكم..." لكن معظمنا انخرط في الصياح

14- جيسون بورن Jason Bourne هو شخصية خيالية لعميل مخابراتي ابتكرها الكاتب الأمريكي روبرت لودلم في ثلاثية روائية له. (المترجم)

والضجيج.

عندما أكمل الأطباء التطعيم، قاموا بتعبئة أدواتهم، واحتسوا البراندي مع كل من راوكار وسيرو، وودعوا الجميع في المهجع، وهمّوا بالمغادرة. وفي طريقهم للخروج، خاطبنا الطبيب الرئيس مرة أخرى. "يا رفاق! لقد تم تسجيلكم الآن على أنكم تلقيتم اللقاح. سأراكم في غضون أسبوعين حيث ستحصلون على حقنة أخرى".

"تقصد إذا نجونا من هذه!" صرخ أحدهم، ووسط ضحك عام، كان يغادر الفريق ذو الملابس البيضاء.

"انتظروا دقيقة!".

استدار الأطباء نحو المهجع. نظرنا بعضنا إلى بعض بنظرات جادة. كان لدى بورنا المعمَّد حديثًا ما يقوله. ولم يترك وجهه الجاد للغاية مجالًا للمزاح.

قال مرة أخرى: "انتظر لحظة يا دكتور. إلى أين أنت ذاهب بتلك الورقة؟".

لم يفهم أحد ما كان يحدث. همس أحدهم ورائي: "ما خطبه بحق الجحيم؟" نهض سيروفاك من الطاولة. لوح بسيجارته وقام بضبط سترته متوقعًا تفسيرًا مثلنا تمامًا. بدا كل من في الغرفة في حيرة. أدرك الطبيب أنه لم يكن الوحيد الذي لم يفهم ما يجري. قال بنبرة يشوبها الغضب: "أي ورقة تلك التي تتحدث عنها أيها الشاب؟".

اقترب بورنا من الطبيب وأشار بإصبعه إلى حقيبته: "لقد وضعت للتو ورقة في حقيبتك تحمل أسماء كل من في الغرفة. الأسماء والألقاب

وتواريخ الميلاد والوحدات والرتب. لماذا تحتاج إلى هذه الورقة؟".

اكفهر وجه الطبيب، بعدما صُدم بشدة من النبرة الاتهامية. "نحن بحاجة إليها لأنه في غضون أسبوعين سنحتاج إلى تسجيل مرة أخرى من تم تطعيمهم وكيف تفاعلوا مع اللقاح".

"إذا كان هذا كل ما في الأمر، يمكنك تركها هنا مع القائد. إلا إذا كنت تخطط لاستخدامها لغرض آخر؟".

فقد الطبيب أعصابه. "ماذا تقصد يا فتى. أستخدمها من أجل ماذا؟!".

"ربما لإرسالها بالبريد إلى العدو؟ حيث سيكون ذلك بمثابة انتصار عظيم؛ أن يحصلوا على اسم كل رجل في اللواء".

"إرسالها بريدًا للعدو! ماذا تقول!". قال أحد الرجال ذوي المعاطف البيضاء، "لقد تم قطع جميع الاتصالات منذ شهور!".

"وأنت تعتقد أن هذا يعني أن الأعداء على أراضينا ليس لديهم وسيلة للتواصل مع رجالهم؟".

دون انتظار إجابة، نظر بورنا في أرجاء الغرفة. "استمعوا لي. قد لا تعني هذه القائمة أي شيء اليوم أو غدًا، ولكن في غضون بضعة أشهر أو سنوات، يمكن استخدامها ضد الأشخاص الموجودين في هذه الغرفة؛ والأسوأ من ذلك أنه يمكن استخدامها ضد عائلاتهم. لا توجد حدود واضحة في هذه الحرب. يمكن لأي شخص أن يكون جاسوسًا".

قفز الجميع في الغرفة على أقدامهم. كان الأمر كما لو أن شخصًا ما قد نقر على مفتاح تشغيل. فبعد كلمات بورنا، رأينا الوضع من منظور

مختلف. كان الرجال في حالة اضطراب.

حاول الطبيب الحفاظ على هدوئه. "أنت تهينني أيها الشاب. أنا شخص نزيه وصادق".

"إذا كنت شخصًا صادقًا، فاترك قائمتك للقائد. لقد وافق الأشخاص الذين كُتبت أسماؤهم بها على التواجد هنا. وإذا كان هناك ثمن يجب دفعه مقابل ذلك، فهم على استعداد لدفعه. لكن يجب إبعاد عائلاتهم عن الأمر. إذ لا ينبغي جعل أي شخص يعاني بسبب خيارات الآخرين. فبينما يتواجد هؤلاء الرجال هنا، يمكن لشخص ما أن يفجر منازلهم".

ساد صمت يشوبه قلق في الغرفة، أكدته غمغمة الحشد، التي أثارها الخطاب.

"ما هي جنسيتك يا دكتور؟" سأل أحدهم.

قال الطبيب بنبرة متفاخرة: "أنا شخص إنساني متحضر وصادق".

لكنه كان يدرك ما كان يسير إليه الأمر، لذلك أخرج الورقة من حقيبته ووضعها على الطاولة. "مع ذلك، فأنت على حق. يمكن أن تبقى القائمة هنا، وسيقوم قائدك بإعطائي إياها في المرة القادمة".

همس راوكار: "سيكون هذا أفضل".

تبادل هو وسيروفاك نظرات غير مصدِّقة. كان سيروفاك لا يزال يستوعب الصدمة؛ إذ لم يكن من المفترض أن يمر عليه مثل هذا النوع من التفاصيل مرور الكرام، ناهيك عن أن شخصًا غريبًا كان يناقش مصداقيته قبل يوم واحد هو من قام بتدارك زلّته. بينما من الواضح أن

راوكار كان مرعوبًا من السرعة التي اجتاح بها جنون الارتياب الجماعي الغرفة. إذ أظهر الهجوم على زميله مدى سهولة اتهام أي شخص بأي شيء. بالطبع، كان من الجيد أن يتذكر راوكار ذلك، خصوصًا بعد شهرين، أثناء احتجازه من قبل رجال شرطة سيرو العسكرية. حيث سيكشف الفحص الروتيني لسيارته عن سبعين كيلوجرامًا من ضلوع اللحوم الممتازة المهربة مخبأة في صندوق السيارة. لقد تهرب من الملاحقة القضائية، لكن ليس اللقب. فحتى يومنا هذا، أصبح يعرف باسم دكتور "لحمة".

قلتُ، وأنا أقترب من بورنا وأضع ذراعًا حول كتفيه: "عمل جيد!" ثم نظرت إلى سيروفاك. كان قد عاد إلى الطاولة، ويعبث بفنجان قهوته. "سيرو! ما رأيك؟".

كان سيروفاك هو الوحيد في الغرفة الذي فهم سؤالي تمامًا. فقد اعتقد الآخرون أنني كنت أسعى للحصول على تأكيد بأن بورنا يستحق أن يكون في وحدتنا. لم يكونوا مخطئين، لكن بالنسبة لسيروفاك، كان للسؤال طبقات أخرى من المعاني. لم يُجِب. بدلًا من ذلك، سكب لنفسه كوبًا من البراندي ورفعه إلينا. امتلأت الغرفة بالحيوية مرة أخرى. لكن ارتفع صوت أحدهم فوق ضوضاء الحشد قائلًا: "هل أجاب الطبيب عن السؤال؟ هل سمعه أحد؟ ما هي جنسيته؟".

الصحافة

على الرغم من الأحداث البارزة في بعض الأحيان، فقد استقرت وحدتنا في حالة اللامبالاة منذ فترة طويلة. كان يتم إطلاق إنذارات الغارات الجوية، ولا ينزعج أحد أو حتى يتكلف عناء الذهاب إلى القبو. كنا نجلس على الطاولات أو نستلقي على أسرتنا ونحدق في السقف، في انتظار انتهاء عواء صفارات الإنذار. أدركتني إحدى هذه الغارات الجوية، قبل شهر من أحداث المنشرة، أمام مركز الشرطة في بلدة صغيرة على بعد خمسة عشر كيلومترًا من المدرسة. من المثير للاهتمام أننا لم نعتد مطلقًا على تسمية المدرسة "بمقر القيادة"، على الرغم من أننا لم تكن لدينا مشكلة في الإشارة إلى الفصول التعليمية بالمهاجع أو بالغرف. حيث كان هناك شيء ما حول تحويل مدرسة إلى ثكنة للجيش ما زال يحير ويصدم العقل. عندما انطلقت صفارات الإنذار، هربت الحياة كلها من الشوارع الخالية بالفعل. كان هذا معتادًا بالنسبة للبلدة. فسواء قبل الحرب أو بعدها، لم أرَ مكانًا آخر حيث لا يمكنك حتى رؤية قطة واحدة تعبث بالخارج. وقفت في الفناء، متكئًا على نصب تذكاري لشاعر توفي منذ زمن طويل، أشاهد شيمي وسبيدي. حدق سبيدي في السماء وهو يمضغ علكته كما لو كان على وشك ابتلاعها. بينما رمقني شيمي بنظرة صامتة وأشار برأسه نحو ملجأ مركز الشرطة. إذا كان أي من الإنذارات العشرة الأخيرة حقيقيًّا، فربما كنت قد أخذت إشارته بجدية أكبر. وبهذه الطريقة، بدا لي أن صفارات الإنذار تُطلق فقط لإعطاء الصحافيين طعمًا

للحياة بالقرب من خط المواجهة وشيء يضعونه في أخبار المساء. في البداية وجدت الأمر مفاجئًا؛ فقد كانت تبلغنا الإذاعة في بعض الأحيان أن آلاف الصواريخ قد أُطلقت علينا بينما كنا نقول إننا حظينا بيوم سلمي على نحو غير مألوف. لكن الآن، بات من الواضح أن كل طرف قد شن هذه الحرب بالسلاح الذي يستخدمه بشكل أفضل.

اقترب منا مراسل بريطاني ومصوره، الذي كان يريد التقاط صور لنا. أشار لهما شيمي بالإسراع إلى الملجأ، لكنهما أيضًا أصبحا غير مبالين بصفارات الإنذار. كان المصور منجذبًا إلى خوذتي وحاول بأي ثمن التقاط صورة لي من جانبي الأيسر. لكنني أحبطتُ جهوده بإبقائه عن يميني. كان لدي رمز سلام مرسوم على الجانب الأيمن من خوذتي، لكن على اليسار كتبتُ جملة:

"ولدت لأقتل Born To Kill" بخط أسود سميك، ويبدو أنه وجدها أكثر إثارة للاهتمام.

قلت: "يسار ويمين"، محاولًا شرح سبب كتابتي لما كان على خوذتي. "ين ويانغ. ولدت لأقتل وسلام. الثنائية. أتفهم؟".

استدار حولي في محاولة للحصول على الزاوية المطلوبة بينما يقول: "نعم. سترة معدنية كاملة[15]، أليس كذلك؟".

بصق شيمي على الأرض الموحلة بلا مبالاة بينما يشاهدنا من الجانب وقال: "كوبريك عام 87".

15- سترة معدنية كاملة Full metal jacket هو فيلم حربي صدر في عام 1987 من إنتاج وإخراج ستانلي كوبريك (المترجم).

بينما ظل المصور يحاول الالتفاف حولي، حاول المراسل تشتيت انتباهي من خلال تقديم علبة سجائر مارلبورو لي. في النهاية فقدت أعصابي وخلعت خوذتي. "لماذا تصر على التقاط صورتي من الجانب الأيسر؟".

اقترب منا سبيدي، الذي كان ينظر إلى السماء حتى ذلك الحين قائلًا: "إنه لا يهتم بقصتك يا رجل. إنه يريد السيرك، ونحن القردة التي من المفترض أن تقوم بالشقلبات البهلوانية من أجل علبة سجائر". ثم وقف في وجه المصور.

"هل تتحدث الإنجليزية؟".

ضحك الرجل بحيرة. لا بد أن سبيدي بدا غريبًا بالنسبة له؛ فهو بالكاد بعمر السابعة عشرة، ويرتدي زيًّا كبيرًا جدًّا عليه، مع عدة أقراط على شحمتي أذنيه وبندقية معلقة على كتفه.

"بالطبع نتحدثها، يا صاح. فنحن إنجليز".

دفع سبيدي الكاميرا إلى الجانب وأكمل حديثه باللغة الكرواتية. "حسنًا أيها الإنجليزي، الآن استمع إلي. أنت تود تصويرنا على أننا قتلة، أليس كذلك؟ حتى يمكنك العودة إلى المنزل وإخبارهم بتباهٍ: "أوه، لقد عشت بين المتوحشين، وبالكاد تمكنت من النجاة بحياتي!" حسنًا، هذه ليست الطريقة التي سينجح بها هذا الأمر، أيها الإنجليزي الأحمق. لا يمكن".

ألقى المصور نظرات حائرة على زميله، ثم عاد بأنظاره إلى سبيدي.

التفت سبيدي إلي: "كيف يقولون كلمة سلطعون؟".

حاولت ألا أضحك. لم يكن أحد متأكدًا من سبب كون لعنات وشتائم سبيدي المفضلة هي من القشريات، لكن الأمر لم يتطلب الكثير من الخيال لتخمين كيف سينتهي الأمر.

"أعتقد أنهم ينطقونها كراب Crab".

"كراب؟" حول سبيدي أنظاره إلى المراسلين. "عليك اللعنة يا سلطعون [كراب]، هل تفهم؟".

أدرك البريطانيان أن الجو أصبح مشحونًا. تبادلا نظرة صامتة، وابتسما ولوحا لنا وداعًا، وابتعدا عدة أمتار. ملأ سبيدي صدره بالهواء ووجهه إليهما، وأظهر لهما طية صدر سترته المموهة. وعلى طية صدر السترة كان يرتدي شارة سوداء صغيرة مكتوبًا عليها باللون الأبيض الحرف أ A. "أناركية!" صرخ باتجاههم. "تبًّا لملكتك!".

"لا تأبه بالملكة". قلت له بينما بدأت بالهرولة في المكان، وسحق الثلوج على الأرض بحذائي. "اللعنة على هذا الثلج. متى سنرى أي أشعة شمسية؟".

قال شيمي: "في الربيع".

"اللعنة، أشعر بالبرد حتى في أخمص قدمي. لم أرَ قط شتاءً به أيام مشمسة قليلة هكذا".

"لم أر الشمس منذ أن جئنا إلى هنا". قال سبيدي وهو لا يزال يحدق في البريطانيين.

أومأ شيمي برأسه إلينا، ليحثنا على الذهاب. "هيا بنا. لنحضر بعض

القهوة ونتدفأ قليلًا".

"أليس من المفترض أن نكون في وسط غارة جوية؟".

"أوه، أنا أعرف أين يصنعون القهوة سواء أهناك غارة أم لا".

ظل البريطانيان بالقرب من النصب التذكاري، يلتقطان صورًا لمغادرتنا. كنا قد تركناهما على مسافة أقل من مئة متر خلفنا عندما دوى انفجار خلف ظهورنا. استدرنا ورأينا أن النصب قد اختفى. تناثرت قطع البناء المعدني حول الفناء. كان الدخان الأبيض يتلاشى بسرعة. كان البريطانيان قد اختفيا أيضًا. سقطت أشلاء أجسادهما على الأسطح المغطاة بالثلوج في الأكواخ المجاورة، مما أدى إلى ظهور ثقوب دموية في الدثار الأبيض النقي للثلج. بصق سبيدي علكته وابتلع ريقه بصعوبه. "اللعنة أيها السلطعون، كان الإنذار حقيقيًّا!".

بينما اختبأنا خلف مكتب البريد وشاهدنا سقوط القذائف على المدينة، تساءلت عما إذا كان البريطانيون سيرسلون بديلين لمراسليهما غير المحظوظين أم سيقررون عدم الاهتمام بحربنا بعد الآن. كنت أعرف هذا جيدًا؛ أننا إذا كنا قد بقينا بجانب النصب التذكاري، فبحلول نهاية الأسبوع، كان سيكون هناك ثلاثة رجال جدد ينامون في أسرتنا بنفس الطريقة التي سينام بها بورنا ذات يوم على سرير شيمي.

لم يكن من السهل على المستجدين التكيف مع وحدتنا. كان لدى بعض الوحدات طقوس لإدراج الأعضاء الجدد تستمر لسبعة أيام، حيث كان على المستجد أن يتخلى عن سجائره لأصدقائه، ويجلب الحطب، ويكنس أرضيات الغرف. أما في وحدتنا، كان الأمر يتعلق فقط بوجود

وقت كاف للطرفين للتعود على بعضهما. أن يعتاد المستجدون علينا، ولكن بالأخص أن نعتاد نحن عليهم. لم نكن نستبعدهم عن قصد؛ بل أقرب إلى الحقيقة أن نقول إننا كنا خائفين منهم. لفهم سبب شعورنا بذلك، كان على المرء أن يكون هناك منذ البداية. عندما وصلنا لأول مرة إلى المدرسة، كنا اثنين وعشرين شخصًا. استقررنا في الطابق الثاني في الفصل الأخير في نهاية الرواق. وضعنا المراتب على الأرض بمحاذاة جدران الفصل وحولناها إلى أسرتنا. أما موقد البناء في الزاوية فقد تعلمنا أن نستمر في جعله مشتعلًا في جميع الأوقات لأن معظم زجاج النوافذ كان محطمًا. حيث أدت التفجيرات التي حدثت أثناء المحاولة الأولى للعدو للاستيلاء على المنطقة إلى تحطيمها، لذلك بدلًا من الزجاج، احتوت بضع نوافذ على قماش الخيام السميك، وتم تثبيته في مكانه بشريط لاصق لإبقاء الهواء البارد في الخارج. وظلت في الحجرة عشرات من المناضد المدرسية، والتي رتبناها في المنتصف، لكننا نادرًا ما كنا نجلس عليها في الأيام الأولى. حيث كنا نتناول الطعام في المطبخ في الطابق الأول ونصعد إلى الفصل التعليمي فقط لننعم بقسط النوم الذي يمكننا الحصول عليه.

بعد يومين من وصولنا، رحل أول فرد منا. تم العثور على جوفي بالقرب من مخفره من قبل الحراس الجدد الذين جاؤوا لأخذ مكانه. ربما تم إطلاق النار عليه من قبل قناص، على الرغم من أنه لن يعرف أحد على وجه اليقين. أما بالنسبة لعائلته، فلم تشكل طريقة موته فارقًا؛ فقد انفطر قلبهم، ولم يكن مهمًّا بأي أداة قد حدث ذلك. قال الحراس إن جوفي كان لا يزال دافئًا عندما وجدوه. ظنوا أنه كان نائمًا، حتى إن أحد الحراس قد وبخه لإهماله في واجبه. لم يتعامل باقي اللواء مع الوضع

بشكل أفضل. كان أميدزا أول من طلب الحصول على إجازة، لذلك وقعت مهمة إبلاغ زوجة جوفي على عاتقه. أمضى ساعات في احتساء البراندي في حانة مقابلة للمبنى الذي تقيم فيه، محاولًا استجماع الشجاعة للصعود إلى شقتها. في النهاية، قرع جرس الباب وكان قد ثمل تمامًا، وجلس معها، وشربا القهوة والبراندي لمدة ساعة كاملة دون أن يجد طريقة لإخبارها بسبب زيارته. تحدث عن مدى برودة الجو هناك وكيف يشعرون بالوحدة من دون نساء. لاحقًا، سرت شائعات بأنه كاد يغتصب أرملة جوفي، لكن الحقيقة كانت أبسط بكثير. لقد نهض من على الطاولة بمجرد أن استفاق، وترنح إلى الباب، وانفجر في البكاء مثل طفل صغير، بينما يقول: "لقد فقدنا جوفي".

كل أسبوع بعد ذلك، كنا نفقد رجلًا آخر. ونظرًا لأنه لم يكن لدينا أيضًا العديد من الوافدين الجدد، فقد اندمجنا مع عناصر الشرطة العسكرية وبدأنا في مشاركتهم مهامهم. استمرت أعدادنا في التناقص على أي حال، كما لو كانت مرتبطة بمتوالية رياضية ملعونة لم نتمكن من فك شفرتها أو حتى إيقافها. بعد فترة، بدأنا نقضي معظم ساعات فراغنا القليلة جالسين خلف المناضد في الطابق العلوي. في البداية كنا نشرب نخب البعض للذين سقطوا، للمستجدين، للمشردين، للعائلة، للأطفال الذين لم يكونوا لدينا، لنهاية الحرب. بيد أنه سرعان ما اختفى النخب ولم يعد يبحث أحد عن سبب خاص للشرب. كان يستيقظ الرجال من أسرتهم، ويجلسون على المنضدة في الظلام، ويحتسون مشروبًا دون تحدث. كنت أستلقي أحيانًا على سريري وأشاهد ظلالهم. ولم يكن يكسر الصمت سوى عبارة من قبيل "أعطني الولاعة" من حين لآخر، ثم يشتعل وميض من النار يكشف عن وجه بائس خلفه. كانت تمتلئ

الغرفة بصوت سائل يتدفق من زجاجة، وسعال هادئ، ودخان سجائر يتصاعد لأعلى.

كان يذكرنا كل مستجد بأنه يمكن أن يحل محل واحد منا. كان هذا هو السبب الحقيقي لكوننا لم نحبهم، إن لم يكن الحقيقة الكاملة وراء المسافة التي ابتعدنا عنهم بها. بمجرد انضمامهم إلينا، كان يمكن أن يرحل أي منهم في المساء التالي بسهولة مثل أي واحد منا، وهذا ما جعلهم... لا يختلفون حقًّا عنا. لم نكن نعترف بهذا الأمر بصوت عال، لكنه جعلنا نشعر بالتضارب بشأن كيفية التعامل معهم. فعلى الرغم من أننا كنا جميعًا متشابهين في الزي العسكري، فقد نشأ كل فرد على أفلام مختلفة وموسيقى مختلفة وكتب مختلفة. كان هناك دافع طبيعي للبحث عن تلك الأشياء التي تميز المرء وتجعله فريدًا. كانت المشكلة أن القيام بذلك كثيرًا، مع الأشخاص الذين لن يظلوا في مكانهم طويلًا، أدى إلى الشعور بالعبث، مما أدى إلى الاكتئاب، مما أدى إلى الجنون. لذلك، تجنبناهم لأن ذلك يعني التمسك بعقلنا لفترة أطول قليلًا. كم كان سيكون أسهل لو كان شيمي مجرد فرد عادي، أو برانكوفيتش، أو أي شخص آخر رحل قبلهم أو بعدهم. كما أننا لم نحب التعبيرات المتبلدة والعيون الخائفة للمستجدين؛ تلك العيون التي كان علينا أن نلتقي بها أول شيء في الصباح. كنت أحيانًا أتحدث مع أحد المستجدين الفضوليين قبل النوم، لكن كان النوم يمحو الحديث، وعندما أستيقظ، يكون وجهه غريبًا مرة أخرى، ويكون تحمل وجوده أكثر صعوبة. لم يكن يمكن إيقاف البحث اللاواعي عن إنسانيته، لكن لم يكن يمكن أيضًا التوفيق بين ذلك وبين قرار أن يبقى الرجل على السرير المجاور غريبًا. كان الحل الوحيد هو تجاهلهم حتى فرض وجودهم نفسه على أنه مجرد

حقيقة أخرى من حقائق الحياة.

بورنا فقط هو من قبلناه من اليوم الأول. ربما كان ذلك لأنه لم يكن يعرف شيئًا عن نفسه، مما جعله صفحة فارغة مثالية يمكن للجميع ملؤها حسب رغبته. حيث كان يمكن لهويته أن تتحلل إلى شيء مائع يصوغ ويشكل نفسه داخل أي عقل. كما أن مسألة أنه لم يأت إلى وحدتنا باعتباره بديلًا لأي شخص أحدثت فارقًا أيضًا. لقد هبط بيننا ببساطة، حيث نزل من السماء مثل الملاك في فيلم إنها حياة رائعة[16]. لقد جاء وصوله في الوقت المناسب، بعد الخسائر التي كان يصعب تحملها.

16- إنها حياة رائعة It's a Wonderful Life هو فيلم دراما أمريكي صدر في 1946، من إنتاج وإخراج فرانك كابرا. (المترجم)

استطلاع

اجتمعنا حول الطاولة للاستماع إلى توجيهات. كان قد مر يومان منذ أن أخذنا التطعيم، وكان سيروفاك يود تقديم بعض الأعمال الملموسة لنا.

قال وهو يبسط خريطة للمنطقة على الطاولة: "انظروا هنا يا رفاق". "انظروا التضاريس أسفل المنشرة على طول مجرى النهر". التقط قلم رصاص ورسم سهمًا. "هناك موقع متميز على هذا التل مع إطلالة جيدة على القرية على الضفة الأخرى".

أخبرنا عن التاريخ الحديث للقرية، والذي كان معتادًا بالنسبة للمنطقة. فقد انتقل الشباب إلى المدن. أما الكبار فبقوا وماتوا. لم يعد أحد ليعمل بأرضي أجداده. كانت القرية مهجورة منذ سنوات، وأصبحت المنازل القليلة الأخيرة المأهولة مهجورة بسبب النزوح الجماعي الذي سببته الحرب. قال مشيرًا إلى شريط من التضاريس غير المحمية، بعرض كيلومتر واحد أو نحو ذلك: "ستسيرون في هذا الاتجاه. وستسيرون صباحًا".

"من سيذهب؟" سأل سبيدي، الذي كان يحرك إحدى قدميه متوترًا بينما هو جالس على كرسيه، وقدمه الأخرى معقودة تحت مؤخرته.

"تشيركيز، وبورنا، وأنت". أشار سيرو برأس قلمه الرصاص إلي.

أطلق سبيدي قدمه المعقوفة، وألقى سجائره على الطاولة. "تبًّا لذلك،

يا رجل! هل علي أن أتوسل لك كي ترسلني في مهمة؟".

نظر إليه سيرو ببرود. "بما أنك تعلم أن هذه لن تكون المهمة الوحيدة المعطاة اليوم، هل لي أن أسأل عن سبب هذا الغضب؟".

جلس سبيدي وأشعل سيجارة بعصبية. أمسك سيروفاك بمعصمه. "هل أنت منزعج لأنك لن تذهب أم لأن بورنا سيذهب؟".

سحب سبيدي يده بقوة إلى الوراء. "أنا لا أبالي بمن يذهب، يا رجل! يمكنكم جميعًا الذهاب إذا أردتم!".

"سبيدي!" رفع سيرو صوته. "لا يمكنك الذهاب في كل مهمة مع تشيركيز. أنا لدي مسؤولية اختيار الأشخاص المناسبين للمهام بحكم رتبتي. أما أنت فلا. هل هذا واضح بما فيه الكفاية بالنسبة لك؟".

لم يقل بورنا كلمة واحدة. وجه الخريطة إلى نفسه ودرس المنطقة المظللة. ألقى نظرة على سيروفاك أوحت بأنه يفهم المهمة قبل أن يقوم سيروفاك بتوضيحها.

"متى نغادر؟" سأل.

"في غضون ساعتين".

"التضاريس؟".

"ثلج".

"سترات الثلج؟".

"سترات بيضاء مموهة".

"قائد الفريق؟".

أومأ سيروفاك برأسه نحوه. "أنت".

"المهمة؟".

"استطلاع".

"المطلوب فعله؟".

"لن تقوموا باتخاذ أي إجراء فعلي. لقد وصلت إلينا معلومات بأنهم يتحركون في فصيلة من القوات الخاصة. نحتاج إلى إحداثياتهم. هذا كل شيء. ستأخذون تقريركم إلى المدفعية وتسلمونه للجنرال ليوبو شخصيًّا".

"لماذا شخصيًّا؟" سألته.

"نعم لماذا؟" دعمني تشيركيز. "لماذا لا نرسل الإحداثيات لاسلكيًّا حتى يتمكن ليوبو من تصفيتهم على الفور؟".

أجاب سيروفاك بحسم: "يجب أن يكون هناك صمت صارم فيما يخص الاتصالات اللاسلكية. ستكونون على قمة الجبل وقريبين جدًّا منهم. هناك مخاطرة كبيرة جدًّا بأنهم قد يلتقطون إرسالكم. لذا، ستقدمون تقريركم للجنرال ليوبو شخصيًّا. عندما تكونون جاهزين، انزلوا إلى غرفة العمليات في الطابق السفلي. لدى كفاتيرنيك ما يخبركم به".

بعد نصف ساعة، بعدما أصبحنا مرتدين سترات بيضاء مموهة ومجهزين بالكامل، طرقنا باب غرفة العمليات. في الداخل، وُضعت طاولة متواضعة كان ورق الاستشفاف المنتشر عليها بمثابة غطاء

قماشي لها. جلس حول الطاولة بعض ضباط الأركان ومجموعة صغيرة من الصحفيين. كان الرفيق السياسي أول من لاحظنا. "اقتربوا يا رفاق". نهض ومشى إلينا وأشار إلى الطاولة بلطف. "تفضلوا".

لفت العقيد كفاتيرنيك انتباه الصحفيين إلينا. "هذه وحدة استطلاع صغيرة، ستغادر الآن في مهمة. يسعدني أنكم ما زلتم هنا وإلا فاتكم لقاء مقاتلينا".

بدا بورنا في حيرة من أمره. أما بقيتنا فكانت حيرتنا أشد. قدم لنا الرفيق السياسي البراندي. ذهبنا لإحضار الكؤوس، ليس لأننا شعرنا بالرغبة في الشرب ولكن لأننا لم نكن نعرف ماذا نفعل. كان الموقف غريبًا لأقصى الحدود.

وضع بورنا حدًّا لذلك، مُخاطبًا الرفيق السياسي. "تُوسع الكحوليات الأوعية الدموية. وينزف الجسد الواقع تحت تأثير الكحول بشكل أسرع. لا أحد عاقل يشرب قبل القيام بمهمة".

احمر وجه الرفيق السياسي بينما كتم سيروفاك ضحكته بصعوبة وهو وراءه. سيطر التوتر على الغرفة على الفور. لقد دعانا الضباط حتى يكون لديهم ما يقدمونه للصحافة -دليل على وجود حرب وأن الأرواح تتعرض للخطر-. كان من المفترض أن يتم عرضنا والإعجاب بنا مثل الأعمال الفنية، باعتبارنا الإبداع الرائع للضباط، فضلًا عن كوننا تبريرًا للامتيازات التي جاءت مع رتبهم. كان ميلان المجنون هو الشخص الوحيد في الغرفة الذي لا يزال يبتسم. كان ميلان المجنون رجلًا عجوزًا من قرية مجاورة فقد عائلته في الحرب ولم يكن لديه سوى الجيش ليكون برفقته. في بعض الأحيان كان يذهب إلى المدرسة

ويتناول البراندي مع سيروفاك. نظرت إلى تشيركيز. حدق بي غاضبًا، وبدا أنه مستعد للانفجار والبدء في إهانة الجميع. ضحك راوكار وكسر التوتر بينما يقول "ها أنتم ترونها أيها السادة: حكمة وخبرة مقاتلينا".

تم التصفيق لبورنا بحرارة، واقترب منا أحد المصورين ودعانا لالتقاط صورتنا. "هناك مباشرة أمام الخريطة يا رفاق. دعونا نحصل على صورة جماعية مع قادتكم".

قام الضباط بضبط زيهم الرسمي وتزاحموا أمام الخريطة. كانت الخريطة عبارة عن مخطط عسكري كبير يمتد من السقف على طول الحائط وصولًا إلى أرضية الباركيه البالية. وكانت مواقع قواتنا وكذلك قوات العدو محددة عليها بدقة.

بينما كنا نصطف للتصوير، ظل بورنا في مكانه. "هل التقطت بالفعل صورة للضباط؟" سأل المصور.

شجعه راوكار. "نعم، نعم، التقطها. لقد تم التقاط صورنا جميعًا. هيا تعال، تعال".

"وأنتم تم تصويركم في نفس الوضع؟".

أصبحت تعابير راوكار وسيرو أكثر قتامة كما لو أنهما أحسا أن بورنا على وشك تكرار ما قام به أمام الفريق الطبي.

"بورنا". اقترب منه سيرو وهو يرمقه بنظرة ودية. "هل هناك مشكلة يا بني؟".

ضحك بورنا. "في الحقيقة لا. لا مشكلة على الإطلاق. أنا فقط أتحقق

مما إذا كان هناك أي شخص عاقل في الغرفة. هل هناك؟".

استدار ليغادر ومشى نحو الباب. عند العتبة، استدار ليواجه الحشد مرة أخرى. "عند نشر الصور، تأكدوا من إبقاء الخريطة مرئية، لا سيما الأجزاء التي تظهر مواقعنا. فقط في حالة عدم معرفة الطرف الآخر لها جميعًا".

الثلاثي

ترجلنا من السيارة عند سفح التل قرب الجسر المؤدي لمعسكر المدفعية. كان الجنرال ليوبو، قائد المدفعية، يشتهر بعبارة "تبًّا لأي عيار أصغر من الثمانين"، والتي أصبحت شعار وحدته. كان رجاله يضعون شعارات مصممة لأكمام ستراتهم تتكون من رقم 80 محاطًا بدائرة مكونة من عبارة "تبًّا لأي عيار". كان يُشار إلى ليوبو على أنه جنرال، رغم أنه في الحقيقة كان يحمل رتبة رقيب أول احتياطي في الجيش. وترجع ترقيته غير الرسمية إلى حضوره الطاغي الذي أدى إلى إذعان كبار الضباط له. كان دائمًا متجهم الوجه، ودائمًا ما يكون منحنيًا قليلًا إلى الأمام كما لو كان يركض، وعندما يتحدث، كان يصيح ويزأر بصوته عاليًا وكأنه إحدى قطع مدفعيته.

في الليلة التي ذهب فيها سبيدي وتشيركيز بصعوبة من المنشرة إلى معسكر المدفعية، استقبلهما ليوبو بشكل ملكي. واحتفاء بهم، تجرع نصف زجاجة من البراندي في جرعتين كبيرتين وشرع في التجول مرتديًا قميصًا مفكوك الأزرار، بينما يصيح بالألحان الشعبية لأنهم قدموا له سببًا للتنفيس عن نفسه. كان رجال ليوبو يحترمون شخصيته. فقد كانوا يأتون إليه بكل المشاكل ويحلها هو بحكمة سليمانية فطرية. أخبرنا تشيركيز عن قصة جنديين متخاصمين، كان أحدهما قد أخذ جرارًا من قرية مهجورة. إذ غالبًا ما كان يترك السكان الفارون الأدوات والآلات وراءهم، لذلك لم يكن من الصعب العثور على معدات زراعية

نصف صدئة ملقاة في الحقول.

استخدم الجندي الجرار الذي أحضره إلى معسكر المدفعية في التجول، وفي البداية حظي بوقت ممتع للغاية؛ فقد كان يقوده بأقصى سرعة فوق الحقول والمروج المحيطة، وقام باللف في دوائر، وجعل الإطارات تحفر أخاديد عميقة في الطين. إلا أنه في أحد الأيام ذهب في إجازة، وعندما عاد، كان الجرار في حوزة جندي آخر، الذي من الواضح أنه أحب قيادته الغريبة وقرر الاستمتاع ببعض المرح من تلقاء نفسه. وعندما رفض ذلك الجندي التخلي عن اللعبة، تحولت المشادة إلى شجار خطير، ولم يكن أمامهما خيار سوى الذهاب إلى الجنرال ليوبو، الذي ارتجل على الفور جلسة محكمة يترأسها هو. وكان يتعين على كل من لم يكن في الخدمة أن يكون حاضرًا في المحاكمة. فقد أصر ليوبو على ذلك لأنه كان يعتقد أنه سيعطي درسًا ليس فقط للطرفين المتنازعين ولكن لجميع رجاله. أشرف على الإجراءات من موقعه على كرسي خشبي مع ظهر مرتفع يشبه العرش الملكي. وكان بخديه السمينين المتدليين مثل كلب بولدوج، وأنفه الدائري الممتلئ، كان يحملق بهما بغضب كما لو كان على وشك تمزيق الجميع إربًا إذا فقط فكر أحدهم في إساءة التصرف أو عدم تنفيذ الأوامر.

"لقد سرق جراري يا جنرال!" قال الجندي الأول بصوت يشبه الأنين.

"مستحيل يا جنرال!" جادل الآخر. "لم يكن جراره. إنه ملكي!".

"لا ليس كذلك! إنه ملكي! أنا من أحضرته هنا، وأنت أخذته مني!".

"كان ملكك لأنك أخذته من شخص آخر! وقد أخذته منك، لذا فهو

ملكي الآن!".

استمع ليوبو إلى شجارهما من على عرشه. قام بالاسترخاء على إطار سيارة منفوخ لأنه كان مصابًا بالبواسير ولم يكن يستطع الجلوس على أي شيء أصلب من الهواء. استمع إلى المشكلة باهتمام ثم أصدر حكمه. "سيُعاد الجرار إلى القرية التي أتى منها بواسطتكما أنتما الاثنان دون تشغيل المحرك. سوف تدفعانه طوال الطريق".

وهكذا تم دفع الجرار إلى القرية الأصلية، ومنذ ذلك الحين لم يأخذ أحد من معسكر المدفعية شيئًا لا يخصه.

***

جلسنا على التل تحت شجرة تنوب طويلة أطلق عليها السكان المحليون ملكة الغابة وشاهدنا القرية أسفلنا من خلال مناظيرنا.

قال تشيركيز: "يمكننا الآن استخدام إحدى وسائد ليوبو".

***

قبل ساعة، استقبلنا الجنرال ليوبو في مقر إقامته، وقدم لنا الطعام والشراب. عانق تشيركيز كما لو كان قد التقاه مجددًا بعد انقطاع طويل. "ضعوا هذه تحتكم، أيها الجنود. يبدأ القلب الشجاع بالمؤخرة الدافئة!".

جلسنا حوله على الوسائد الممددة وهو جالس على عرشه المطاطي. جعلنا تأثيره الإمبراطوري نشعر كما لو كنا في حضرة ملك جبار. وكان منظور الضفدع الذي رأيناه منه مُعززًا لذلك الانطباع.

”حسنًا، إذًا، أيها الجنود. هل تضاجعون أي شيء؟“.

”لا يا جنرال. فلا توجد فتيات“.

”يا إلهي. عندما كنت بعمركم، لم نكن بحاجة إلى فتيات. كنا نجلس منفرجي الساقين ونستخدم ثمار القرع الصيفية“.

”أي نوع من القرع، يا جنرال؟“.

كان القرع الفرنسي أفضل نوع. كنا نطلق عليه اسم ”قرع الحريم“. عندما تنضج الثمرة في الحقل وتسخن في الشمس، وتثقبها وتضع بها قضيبك... فقط جربوها وسترون“.

شاهدنا ليوبو ونحن نبتسم بتكلف لبعض الوقت، ثم تحولت تعبيرات وجهه إلى الجدية. بدت الانتفاخات تحت عينيه وكأنها أكياس ممتلئة. وبدا وجهه عبوسًا. ”ليساعدنا الله، يا لها من خسارة. كان يجب أن تغادروا وتحظوا بمتعة الجنس، لا أن تموتوا معنا نحن كبار السن“.

رمقنا بعضنا بعضًا في صمت حتى هز ليوبو رأسه، واعتدل في جلسته على إطاره. ”حسنًا اسمعوا يا رفاق. اذهبوا واحضروا لي الإحداثيات. ثم سنلعب بعد ذلك لعبة حرب السفن“[17].

***

على الرغم من الزي الرسمي المبطن جيدًا والسترات الواقية من المطر التي نرتديها فوقه، شعرنا بالبرد بأردافنا لأننا كنا نجلس على الأرض

17- حرب السفن Battleship هي لعبة تخمين شهيرة يلعبها شخصان، معروفة حول العالم باسم لعبة الورقة وقلم الرصاص. اخترعها المدعو كليفورد فون فيكلر في أوائل القرن العشرين. (المترجم)

المغطاة بالثلوج.

مرر شيركيز لي المنظار... أو ذلك الأنبوب الخاص به الذي يمكننا ركوبه مثل الزلاجة.

كانت القرية أسفلنا شاغرة. كانت بعض الأسطح مكشوفة، أما الأسطح التي لم تكن كذلك فكانت قابعة باستسلام تحت طبقة كثيفة من الثلج. خلف القرية، كانت هناك غابة كثيفة ملتفة بجانب تل شاهق. وعلى حافة الغابة، كان بإمكاننا أن نرى بوضوح معسكرًا للجيش. حيث كانت هناك سيارات عسكرية بالقرب من الثكنات البدائية.

"أترى" قال تشيركيز. "لم يقيموا مخيمًا في وسط القرية حيث يكونون صيدًا سهلًا. فقط الحمقى في جانبنا هم من يمكنهم التفكير في شيء من هذا القبيل".

"نعم. بجانب الأشجار، موقع جميل ومريح. وإذا حدث شيء، فيمكنهم دائمًا الركض نحو الغابة".

كان بورنا صامتًا. كان ينظر من خلال منظاره دون أن يرمش. "هؤلاء الرجال لن يهربوا من أي شخص".

أخذ تشيركيز المنظار مني وحدق باتجاههم مرة أخرى. "لماذا؟ من هؤلاء؟".

أخرج بورنا خريطة من جيبه وبدأ في الرسم. "هؤلاء؟ إنهم أخبار سيئة".

ابتسمت في حيرة لتشيركيز فغمز لي بطرف عينه. "تبًا لأي عيار

أصغر من ثمانين!".

نهض بورنا من مكانه، وأشار إلينا لننهض على أقدامنا. "لا يمكن لليوبو مساعدتنا هنا. إنهم بعيدون جدًّا. دعونا نذهب إلى القرية".

اقتربنا من المنزل الأول على حافة القرية وتسللنا إلى الداخل عبر السقيفة الخشبية. جاء الضوء الخارجي من خلال المدخنة في حزم من الأشعة. كان الجزء الداخلي من المنزل لا يزال مظلمًا لدرجة أننا لم نكن قادرين على تحديد لون الأثاث. في الغرف القليلة التي كانت لا تزال بها الأبواب، كانت الأبواب مُعلقة بلا ثبات على مفصلات صدئة. بينما كانت هناك أجزاء من السقف غير موجودة. كانت هناك طبقة سميكة من الغبار تكسو كل شيء. تحركنا عبر المنزل بصمت، وسرنا على الأرضيات التي لم يطأها أحد منذ وقت طويل. ازداد الخوف بسبب الغبار الذي كان يحوم حولنا. كان سيروفاك على حق. هذه القرية لم يهجرها الفارون من الحرب. كان المنزل يحتوي على بعض الأجهزة المنزلية، لكن كان من الواضح أنه لم يكن أحد يعيش فيه منذ سنوات. على رف خزانة تلفزيون خشبية كان هناك مسجل شرائط فيديو. ركعت على الأرض، أُلوح الغبار بعيدًا، ثم ضحكت بصوت عال. "جهاز ماركة (أيوا) بأربعة رؤوس!".

كان لدي نفس الطراز في المنزل. يمكن أن يعمل هذا المسجل لأيام دون ارتفاع درجة الحرارة. استطعت بصعوبة إقناع أبي بشرائه. كان عليه أن يدفع ثمنه على ستة أقساط، وكان كل منها يستولي على ما يقرب من ثلث راتبه. فتحت الباب الزجاجي للخزانة ورأيت أشرطة التسجيل مرتبة بدقة على الرفوف. جلست على الأرض وأنزلت بندقيتي

ونسيت أين أنا. كنت أحب مثل هذه اللحظات، حيث يمكنني الضغط على زر "إيقاف مؤقت" على شاشتي العقلية، وأخذ قسط من الراحة من الواقع، وترك عقلي يذهب إلى مكان أفضل. في المنزل، كان لدي مجموعة رائعة من الأفلام، وشعرت وكأنني قد نُقلت إلى غرفتي للتو. كنت أنظر إلى الأشرطة، وأقرأ العناوين، حينما لفت انتباهي الشريط الأول في الصف السفلي. أخرجته وأنا لا أصدق عيني. "يا رفاق! انظروا ماذا وجدت!".

التفت إلي بورنا وتشيركيز.

"دستة أشرار! [18] لقد كنت أبحث عن هذا الفيلم منذ أن كنت طفلًا".

همهم تشيركيز في دهشة، بينما قال بورنا "روبرت ألدريتش، 67".

حدقت في الشريط مفتونًا. "شيمي! روبرت ألدريتش، 73".

انتفض تشيركيز. نظر إلي من خلال الستار المخملي من الغبار. أدركت ما قلته وتذكرت المنشرة. غمرني الحزن ثم الخزي. نظر بورنا من النافذة رافعًا منظاره. ودون أن يستدير، همس: "إمبراطور الشمال"[19].

ابتعد عن النافذة واختفى في الفتحة الموجودة في السقف، متسلقًا مثل قطة نحو عارضة السقف. وأضاف من الأعلى: "أو كما كان معروفًا في سوقنا، قطار واحد لصعلوكين".

18- دستة أشرار The Dirty Dozen هو فيلم حربي صدر عام 1967 من إخراج روبرت ألدريتش. (المترجم)

19- إمبراطور الشمال Emperor of the North هو فيلم حركة أمريكي صدر عام 1973 من إخراج روبرت ألدريتش. (المترجم)

أخذت الشريط ووضعته في حقيبتي مثل أحد الآثار المقدسة. أومأ تشيركيز برأسه نحوي. "فقط كن حذرًا ألا يكتشف ليوبو ذلك. قد يجعلك تعيدها. عائدًا إلى هنا سيرًا على الأقدام".

كان شريط الفيديو ذلك هو الشيء الوحيد الذي أخذته إلى المنزل من الحرب. أما حقيبة النوم التي منحها الجيش لنا فلا يمكن احتسابها؛ فقد بعتها لأحد هواة تسلق الجبال بعد حوالي عامين عندما وجدت نفسي في ضائقة مالية. ظل الشريط على الرف الخاص بي لسنوات، مع بقية أفلامي. لقد حاولت دسه بين العناوين الأخرى لجعله يختفي، لكن لم أستطع الامتناع عن النظر إليه في كل مرة كنت أدخل فيها إلى الغرفة. حتى إنني كنت أقول لنفسي "هذه المرة، لن أنظر" ثم أدخل، فلا أستطيع مقاومة تلك الرغبة القهرية التي تنتابني كالرغبة في حك جلدي. لم أشاهد الشريط مطلقًا أو حتى أضعه داخل المشغل. لقد بقي على الرف إلى أن حل يوم ذكرى الأموات في سنة من السنين، حين أمسكت به وألقيته في القمامة. ولم أرَ دستة أشرار مرة أخرى.

تسلل

قال بورنا وهو يتحرك في عُليّة البيت: "نحن في الموعد بالضبط".

"ما القصة يا قائد؟" سألته.

نزل بورنا من الأعلى على خطوتين وتوجه نحو الباب وهو يلوح لي ولتشيركيز لنقترب منه. لقد تحرك بثقة جعلتني أشعر أنني بحالة جيدة لكوني بالقرب منه كما كان الأمر في المرة الأولى التي التقينا فيها. توقف عند المدخل وسحب قفازاته. "هناك فصيلة من القوات الخاصة. إنهم يحصلون على تعزيزات فقط".

"كم عددهم؟" سأل تشيركيز..

"لا أستطيع أن أحدد. ما زالوا يعيدون تجميع صفوفهم. إنهم يأتون عبر الغابة وينضمون إلى أولئك الموجودين بالفعل في المخيم".

"هل حصلت على إحداثياتهم؟".

"ليس ثمة إحداثيات لنحصل عليها. لا تملك المدفعية الوصول لهذا المدى. أبعد ما يمكن أن يضربوه هو هذه القرية".

أمسك تشيركيز بندقيته بقوة أكبر. "لكن... هناك فقط ما يقارب الخمسمئة متر من هنا إلى المخيم؟".

"خمسمئة متر كثيرة جدًّا بالنسبة لليوبو".

لوحت في اتجاه المخيم. ”لماذا يتجمعون هناك على أي حال؟ إلى أين ينوون الذهاب بهذا العدد الكبير من الرجال؟“.

نظر بورنا إلي، وبدا أنه مندهش من السؤال. ”إلى نفس المكان الذي ذهبوا إليه من قبل، إذا كنت تسألني“.

رمقته بنظرة مندهشة. ”نحو المنشرة؟ لماذا قد يذهبون إلى هناك مرة أخرى؟“.

”لا يوجد مكان يمكنهم الذهاب إليه في هذا الجانب. طريقهم الوحيد هو عبر الغابة وإلى اليسار. إذا تجاوزوا ليوبو على يمينه، فسيكون الطريق أمامهم خاليًا. وبعد ذلك يمكنهم اختيار ما إذا كانوا سيذهبون إلى لوائنا أو إلى القرى الموجودة في الخلف، لكن عليهم البدء بالمرور عبر المنشرة. وسيفعلون“.

ضحك تشيركيز. ”بربك يا صاح. أنت لا تعرف ذلك. أنت لا تقول سوى كلام فارغ كلما مضينا قدمًا“.

لم يرمش بورنا حتى. ”فكر في الأمر. تم صد هجومهم الكبير. لا أحد يتوقع منهم أن يجربوا نفس الطريق مرة أخرى، خاصة مع عدد أقل من الرجال. هذا هو السبب في أنهم ينقلون الكثير من قواتهم الخاصة إلى هنا. يمكنهم التفرق في عدد قليل من الفرق والقيام بالمهمة بهدوء. وحتمًا لن يسمحوا لأي شخص بالإفلات منهم. فهؤلاء رجال محترفون. سوف يتخطون ليوبو، وبمجرد دخولهم، يمكنهم فعل ما يريدون. ولن يقصف ليوبو مواقعنا لإيقافهم“.

فكرنا في هذا لفترة من الوقت. كان أول من تحدث بعد ذلك هو

تشيركيز. "ما هي الخطة؟ هل لدينا خطة؟".

"لدينا ميزة. لقد تم تعزيزهم للتو. لا يوجد سوى فريق واحد من القوات الخاصة العاملة في هذه المنطقة. مما يعني أن التعزيزات تأتي من مكان آخر".

"أي نوع من الميزات المقيتة تلك؟" قال تشيركيز ساخرًا.

ارتسمت ابتسامة جانبية على شفتي بورنا. "هناك فيلم رائع يقوم فيه رجل بالتطفل على حفل زفاف بطريقة بسيطة. حيث يختلط بالضيوف الآخرين؛ يأكل ويشرب ويستمتع. وضيوف العريس لا يعرفونه، لذلك يفترضون أنه شخص من جانب العروس، والضيوف على جانب العروس يعتقدون أنه من جانب العريس. والرجل يشرب نخب كلا الجانبين، والجميع يشرب معه. إنه يستفيد من حقيقة أنه ينتمي إلى مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا".

بدأت أضحك. لم أصدق ما قاله بورنا. حقًّا مخزونه من المفاجآت لا ينفد أبدًا. أكمل حديثه بلهجة أكثر جدية إلى حد ما. "ميزتنا هي أن الجنود في ذلك المعسكر لا يعرفون بعضهم بعضًا. يمكننا جميعًا التجول معًا، وسيعتقد الجميع أننا من الوحدة الأخرى".

اشتعل تشيركيز غضبًا. "كنت أعرف أنك مجنون منذ اليوم الأول. لكنك الآن تثبت أنك لا تحترم التسلسل القيادي. كانت مهمتنا هي مجرد الاستطلاع والعودة. ما تقوله لا علاقة له بأوامرنا". ثم توقف برهة وحك رأسه. "لكنني لا أعرف ما يمكننا فعله أيضًا... متى سنذهب؟".

قلت: "انتظروا لحظة. لماذا سنذهب هناك؟ لأي سبب؟".

قال تشيركيز: "لمعرفة خططهم على ما أعتقد".

"اعتقدتُ أن بورنا قد شرح خطتهم للتو".

قال بورنا: "يمكنني أن أخمن استراتيجيتهم ولكن ليس تكتيكاتهم. سيتطلب هذا الذهاب إلى هناك ومحاولة المعرفة قدر الإمكان".

بدأ تشيركيز في القفز في مكانه. "إذًا، متى نتسلل إلى المخيم؟".

"أنت لن تتسلل إلى أي شيء. أنتما الاثنان ستنتظران هنا. أو -إذا كنتما تفضلان- بالأعلى بجانب ملكة الغابة".

أمسكته من كتفه ووقفت أمامه: "لن تذهب هناك وحدك يا بورنا".

"أنا أعمل وحدي. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها. إذا أخذتكما معي، سأخاطر بحياتنا كلها".

"بحق الجحيم، يا رجل، ألن تأخذنا"، قال تشيركيز بغضب. "نحن لسنا أطفالك".

"هذا صحيح يا تشيركيز. لن آخذكم معي".

قام بورنا بضبط سترته واختفى سريعًا.

***

حل الليل ولم يكن بورنا قد عاد بعد. عانق تشيركيز نفسه وسحب قبعته للأمام لتغطي نصف وجهه، وهو يتنفس من خلال فمه. كان المنزل باردًا جدًّا لدرجة أن الصقيع تكوَّن على القماش تحت أنفه. كنا نجلس على الأرض. حيث بدت الأريكة المتهالكة في المطبخ وكأنها

ستنهار تحت ثقلنا إذا جلسنا عليها، ولم نجرؤ على المخاطرة بإحداث ضوضاء. كنا صامتين طوال تلك المدة منذ مغادرة بورنا. ظللت أنظر إلى ساعتي.

"تشيركيز. إنها العاشرة واثنان وعشرون دقيقة. لماذا لم يَعُد؟".

"ربما يحظى بوقت ممتع".

"نعم. هو على الأرجح يأكل معهم لحم الضأن المشوي ويتحدث معهم للكشف عن خططهم".

"أو ربما تذكر أنه واحد منهم، وهو الآن في طريقه لإحضارهم حتى يتمكنوا من جزّ أعناقنا".

"أنت تبالغ بكلام غير معقول يا تشيركيز".

"نعم، حسنًا، ربما قليلًا". صمت تشيركيز، وقد بدا أنه أدرك أن مزحته كانت مزعجة للغاية.

نهض وهو راكع للأمام ومشى ببطء نحو النافذة. نظر من خلال منظاره في اتجاه المخيم. "لا يمكنني رؤية أي شيء من هنا. لنصعد للأعلى".

صعدنا. استغرق هذا العمل البطولي منا نحو ثلاثة أضعاف الوقت الذي استغرقه من بورنا في صباح ذلك اليوم. جلسنا منفرجي الساقين على إحدى عوارض السقف عند الفتحة الموجودة به. مرر تشيركيز لي المنظار. من هذه النقطة المميزة، كان المخيم واضحًا تمامًا للرؤية. لم نر الكثير من الجنود بالخارج. في الغالب ظلوا تحت الخيمة الكبيرة أو

قاموا بتدفئة أنفسهم داخل المنزل الخشبي المرتجل. كان هناك أنبوب يخرج من ذلك المنزل ينبعث منه الدخان. بينما في الخارج، كان الشيء الوحيد الذي يتحرك هو الحراس. حتى في الضوء الخافت، استطعت أن أرى أنهم مجهزون تمامًا. بدا كل شيء يرتدونه وكأنه مأخوذ من مانيكان عرض أزياء في متجر عسكري. أحذية جديدة، أحزمة جديدة، زي أسود أو مموه بلا شارات، خوذات سوداء، بنادق أوتوماتيكية قصيرة، سكاكين قصيرة. لحسن الحظ، حصل بورنا على زي جديد عندما انضم إلى وحدتنا، لذلك لم يكن لباسه مختلفًا عن ملابس القوات الخاصة في المعسكر. جاءتنا من المنزل الخشبي أصوات أغنية هادئة. كان الجو في الداخل مفعمًا بالحيوية ولكن ليس دون انضباط.

قلت: "لقد أتوا بكل شيء ما عدا حوض المطبخ. يوجد مولد طاقة خلف الخيمة. وأسطول سياراتهم أفضل من أسطول هيئة الأركان لدينا".

أعطيت المنظار لتشيركيز، لكنه أبعده واستنشق. "هل قال بورنا من هم؟ لقد بدا متجهمًا وجادًّا عندما رآهم".

"أنا لا أعرف أي شيء أكثر مما تعرفه أنت. غير أنه بدا أنه يعرفهم من قبل".

"اذهب أنت ونم قليلًا وسأراقب أنا وإذا لم يحضر في غضون ساعة، أعتقد أننا يجب أن نتحرك. إذا اكتشفه هؤلاء الرجال، فقد يقررون تمشيط المنطقة من أجلنا".

بعد ساعتين من إغلاق عيني، شعرت بشخص يهزني من كتفي. "هيا بسرعة، انهض!".

سرت بجسدي موجة من الرعب الشديد. تذكرت أنني استيقظت مؤخرًا بطريقة مماثلة من قبل ثلاثة جنود أعداء. ركلت الظل أمامي وأخرجت السكين، لكن الظل قفز بعيدًا عني. "يا إلهي!" كان صوت تشيركيز الذي يبتسم في الظلام. "عليك أن ترى هذا. بينما كنت نائمًا، اندلعت نيران الجحيم".

أيقظني تمامًا الضجيج القادم من المخيم. سمعت دوي انفجارات وصراخًا وحالة ذعر.

قفزت إلى جانب تشيركيز. أعطاني المنظار مشيرًا إلى الأعلى. "اصعد وألقِ نظرة. لقد أشعل اللقيط المجنون النار في معسكرهم".

نظرت من خلال المنظار ورأيت المخيم وكأنه شعلة ضخمة. كانت التفجيرات ما زالت مستمرة، إلى جانب صراخ الناجين. كانوا يركضون مذعورين، غير قادرين على تحديد الطريق الذي عليهم أن يسلكوه. وبمجرد أن يقوموا بتغيير مسارهم، فإن انفجارًا جديدًا يتردد صداه من هذا الاتجاه. كان موقف السيارات يحترق، وحيث كان المنزل الخشبي، لم يكن هناك شيء سوى الخراب المتفجر الذي ابتلعته النيران. كانت الخيام تذوب، وتلعقها ألسنة نارية بينما تلتهم النار بقايا المساكن المؤقتة بالداخل. سمعنا وقع أقدام داخل المنزل. كان شخص ما يصعد الدرج بقفزات طويلة. اختبأ تشيركيز في الزاوية ووجه البندقية نحو الباب. ومن موقعي في العلية، كنت أوجه سلاحي في المنتصف بين دعائم الباب.

"إنه أنا". سمعنا صوت بورنا. "فلنخرج من هنا".

ركضنا للأعلى نحو ملكة الغابة، بينما خلفنا -بعد كل الصيحات والصراخ- ساد صمت غير طبيعي على المخيم. بين الحين والآخر، كنا نسمع صوت نيران بندقية آلية، ومن الواضح أنه تم إطلاقها بشكل عشوائي وفي حالة من الذعر. ركضنا مثل القطيع البري، سالكين طريقنا بثبات نحو قمة التل. ظل تشيركيز يضحك بينما يلهث لالتقاط أنفاسه، وذراعاه مرفوعتان أمام وجهه لحمايته من الأغصان التي تميل باتجاهه بعد مرور بورنا. توقفنا تحت شجرة تنوب طويلة وشاهدنا الظلام يبتلع بصيص النار الأخير في الوادي أدناه. انجرف صدى صوت إلى الأعلى من انفجار طفيف آخر. كان تشيركيز لا يزال يضحك، منحنيًا إلى نصفين، متكئًا بيديه على ركبتيه. استمر في الثرثرة بينما تقدمنا إلى سفح التل. ثم سرعان ما كنا نسير بالسيارة على الطريق الريفي الوعر، بينما كانت معدتي تقرقر.

"يجب أن نذهب إلى الجنرال ليوبو ونتناول إفطارًا مبكرًا".

قال تشيركيز من المقعد الخلفي: "ونحتسي براندي أيضًا. ولنزيد من شهيتنا، يمكننا الحصول على بعض من هذا المنتج العضوي الرائع، والذي كنت أمتلك البصيرة لأحضره معي".

قدت السيارة وأنا أبذل قصارى جهدي لتجنب الحفر. جلس بورنا بجانبي وحدق عبر النافذة. وأخيرًا التفت نحوي وقال: "لست متأكدًا من أننا يجب أن نذهب إلى ليوبو".

"لماذا؟".

تمتم تشيركيز بشيء خلفنا، محاولًا إجبار ولاعته على العمل.

"كان يتوقع ليوبو منا الإحداثيات ليلة أمس. سينفجر غضبًا عندما

يعلم أننا أنهينا العمل من دونه".

"ما الذي يدعو إلى الانزعاج؟ أنت قلتها بنفسك؛ كانت لن تتمكن مدفعيته من الوصول إلى أبعد من القرية".

لم يقل بورنا شيئًا. ظللت ممسكًا بعجلة القيادة، لكنني لم أعد أهتم بالطريق بعد الآن. حاولت فك رموز التعبير المتبدى على وجه بورنا، لكنه ظل يحدق عبر النافذة. أزعجتني الطريقة التي تجاهلني بها.

"بورنا. قلت إن ليوبو لن يكون قادرًا على...".

"أعرف ما قلته".

كان صوته حادًّا، ونبرته باردة وفظة. لم يكن لدي الشجاعة لتناول الأسئلة التي ظهرت في ذهني. هل الممكن أنه كان يكذب؟ ولماذا؟ حتى يتمكن من التسلل إلى معسكر العدو وحده ويقضي ساعات منتظرًا حظه ويخاطر بكشفه؟ روعتني الفكرة. كانوا سيسلخونه حيًّا إذا كانوا قد أمسكوا به. وكانوا لن يتوقفوا حتى يعرفوا جميع مواقعنا. أخيرًا اندلعت شرارة من ولاعة تشيركيز. التفت بورنا نحوي وقال بطريقة أكثر لطفًا وهدوءًا: "أعرف ما قلته".

أشعل تشيركيز سيجارة ماريجوانا وزفر الدخان بشيء من الضعف. "ألست جائعًا يا بورنا؟".

كان بورنا لا يزال يحدق عبر النافذة. "تناولت لحم الضأن المشوي معهم".

امتلأت السيارة من الداخل بدخان الماريجوانا.

استجواب

عندما توقفنا في ساحة المدرسة، كان سيروفاك ينتظرنا عند باب المدرسة. كان يقف واضعًا ذراعيه على خصريه، يكاد يسد الباب بأكمله. ذكرني بأمي. بغض النظر عن الوقت الذي كنت أعود فيه إلى المنزل بعد قضاء ليلة في الخارج، فإنها كانت تنتظرني بالشرفة وهناك سترة ملقاة على كتفيها. ترجلنا من السيارة، فأمسك سيرو بشاربه ثم اختفى في الردهة. وجدناه جالسًا في مهجعنا، يقشر الثوم ويفتح علبة لانشون. في اللحظة التي دخلنا فيها، قفز سبيدي مستيقظًا من سريره. "أيها الملاعين! إذا كنتم ستأتون لي بامرأة، كنت لن أنتظركم كل هذا الوقت!".

ألقى بطانيته وبدأ في ارتداء حذائه. نظر إليه سيرو بطرف عينه، وألقى برأس من الثوم على رأسه. صرخ سبيدي لكنه عرف سبب ذلك من دون أن يسأل. كنا نعلم جميعًا ما الذي أثار استفزاز سيروفاك. قطع سيرو اللانشون إلى قطع دون أن يخرجه من العلبة ودفع كتلة منه في فمه. "في المرة القادمة التي أرى فيها أحدكم دون حذاء، سأقطع أصابع قدميه بنفسي. لن يحتاج حتى إلى الإصابة بقضمة الصقيع مثل أميدزا" قال بصوت خفيض.

وضعنا معداتنا بجانب أسرتنا. اجتمع الجميع في المهجع حولنا لتحيتنا. تعانق سبيدي وتشركيز، ثم بدآ يقفزان في أرجاء الغرفة

ويصرخان. عندما حظيا بما يكفي من الصخب والصراخ، دفع سيرو اللانشون بعيدًا وصب لنفسه كأسًا من البراندي.

"أخبرني ليوبو أنه رآكم آخر مرة بعد ظهر أمس". مسح يديه في سرواله، وأصبح وجهه قاتمًا. "قال إنكم تركتموه قرب الساعة الثالثة. قال إنكم ستسيرون لما يقارب الكيلومتر للذهاب إلى سفح التل. ثم ساعة أخرى سيرًا على الأقدام إلى ملكة الغابة. وخمس وأربعين دقيقة على الأكثر لإنهاء الاستطلاع. ثم نصف ساعة أخرى للنزول. هذا يجعل هناك اثنتي عشرة ساعة في عداد المفقودين. أين كنتم حتى الآن؟".

بدأ تشيركيز بالهرج والرقص، فاستغل سبيدي الفرصة وأمسكه من خصره ثم قام بثنيه إلى الوراء، متظاهرًا أنهما كانا يؤديان رقصة التانجو. لكن وجه سيروفاك أظهر أنه لم يكن مستمتعًا. كان من الواضح للجميع أنه لم يكن في حالة تسمح بالمزاح. لا بد أنه قضى الليل والقلق يستنزفه.

كان سبيدي وتشيركيز هما آخر من لاحظ أن فعلهما لم يكن مناسبًا للموقف أو لحالة القائد المزاجية. ابتعد تشيركيز عن سبيدي وجلس مقابل سيروفاك، منفرج الساقين على الكرسي. ثم قال وهو يشير بإبهامه فوق كتفه إلى بورنا: "هذا الرجل هنا. حسنًا، هذا الرجل مجنون تمامًا".

اقترب بقية الرجال في المهجع، وتجمعوا حول تشيركيز مثل الأطفال حول شيخ القرية، متوقعين أن يحكي لهم قصة ما قبل النوم.

وتابع تشيركيز بشكل درامي: "لقد قتل ما لا يقل عن مئة من سفاحي

القوات الخاصة، وهدم معسكرهم، ودمر أسطول سياراتهم".

صمت تام. لم يستطع أحد أن يقرر ما إذا كان تشيركيز جادًّا بالفعل أم لا. كان من غير المرجح أنه سمح لنفسه بقول المزيد من المزاح، لكن قبول صحة كلماته كان شبه مستحيل. فبالنسبة لمعظم الناس، لا يمكن قتل فصيلة من القوات الخاصة إلا بكارثة طبيعية؛ كأحد الزلازل، الذي سيولد حفرة تحت أقدامهم ويبتلعهم جميعًا مرة واحدة.

بدا سيروفاك وكأنه لم يسمع ادعاء تشيركيز. أخذ رشفة من كأسه وعبس. "يا الله، براندي العرعر هذا الخاص بأميدزا... يحرق مثل شفرات الحلاقة في طريقه إلى المعدة".

ملأتني الدهشة. "بدلًا من أن نرسل نحن لأميدزا شيئًا ما، أرسل لنا هو زجاجة من البراندي؟".

"أرسل هاها!" حدق سيرو إلينا، ثم شم كوبه. "لقد أحضرها بنفسه. إنه في الطابق السفلي، يخبر الجميع بمغامراته مع الممرضات".

عندما فكرت مرة ثانية، وجدت أنني كان يجب أن أعرف. كان أميدزا متعافيًا حديثًا من عمليته الجراحية، لكنه بطبيعته العاطفية وقلة شعوره بالذنب، فقد هدد على الأرجح بتفجير نفسه بقنبلة يدوية ما لم يُسمح له بزيارة وحدته.

تجرع سيرو البراندي الخاص به ومسح شاربه. "إلى الجحيم أيها العرعر. كل ما تفعله هو تدمير براندي البرقوق الجيد. بورنا!".

كان وجه بورنا هادئًا كما لو كان مرسومًا على تمثال قديس. قابل عيني سيروفاء بتعبير يشع صفاء. "نعم يا قائد؟".

”كنت مسؤولًا عن الفريق. لنسمع إذًا. أين كنتم طوال تلك الاثنتي عشرة ساعة؟“.

بدأ تشيركيز يعبث ويمرح مرة أخرى، حيث بدأ القيام بحركات متموجة بجسده.

”سيرو، أخبرتك يا رجل. لقد دخل المخيم...“.

”تشيركيز!!“.

نادرًا ما يصيح سيرو، ولكن عندما يفعل، من الممكن سماع دوي صوته لعدة كيلومترات حوله. رمقنا جميعًا بنظرة غاضبة. اقترب بورنا من الطاولة وجلس مقابله.

قال بورنا: ”كانت المعلومات التي وصلتنا صحيحة. كانت فصيلة من القوات الخاصة تتجمع خلف القرية. كانت تمامًا كما قلت، لذلك نزلنا ودشّنا موقعًا في أحد المنازل حتى نتمكن من مراقبة ما يجري من العلية“.

”حسنًا، يا بورنا. بدأ سيروفاك يهدأ. لكن لماذا نزلت إلى القرية؟ لماذا لم تأخذ ملاحظاتك من التل؟“.

”اعتقدتُ أنه من الأفضل النزول لإلقاء نظرة فاحصة“.

”اعتقدت أنه الأفضل؟ لم تكن لديك معلومات كافية لتعتقد بناء عليها! كان من المفترض أن تنفذ أوامرك!“.

”هذا صحيح لم تكن لدي معلومات كافية. لهذا السبب ذهبت للتحقق“.

رمقه سيروفاك بنظرة حادة. لكن بورنا واصل حديثه دون انزعاج. ”من العلية، رأيت أن فصيلة أخرى من القوات الخاصة تنضم إليهم“.

تجمدت يد سيروفاك في مكانها بينما كانت على وشك وضع قطعة خبز بفمه. ”فصيلة القوات الخاصة كانت تنضم إليها فصيلة أخرى من القوات الخاصة؟“.

”صحيح. لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يكون سبب ذلك، لذلك قررت التسلل إلى معسكرهم“.

أصبحت الغرفة وكأنها آذان كبيرة صاغية. قام سيرو، بعدما ضيق عينيه، بدفع قطعة الخبز في فمه، ولم يرفع عينيه عن بورنا.

قال بورنا: ”كان التسلل سهلًا“، وشرع في شرح كيف جعل الجميع يعتقدون أنه واحد منهم. ”تمكنت من تأكيد شكوكي بأنهم خططوا لضرب المنشرة. كانوا سينقسمون إلى خمس عشرة مجموعة أصغر تتكون كل منها من ثلاثة إلى ستة رجال. كان جزء منهم في طريقه إلى القضاء على المدنيين في القرى بالخارج، بينما كان جزء آخر متجهًا إلى لوائنا“.

أخرج سيرو سيجارة وأشعلها. هز العلبة أكثر قليلًا، وأدارها إلينا، وتركها على الطاولة. لوح بيديه لنأخذ سجائر، لكن لم يرغب أحد في المضي قدمًا وإزعاج قدسية الجو.

”حسنًا، بورنا. لكني ما زلت لا أفهم لماذا تجاهلت أوامرك. لماذا لم تتراجع وتنسحب وتأخذ ملاحظاتك إلى الجنرال ليوبو؟“.

”كانت هناك فرصة أن يصلوا إلى طريقهم قبل أن نتمكن من الوصول

إلى ليوبو. لقد وازنت بين خياراتي وقررت خوض مخاطرة محسوبة".

كان سيرو يراقبه من خلال ستارة الدخان. كان تعبيره ينم عن أنه يصبح أكثر ليونة. "وعندما تسللت إلى معسكرهم، ماذا حدث بعد ذلك؟".

قال بورنا: "لم أتسلل إلى الداخل. مشيت إلى الداخل بشكل طبيعي. ظللت أتسكع معهم لبضع ساعات. تناولنا العشاء والقليل من البراندي، ولعبت الورق معهم، واكتشفت المكان الذي يحتفظون فيه بالمتفجرات والوقود، وتسللت لأخذ القليل منهم، وصنعت بعض العبوات الناسفة المرتجلة، وغادرت.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على جانب شفتي سيروفاك. كان الرجال في الغرفة يتبادلون النظرات بينما يتدافعون.

"وهذا كل شيء؟".

"هذا كل شيء، أيها القائد".

نظر سيرو إلى تشيركيز، الذي كان يقف منتبهًا ووجنتاه منتفختين، يحيي بورنا تحية عسكرية. ثم نهض ووضع سيجارته بفمه واستدار نحوي. "ماذا عن هذا الأحمق؟ هل كان هكذا طوال الليل؟".

"لا لم يكن كذلك. لقد لف سجارة ماريجوانا في طريق العودة".

مشى سيرو إلى الباب، وأومأ برأسه لي لأتبعه. خرجنا في الردهة ووقفنا بجانب النافذة، بينما ننظر إلى ضوء النهار بالخارج. أصبح الجميع مستيقظين حينها، ورائحة الحليب والقهوة كانت تنتشر في

أرجاء المكان آتية من المطبخ. رمقني سيرو بنظرة جانبية. "ذلك الذي قاله... هل حدث بهذه الطريقة؟".

"لا أعلم. لقد انطلق بمفرده ولم يوافق على أخذنا معه. قال إنه يعمل دائمًا بمفرده".

"لماذا لم تحاول منعه؟".

"كيف؟ هل كان من المفترض علينا أن نعتقله؟ لقد قلتها بنفسك؛ عندما لا تكون هناك، يتحدث قائد الفريق نيابة عنك. هل كنت ستسمح لنا بإيقافك؟".

ضحك سيرو وربت على كتفي. فُتح باب المهجع وتوجه عدة رجال إلى المطبخ. ذهبنا إلى الحمام لنحظى ببضع لحظات قليلة أخرى من الخصوصية. كان من الواضح أنه لا يزال هناك المزيد يدور في ذهنه. "أخبرني... ما رأيك في فقدانه الذاكرة؟".

"ماذا علي أن أعتقد؟ إذا قال إنه صدم رأسه، فليس لدي أي سبب لعدم تصديقه".

"لم يبلغ أحد في المكان الذي تم القبض عليه فيه عن أي مناورات للقوات".

"سيرو؟ القوات تسير صعودًا وهبوطًا على خط الجبهة كما يحلو لهم. أنت تعلم جيدًا أن هناك القليل من الانضباط، خاصة بين المتطوعين. يذهب البعض إلى القرى بمفردهم ويسعون للانتقام من أصدقائهم وجيرانهم السابقين. كما يُقتل آخرون في حقول الألغام. كان من الممكن أن يأتي بورنا من أي مكان".

رمقني سيرو بنظرة ودية. كان تعبيرًا لم يعتد الكثير من الناس في الوحدة رؤيته على وجهه. "لقد أصبحت قريبًا منه، أليس كذلك؟".

"لقد أنقذ حياتي يا سيرو. والليلة الماضية أنقذ حياة مئات الأشخاص".

قام بتمسيد شاربه، ورمقني بنظرة جادة. "أبقِ عينيك عليه. لاحظ ما إذا كان يغمغم أثناء نومه أو شيء من هذا القبيل. هل قال حقًّا إنه يعمل دائمًا بمفرده؟".

"نعم بنفس هذه الكلمات بالضبط".

"إذًا من المحتمل أنه كان يتجول في الغابة بمفرده، وفاجأته دبابة وأطلقت النار باتجاهه".

"ما الذي يقلقك؟".

"ذلك العمل المنفرد لهذا المقاتل... لا يمكن أن ينتهي بشكل جيد".

هززت كتفي، مشيرًا إلى الدرج. "إذا كان ذلك كل شيء بالنسبة لك، فسأذهب وألقي التحية على أميدزا وأتناول الإفطار".

"لا تدع أميدزا يشرب معك!" قال سيرو محذرًا. "غير مسموح له بتناول قطرة واحدة من الخمور". كنت في منتصف الطريق عندما صرخ ورائي: "وأخبر بورنا أن يذهب لراوكار! فقد أتت الإخصائيتان النفسيتان!".

الإخصائيتان النفسيتان

كان الجو في المهجع مفعمًا بالحيوية. جلس سبيدي وتشيركيز على إحدى الطاولات يلعبان بالبطاقات. كان لدى كل منهما سيجارة ماريجوانا تتدلى من فمه. بينما كانت سجائرهم العادية نصف المحترقة موضوعة في منفضة السجائر. كانا يلعبان بإيقاع سريع، ويسحبان أوراقًا جديدة بمجرد أن يكسب أحدهما مجموعة الأوراق الموضوعة على الطاولة. وكان لا يزال لديهما بعض الوقت لخوض محادثة عميقة.

قال تشيركيز: "لم أقم مطلقًا في حياتي بمناداة أي شخص بالقبيح".

قال سبيدي: "في الواقع، لم أفكر حتى بها أبدًا بشأن أي شخص". ألقى ببطاقة على الطاولة ثم طرق بأصابعه عليها.

توقف تشيركيز ونظر إليه. "لماذا يا صديقي، ولا حتى فكرة عابرة؟".

أوضح سبيدي: "إذا أزعجني المظهر الخارجي لشخص ما في البداية، فسوف أتجاهل ذلك على الفور ولن أدعه يؤثر علي. لقد ربتني أمي بهذه الطريقة. لا تحط من قدر شخص ما بسبب أشياء لا يد له بها".

"والدتك قديسة يا سبيدي".

"بحق السلطعون، هي كذلك".

استمرا في اللعب. جمع سبيدي البطاقات وخلطها ووزعها بينما كان

تشيركيز يعدل من جلسته في كرسيه ويمد ذراعيه خلف جسده. التقط سبيدي أوراقه وألقى نظرة ثاقبة على يده.

واستمر في تأملاته: "إذا كان هناك شخص صادق مع ذاته، سيدرك الحقيقة جيدًا. ولن يؤدي إخباره بأنه قبيح سوى إلى إيذاء مشاعره. لن يفعل ذلك أحد سوى الشخص اللئيم الذي يستمتع بإيقاع الألم على الآخرين".

"وليس هذا فقط يا صديقي!" وجد تشيركيز المحادثة ملهمة للغاية. "إن لفت الانتباه إلى المظهر المتواضع لشخص ما في الوقت نفسه يسلط الضوء على مظهر الشخص الجيد، وأنت تعرف من يتفاخر بمظهره؟".

"من؟" قال سبيدي بعدما أثار الكلام فضوله.

"فقط الحمقى الذين لا يستطيعون إثبات أنفسهم بمعرفتهم وقدراتهم. هم فقط، وليس أي شخص آخر، هم من يفخرون ويتفاخرون بشأن شيء لم يكتسبوه".

وضع تشيركيز بطاقته على الطاولة وكأنه يؤكد وجهة نظره.

أشعل سبيدي سيجارته التي انطفأت. "تمامًا كما قالت والدتي".

"قلت لك يا صديقي، والدتك قديسة".

"كلمات الأم المقدسة، يا رجل".

"قالت أمي! آه آه آه آه!".

ألقيا قبعتاهما في الهواء، وتسلقا المكتب، وبدآ في الرقص، بينما يدوسان على البطاقات بأقدامهما. جلست طالبتا علم النفس، وهما شابتان تبدوان بالكاد أكبر سنًّا قليلًا من الجندي العادي، تشاهدتان في حيرة. كان أميدزا مستلقيًا على سريره السابق. كان يرتدي سروالًا مموهًا واسع الساق ولف قدميه بطبقات سميكة من الشاش. بدت كل قدم وكأنها ثمرة شمام ملفوفة بضمادات. كان تأثير ذلك عليه بشعًا. لم يكن قادرًا على المشي، لذلك كان على رجلين أن يحملاه أينما ذهب. وبسبب عمليته، اضطر إلى مغادرة الوحدة دون وداع مناسب، لكن قلبه لم يكن ليستريح أبدًا إذا لم يعد. لقد جاء ليبقى معنا لبضعة أيام أخرى ويشعر لمرة أخيرة بطعم روح الفريق. هدأ سبيدي وتشيركيز، وضعا أذرعهما حول أكتاف بعضهما، وتوجها إلى الإخصائيتين النفسيتين، مستهدفين إحداهما بوضوح.

"وما هو اسمك؟".

"ماجدة".

جثا تشيركيز بجانبها، ودفعها قليلًا بركبته. "ماذا لديك لتقولينه يا ماجدة؟".

"حول ماذا؟".

"حول حديثنا عن أخلاقيات قبول التنوع البشري".

"لا شيء".

"ليس لديكِ ما تقولينه لأنه لا يهمك؟".

ركزت نظرتها عليه، ولم تقل شيئًا.

"نحن نفهم بعضنا بعضًا يا ماجدة، أليس كذلك؟" استمر تشيركيز في نكزها.

انحنى سبيدي إلى نصفين من كثرة الضحك. جلس على الأرض بجانب تشيركيز، وعانقه، وبدأ في تقبيل وجهه. "أنت جميل بالنسبة لي، يا تشيركيز".

حدق تشيركيز في ماجدة بعيون ضبابية نصف مغلقة. "قلت، هل نفهم بعضنا بعضًا يا ماجدة؟ أنتِ لا تهتمين بالنقاش العلمي بيني وبين زميلي سبيدي".

"لا".

"حسنًا بالطبع أنت لا تهتمين، ونحن نعرف السبب. نحن نعرف لماذا، أليس كذلك؟".

حدقت به ماجدة دون أن ترمش. "لماذا؟".

قفز سبيدي واقفًا على قدميه وظل يركض في جولة حول أرجاء الغرفة، وهو يلوح بيديه ويرسل القبلات إلى جمهور خيالي. "ياهو! لقد سألت أخيرًا!".

كانت ابتسامة تشيركيز تتزايد أكثر فأكثر. فسكت سبيدي وحبس أنفاسه، لينصت لما سيأتي.

مال تشيركيز نحو ماجدة وصرخ في وجهها: "لأنك عاهرة قبيحة، هذا هو السبب!".

ألقى سبيدي بنفسه على تشيركيز في حالة من النشوة، وتدحرج على ظهره، وعوى، وكأنه يدوس على قدميه. كان تشيركيز لا يزال يحدق بماجدة مبتسمًا. بدا وكأنه أحد أقنعة المهرجانات، بملامح ثابتة وثرثرة هستيرية ترتفع من تحته.

كانت ماجدة طالبة علم نفس بالسنة الأخيرة. ذهبت مع إحدى زميلاتها إلى مقر قيادة الجيش في المدينة وطلبتا منهم إرسالهما إلى أحد الألوية على خط المواجهة حتى تتمكنا من إجراء مقابلات مع القوات. كانت أطروحتهما بعنوان "السلوك البشري في ظروف الحرب" أو ما شابه. وجد أساتذتهما ذلك مثيرًا للاهتمام لأنها كانت المرة الأولى منذ خمسين عامًا التي يمكن فيها ملاحظة مثل هذا السلوك في منطقتنا. كان من المضحك الاعتقاد بأن هذه الحرب -بغض النظر عن مدى ما ألحقته بنا من أذى وصدمة- لديها القدرة على تحقيق شيء مفيد؛ أي عمل علمي لتوريثه للجيل القادم. بشرط تمكننا من إنتاج الجيل القادم قبل أن نموت.

دخل الدكتور راوكار الغرفة. "آه، ها أنتم جميعًا". ضحك بسذاجة. "أرى أنكم قابلتم بعضكم بعضًا بالفعل".

لم يكن لدى راوكار اهتمام حقيقي بالطالبتين. لقد تبنى قضيتهما منذ البداية، لكن لم يكن هناك سوى شيء واحد يدور في ذهنه الآن. لقد كان يضع الأساس للمناورة التي سيتمكن من خلالها من الإفلات من المسؤولية التي فرضتها عليه قيادة اللواء. فبصفته الطبيب الميداني للوحدة، كان لا يزال من المتوقع منه أن يقدم تقييمه النفسي لبورنا. أما الإخصائيتان النفسيتان، اللتان لم تتخرجا بعد حتى يطلق عليهما ذلك

حتى، كان من المفترض في الأصل أن تذهبا إلى جزء مختلف من خط المواجهة. كان من قبيل الصدفة البحتة أن يكون راوكار حاضرًا عندما قدمتا طلبهما في المدينة. قام رئيس اللجنة الطبية بتعريفهما على بعضهم وأخبر راوكار بنواياهن. وعدهم راوكار -الساحر دائمًا- بأن يتحدث بشأن طلبهما شخصيًّا مع العقيد كفاتيرنيك. وقد أوفى بكلمته عندما أصبح من مصلحته أن يفعل ذلك، وانتهى الأمر بوجودهما معنا. أعطاهما راوكار تشجيعًا إضافيًّا من خلال إخبارهما أن مقرنا الرئيس في منطقة آمنة تمامًا، وهذا، إذا تحدثنا بإنصاف، لم يكن كذبة كاملة. ففي ذلك الوقت، كانت بعض المدن أقرب إلى خط المواجهة مما كانت عليه مدرستنا. عندما سمعت الإخصائيتان النفسيتان أنهما ستعيشان في مكان آمن إلى حد معقول أثناء تفاعلهما مع الجنود الذين يذهبون يوميًّا خلف خطوط العدو، اعتقدتا أنهما وجدتا بيئة مثالية لعملهما.

بدأ راوكار يدرك أن شيئًا ما كان غريبًا في الجو في المهجع. نظر حوله. كان يستلقي جنديان على سريريهما يحظيان بقيلولة. وجلس أميدزا في صمت متكئًا على عكازيه. وعلى الفراش المجاور لسرير أميدزا، جلست الإخصائيتان في حالة من الهدوء. كنت أنا وبورنا مستلقيين على سرير بورنا، نستمع بهدوء إلى الراديو. وفقط سبيدي وتشيركيز هما من كانا يضحكان بهستيريا دون سبب واضح. نظر لهما راوكار نظرة شفقة. وهز رأسه. "يا رفاق. هل عاودتما شم شيء ما مرة أخرى؟".

نهض سبيدي وتشيركيز بسرعة وقفزا إلى وضع الانتباه. أعطى تشيركيز راوكار تحية رسمية. "لم نشم شيئًا سوى مهبل يا دكتور!".

لم يستطع راوكار تحمل ما شعر به من حرج فتلعثم وغادر سريعًا الغرفة.

ماجدة

كان وقت تكيف ماجدة قصيرًا بشكل غير متوقع. فبعد لقائها مع الثنائي المُخدر، بدت وكأنها تحيط نفسها بدرع شفاف لا يمكن اختراقه بمزيد من الإهانات. لقد اندهشتُ من قدرتها على وضع هذا المرشح وإبعاد الملاحظات الخبيثة واللاذعة قبل أن تتمكن من الوصول إليها. لقد كانت مهارة رائعة أتقنتها بسرعة كبيرة ولم أستطع سوى في التفكير في أنها ستضيع جهودها المهنية علينا. حيث كان بإمكانها الحصول على أطروحة محترمة على تكيفها السريع.

على عكس زميلتها، تحولت ماجدة إلى شيء لا يمكن التنبؤ به. لقد وجدناها أكثر إثارة للاهتمام لأننا لم نستطع تحديد ما يكمن خلف المرشح. هل كانت شخصًا قويًّا بطبيعتها، أم أنها كانت تحاول فقط التأقلم في البيئة القاسية لوحدتنا؟ كنت أظن أن هناك قدرًا من الحقيقة في كليهما ولكن في الغالب أن الحياة علمتها التعامل مع القسوة من قبل. كان وجهها مشوهًا، تتقاطع عليه الندوب الناتجة من حادث سيارة تعرضت له عندما كانت فتاة صغيرة. لا بد أن البلوغ كان تجربة لم تستطع المرور بها بسهولة. من المؤكد أنها احتاجت لتعلم التأقلم. لا بد أنها اكتسبت مرونة في التعامل مع كل شيء.

امتنع راوكار بذكاء عن إطلاعها أو إطلاع زميلتها على قضية بورنا. لم يتدخل في عملهما حتى لا يلومه أحد على التملص من واجباته. لقد

سمح لهما فقط بإجراء أبحاثهما كما هو مخطط لها، معتمدًا على الكلام الشفهي والفضول المهني لتوجيههما في الاتجاه الصحيح. وقد كان. بعد ساعات فقط من التعرف على بورنا، جلست كلتا الباحثتين على الطاولة معه، وأخضعتاه لاستجواب شامل. كان لماجدة موقف حاد وأصرت على أن يجيبها بورنا عن كل سؤال. لقد تفاجأت وأنا أشاهدها وهي أقل ما يشبه للشخص الخائف الذي كاد تشيركيز وسبيدي أن يجعلاه يبكي. يبدو أنها أدركت أنها كانت تتعامل مع مجرد مراهقين جامحين، والآن بعد أن أصبحت على أرض صلبة، اكتسبت اليد العليا تدريجيًّا. عندما أصبح من الواضح أن بورنا كان حالة مثيرة للاهتمام بالفعل، توجهت إلى الهجوم. استمر صعودها إلى موقع السلطة بلا رادع حتى اقترب تشيركيز من الطاولة وجلس بجانبها. "إذًا اسمعي، ما رأيك بأن نمص قضبان بعضنا بعضًا؟".

ثبت بورنا عينيه على تشيركيز. بدا لي أنه مستعد لتكسير أسنانه.

أصبح الجو غير قابل للاحتمال بالنسبة لزميلة ماجدة، التي أغمضت عينيها بينما يعتريها الاستياء الشديد. "هي ليس لديها قضيب، حسنًا؟".

قال تشيركيز وهو ينهض من على الطاولة: "لكنني لدي". وقف أمام ماجدة وضغط بيده اليمنى بين فخذيه.

استدارت ماجدة نحوه وهي لا تزال جالسة. ولدهشة كل الحاضرين، وضعت يدها على بنطال تشيركيز، وسحبته للخارج، وشمت رائحة أصابعها. "أوف".

بدأ كل من في الغرفة بالصياح ورمي أغراضهم. ألقى أميدزا عكازيه

فوق رؤوسنا فاصطدما بالسبورة بصوت عال. كان الرجال منتشين لأن تشيركيز حصل أخيرًا على ما يستحقه.

ومع ذلك، لم يكن تشيركيز ليرتبك بهذه السهولة. التفت إلى سبيدي. "هل خصيتك كريهة الرائحة؟".

مد سبيدي يده إلى أسفل سرواله. تنشق نفسًا سريعًا وعبس. "إنها كذلك".

"على مقياس من واحد إلى عشرة، كيف تقوم بتقييمها؟".

قال سبيدي بعد تفكير متأنٍّ: "سأضعها في المرتبة الرابعة".

هز شيركيز كتفيه. "أنا في الدرجة الثالثة".

أمسك سبيدي بخوذتي متجهًا إلى الخارج. استشنق نفسًا من هواء الغرفة. "لا بد أن ماجدة سريعة الاشمئزاز. لم أعرف أبدًا أي شخص يشتكي من رائحة أقل من الدرجة الخامسة".

تبعه تشيركيز خارج الغرفة. وسرعان ما أصبحا بالحديقة خلف المدرسة يطلقان النار على بعضهما. بعد كل رصاصة تُطلق، كان يقول أحدهما: "هذه هي الأقرب حتى الآن!" واصلت ماجدة مقابلتها مع بورنا، متجاهلة التصفيق والصفير من الجمهور.

"بورنا، هل تتذكر أحداث الأمس؟".

"نعم".

"أين كنت وماذا فعلت؟ هل يمكنك أن تصفها لي؟".

”بالطبع يمكنني. لكنني لن أفعل ذلك“.

”لم لا؟“.

”لأنه، مع كل الاحترام الواجب، هذا ليس من شأنك“.

”نعم، لكني أحاول أن أفهم..“.

”أنا أيضًا. لكن الحديث عن المكان الذي كنت فيه بالأمس لن يساعد“.

”هل أنت متأكد من أنك لا تقوم فقط بقمع حقيقة أنك لا تستطيع تذكر الأمس؟“.

لم يقل بورنا شيئًا، مما جعل ماجدة تصبح عدوانية مرة أخرى. بدت وكأنها تعتقد أنها كانت تجبره على مواجهة نفسه. ”أحاول معرفة ما إذا كنت تعاني من فقدان الذاكرة التقدمي، وأنت تعوقني عن عمد“.

تحدث بورنا بهدوء، على عكس ماجدة، لكنه كان لا يزال ينتقي بعناية الأسئلة التي سيجيب عنها. ”كنت في مهمة“.

”حسنًا. صِف لي ما فعلته“.

”قلت لك، هذا لا يعنيكِ. إنه بيني وبين الأشخاص الذين كانوا معي والقائد“.

أصرت ماجدة على موقفها. ”ومن كان معك؟“.

نهضتُ وجلستُ معهم. ”أنا وتشيركيز“.

”تشيركيز هو الشخص الذي يطلق النار بالخارج؟ الشخص الذي بحوذته الخوذة؟“.

”لا، الشخص الذي من دونها“.

”نعم. الشخص الذي عرض علي الجنس الفموي“.

”كان يمكنكِ أن تقولي: الشخص الذي تفوح من خصيته رائحة كريهة، ولكن إذا كنتِ تفضلين تذكره بالعرض الذي قدمه، فنعم، هذا هو“.

أدارت ماجدة كرسيها وركزت كل انتباهها علي. يبدو أن بورنا لم يعد يمثل تحديًا. ”ماذا عن الرجل الآخر؟ لماذا مكتوب وُلدت لأقتل على خوذته؟“.

”لا. إنها خوذتي. لقد استعارها فقط“.

”إذًا أنت من كتب ذلك؟ لماذا؟“.

”لأنني أتوق إلى الفوضى والدمار، بووم“.

كانت ماجدة تحدق بي باستفزاز. بينما أبقيت وجهي بلا تعبير.

”لماذا خرجا ليطلقا النار؟“.

”إذا فعلا ذلك هنا، فقد يصيبان أحدنا“.

قرعت قدمها على الأرض بطريقة توحي بنفاذ صبرها. ”ما الذي يطلقان عليه إذًا؟“.

”رؤوس بعضهما بعضًا. إنهما يصوبان بالقرب من الأذن، وتكون التصويبة أفضل كلما أمكن سماع صفير الرصاصة“.

”وهل هذا سلوك طبيعي هنا؟“.

”وهل من الطبيعي أن نكون هنا؟“.

رفعت عينيها عني لثانية. ”ألن يخرج أحد ويوقفهما؟“.

”لماذا قد نفعل ذلك؟“ استرخيتُ على الكرسي. ”إذا أطلق جميع الحمقى النار على بعضهم، فربما سيرسلون إلينا أشخاصًا أفضل، ربما حتى بعض علماء النفس. نحن عالقون في الغالب مع طلاب المدارس الثانوية هنا لأن طلاب الجامعة بقوا في المدن. حتى إن البعض أصبحوا طلابًا حتى لا يتم إرسالهم إلى هنا. لذا، كما تعلمين، إذا كان لديك زميل أو اثنان ذكور، فلا تترددي في إرسالهم. نحن نفتقر بشدة إلى الأحاديث الراقية والعميقة والاختبارات النفسية. نحن نحب أن نسترخي بين المهام من خلال عمل الآيس كريم وتلوين المظلات بأقلام تلوين“.

”إذًا أنت تغار من الشباب الذين بقوا في المنزل؟“.

”ألا تعتقدين أن من حقي أن أشعر بالغيرة؟“.

”أنت متطوع. لماذا تهتم بما يفعله الآخرون؟“.

”يُقال إن التجنيد العام سيصبح ساري المفعول اعتبارًا من هذا الشهر، لكنه لا يتم تطبيقه بشكل عام“.

هزت كتفيها. ”يجب أن يعيش شخص ما حتى تسير أمور البلاد“.

”وهناك شخص ما يدافع عنها بالفعل حتى تتمكن من تسيير أمورها“. أشرتُ إلى النافذة، إلى مشهد سبيدي وتشيركيز. ”يقوم به قاصرون يرتدون زيًّا رسميًّا بينما يبقى جيلك في الحرم الجامعي يعبث ويمارس الجنس. ولكن بعد كل ذلك، ربما تعتقدين أن رفاقك الذين يعطون ألقابًا

لطيفة لهياكلهم العظمية البلاستيكية يستحقون أكثر من سبيدي".

جفلت ماجدة لكنها حافظت على رباطة جأشها. "إذًا ستأسف إذا تعرضا للأذى؟".

"هذان الأحمقان؟ حتى أمهاتهما لن يشعرن بالأسف".

استعادت ماجدة توازنها وواصلت الاستفزازات. "ماذا عن والدتك؟ هل ترغب في التحدث عنها؟".

انحنيت إلى الأمام، وصنعت مسدسًا من إبهامي وسبابتي، ووجهته نحوها.

"والدتي؟ دعيني أخبرك عن والدتي!".

"لم أفهم ذلك؟" انحنت للخلف بشيء من المفاجأة.

قال بورنا: "فيلم بليد رانر، 82.[20] عبارة بواسطة ليون كوالسكي. ستتلقين رصاصة في صدرك".

تجاهلته ماجدة واستمرت في التحدث معي: "هل ستخبرني أين كان بورنا بالأمس؟".

"بالتأكيد. كان معي في مهمة".

"هل يبدو أنه يعاني من مشكلة في توجيه نفسه مكانيًّا؟".

"أعتقد أنه يستطيع إخبارك بذلك بنفسه. بورنا؟".

20- بليد رانر BladeRunner هو فيلم خيال علمي أمريكي صدر عام 1983، من إخراج ريدلي سكوت. (المترجم)

كان بورنا يفتح علبة سردين. قام بلي الغطاء للأمام ببطء وبدقة كما لو كان يمارس فن الأوريجامي[21]. غزت رائحة السردين الغرفة. ألقى نظرة سريعة على ماجدة. "أنا أتحرك وأوجه نفسي بشكل طبيعي".

قلت: "بل إنه يتحرك أفضل من الطبيعي. إنه فقط لا يتذكر أي شيء حدث قبل يوم ذكرى الأموات".

بدأت ماجدة في تدوين شيء ما دون مقاطعة المحادثة. "أنت أيضًا، لا يمكنك إخباري بما فعلته في مهمتك؟".

"أستطيع أن أخبركِ. لا مشكلة. ذهبنا إلى قرية خلف خطوط العدو".

نظر إلي بورنا، بينما تابعت ماجدة بابتسامة خفية. "قرية معادية؟".

قلت: "قرية مدنية. فقط على الجانب الآخر من الخط".

"هل كانت مهمة خطيرة؟".

"ليس على نحو استثنائي. إنها قرية منعزلة إلى حد ما، شبه مهجورة. لم يبق سوى عدد قليل من العائلات. كان لدينا فقط مهمة نقوم بها هناك".

"هل مكثتم هناك طوال اليوم؟".

"فقط حتى انتهينا. كان الأمر يتعلق بامرأة حامل من القرية".

أشعلت ماجدة سيجارة ووضعتها بنفس اليد التي كانت تكتب بها.

21- هو فن ياباني يتم فيه قص وتشكيل الأوراق. (المترجم)

"مهمة مع امرأة حامل؟".

"نعم. حسنًا، لقد تراهنا على ما إذا كانت تحمل صبيًّا أم فتاة، لذلك قررنا الذهاب ومعرفة ذلك".

ابتسمت زميلة ماجدة وهمست قائلة: "أنيما وأنيموس"[22]. ابتسمت ماجدة بتكلف وثقة، مؤكدة أنني بمثابة كتاب مفتوح لها. "وماذا قالت لكم المرأة؟".

"لم تكن تعرف".

"آه. تم إلغاء رهانكم؟".

"للأسف لا. لقد فاز تشيركيز".

"همم؟ كيف ذلك؟".

"حسنًا، كان الطفل صبيًّا، تمامًا كما توقعه".

"آه فعلًا؟ كيف اكتشفتم ذلك؟".

"بقرنا بطنها بسكين وألقينا نظرة".

تشربت ماجدة دخان سيجارتها. يُحسب لها أنها لم تختنق به، لكن لا بد أن أذنيها كانتا تحترقان. حدقت في وجهي، مدركة أنها وقعت في فخ، لكنها كانت لا تزال غير راغبة في التراجع. "وماذا فعلتم بعد ذلك؟".

22- هما الجانب الذكوري اللاواعي في النساء والأنثوي اللاواعي في الرجال وفق عالم النفس كارل يونج. (المترجم)

"علقنا الطفل فوق عارضة الباب حتى يراه الجميع. اعتقدنا أن الجميع سيكونون فخورين بأنه ذكر".

أنزلت ماجدة قلمها، بينما تنظر لي بهدوء. "هل تجد هذا مسليًا؟ أن تجعل شخصًا ما يبدو وكأنه أحمق؟".

أتى دوري لأهز كتفي بلامبالاة. "أنتِ تعرفين. الفرص قليلة ومتباعدة. على المرء أن يستغلها".

كان بورنا يمضغ سمك السردين الخاص به ويراقبنا بصمت. نظرت ماجدة إليه، ثم عادت إلي. "ما قصتكما؟ أنت وبورنا، وكذلك سبيدي وتشيركيز. هل يعمل الجميع هنا في أزواج؟".

قلت "أنت لم تأت إلى هنا بمفردك أيضًا. وعلى أي حال، لا توجد قصة. نحن فقط فريق الأصدقاء الأساسي الخاص بك. مثل ميل جيبسون وداني جلوفر. كليشيه جدًّا أعرف. ماذا عنكما أنتما الاثنتان؟" أومأت إليها وصديقتها.

قطبت ماجدة جبينها، بينما بدت وكأنها تبحث في ذاكرتها: "هل هناك أي أفلام صداقة للسيدات؟".

"ثيلما ولويز؟".[23]

"لم أره. لكنني سأعتبر أنك تقول إنك أنت وبورنا تمثلان فيلم السلاح القاتل"[24].

23- ثيلما ولويز Thelma & Louise هو فيلم أمريكي من إخراج ريدلي سكوت عام 1991. (المترجم)

24- السلاح القاتل Lethal Weapon هي سلسلة أفلام حركة أمريكية من إخراج ريتشارد دونر. (المترجم)

قال بورنا وفمه ممتلئ بالطعام: "ريتشارد دونر. الجزء الأول عام 87. الجزء الثاني عام 89".

ضحكتُ على ملاحظته. وقلت لماجدة: "الجميع هنا سلاح قاتل".

استأنفت ماجدة تدوين الملاحظات. سقط الرماد من سيجارتها على الورق. "أنت تتحدث عن الأفلام كثيرًا. هل هذه هي الطريقة التي تتصور بها هذا الوضع برمته؟ كما لو كان فيلمًا؟".

"نعم، لكني أعتبره فيلمًا كوميديًّا. إذا تعاملت مع الأمر على أنه فيلم جاد، فسيتعين علي أن أخرج من العرض".

"كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟".

"برصاصة في رأسي".

بينما بدت ماجدة وكأنها تقرر ما إذا كنت أعبث معها مرة أخرى، جر أميدزا نفسه من خلال مرفقيه بالقرب منا. استقر على الأرض بحيث كانت عيناه في مستوى الطاولة.

قال: "إنه على حق، كما تعلمين. هذه الحرب إنتاج خمس نجوم. لقد وضع المستثمرون الأجانب الكثير من المال فيها، وهناك الكثير من الممثلين المحترفين. الجميع يرتجلون حواراتهم في ذلك الفيلم، لذلك يبدو كل شيء طبيعيًّا جدًّا، ولكنه تمت كتابته بشكل متقن للغاية، وبغض النظر عن كيفية انتهائه، فإنه سيحقق ربحًا لسنوات قادمة".

فاجأني انفجار أميدزا. أخذ سيجارة من المنضدة واستلقى على ظهره رافعًا قدميه في الهواء. أدركت أنه قال ما يوده، لذلك أضفت "الجانب

السلبي الوحيد هو أنهم يصورون الموت على الهواء مباشرة. لكني أعتقد أن هذا هو ثمن الحصول على فيلم رائج".

"هل هذا هو السبب في كتابتك كلمة أفلام رائجة Blockbusters على كمك".

"يمكن". تذكرت شيمي، وأغلقت عيني لبرهة.

كانت ماجدة تقلب الصفحات التي دونت بها ملاحظاتها. نظرت إلي بتعبير قاس. "لا تمثل علي أنك ستبكي الآن".

"لا شيء من هذا القبيل يا ماجدة. فأنا لم أبكِ منذ أن شاهدت فيلم دكتور جيغافو[25]".

انضمت زميلت ماجدة أخيرًا. "ماذا تعني كلمة Blockbuster؟".

قال بورنا، وهو لا يزال يمضغ: "في الأصل كانت تشير الكلمة لقنبلة ضخمة، استخدمها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. كان للقنبلة قوة تدميرية كافية لتدمير مجموعة كبيرة من المباني. عندما أراد أهل هوليوود اسمًا للفيلم الذي يكون له تأثير هائل على الجمهور، فكروا فيها. وبات من الطبيعي الآن إطلاقها على الأفلام رفيعة المستوى أو الشهيرة، وفقدت الكلمة معناها الأصلي".

"واو". بدت طالبة علم النفس متفاجئة حقًّا. "لم أكن أعرف أيًّا من ذلك".

وأضاف بورنا وهو يمسح يديه بمنديل: "يمكنك أيضًا إطلاق الكلمة

25- دكتور جيفاغو Doctor Zhivago هو فيلم درامي إنتاج عام 1965 ومن إخراج ديفيد لين. (المترجم)

على مجموعة من المشاغبين في أحد الأحياء".

التفتت ماجدة إليه. وقد بدت وكأن الكلام قد أثر عليها وألهمها. "ما هو فيلمك المفضل للمخرج الذي ذكرته؟".

"دونر؟" فكر بورنا في الأمر. "لقد قدم الكثير من الأشياء الجيدة. سوبرمان Superman. ليدي هوك Ladyhawke. الفأل The Omen. حتى إنني أحببت الحمقى The Goonies ".

"إذًا قل لي، كيف يمكنك أن تتذكر ذلك ولكن لا تتذكر اسمك؟".

تحرك الأشخاص القلائل المتبقون في الغرفة في أسرتهم. نهض البعض وجلسوا على الطاولات، بعيدًا بما يكفي عنا حتى لا يبدوا فضوليين للغاية.

غير أن بورنا أجاب بهدوء تام أثار استياء ماجدة: "لا أعلم".

"ربما لا تريد أن تتذكر من أنت".

"ربما لست شخصًا مميزًا، ربما الأمر لا يستحق التذكر".

"بورنا، أنت تتصرف كما لو كنت تعاني من فقدان الذاكرة الجوبي(26). يمكنك تذكر بعض الأجزاء بشكل واضح والبعض الآخر لا تتذكره على الإطلاق، لكن هذا النوع من فقدان الذاكرة لا يمكن أن يكون بسبب إصابة في الرأس. كما أنك ليس لديك أيضًا فقدان الذاكرة الرجعي التقليدي، وهو النوع الذي يحدث عادةً بسبب صدمات الرأس. الشخص المصاب بفقدان الذاكرة الرجعي لن يتذكر أي شيء على الإطلاق قبل

26- هو فقدان ذاكرة لحدث معين. (المترجم)

وقوع الحادث، وأنت تتذكر بعض الأشياء بتفصيل كبير".

"هل هذا سؤال أم استنتاج؟" سألها بورنا.

اعترفت ماجدة: "لا أعلم!".

أردتُ إنهاء المحادثة. "حسنًا، أنا شخصيًّا أعتقد أننا حققنا اكتشافًا مبهرًا. لقد وجدنا شيئًا لا تعرفينه".

فُتح باب المهجع. دخل سبيدي وتشيركيز. توقف تشيركيز واستنشق الهواء. كانت لا تزال رائحة السردين تتخلل الغرفة. التفت إلى سبيدي: "حقًّا؟ وهي تخبرني أن خصيتي كريهة الرائحة؟!".

أنتوتي

كانت زيارة أميدزا تقترب من نهايتها، وكانت المناسبة تستحق الاحتفال بها. تم اتخاذ القرار بأن نجعلها وليمة ونشوي خروفًا كاملًا. أخذ أميدزا الكثير من مسكنات الألم، لكنه لم يترك ذلك يقف في طريق تعبيره عن الرضا والامتنان. هز الطبيب راوكار رأسه غير مصدق وهو يشاهده ينزلق على الأرض على مؤخرته. من أجل جلب وشيّ الخروف، اخترنا أنتوني، وهو متطوع من نيو أورلينز جاء إلى بلاد أسلافه عندما بدأت الحرب. على الورق، لم يكن أنتوني ينتمي إلى أي وحدة، لكنه كان يتجول في الغالب حول مقرنا، وعامله اللواء على أنه مسؤول تموين غير رسمي.

كان أنتوني يرتدي سترة جلدية بنية اللون عليها فرو على الياقة ورقعة على الكم بها صورة بجعة كبيرة؛ رمز ولاية لويزيانا. بينما كان يرتدي حول رقبته وشاحًا أبيض ووقف متقدمًا عن بقيتنا كما لو كان عارض أزياء. وتم تعزيز هذا الانطباع من خلال شعره الأشقر الممشط بدقة نحو جانب واحد والموضوعة بعض خصلاته خلف أذنه. لقد بدا وكأنه ممثل هوليوودي بأحد أفلام الدرجة الثانية التي تتحدث عن الطيارين البريطانيين في الحرب العالمية الثانية. لولا فكه السفلي البارز، هدية جينات البلقان من جانب والده، كان يمكنه إقناع الناس أنه روبرت ريدفورد في أواخر العشرينيات من عمره. كان يتحدث الكرواتية بلهجة غليظة، مما جعل من الصعب أحيانًا تمييز ما إذا كان يتحدث عن حبه

للوطن أم كراهيته للعدو. بقدر ما أستطيع أن أحدد، كان الدافع وراء قدومه إلى كرواتيا هو الحياة بلا هدف التي عاشها في وطنه. لقد انحدر من عائلة من رواد الأعمال الناجحين. كان والده يعمل في مجال الإنشاءات، بينما كانت والدته تعمل في مجال العقارات، وكان أنتوني في الغالب منعزلًا مع نفسه. ومع ذلك، كان هناك سببان وجيهان لعدم كرهنا له، والعديد من الأسباب الأخرى التي دفعتنا إلى تكليفه بهذه المهمة.

السبب الأول كان موهبته الخطابية، التي لم يعُقها بأي حال من الأحوال الفهم الضعيف لقواعد اللغة الكرواتية. كانت لديه موهبة في وصف مغامراته الحربية بشكل حي وواضح، والتي كانت تتلخص في تدمير نحو خمسين تمثالًا نصبتهم الدولة السابقة. كما قام بتحرير واجهات جميع المباني العامة المتاحة من قمع اللافتات التذكارية. فبفضل جهوده، بات نصف قطر يبلغ عشرين كيلومترًا خاليًا من أي تذكير بالعصر الاشتراكي. لقد أضفى على أعماله لمحة من المعارك الخارقة للطبيعة بين النور والظلام ومصير الكون المعلق في الميزان، وكنا نستغل كل فرصة للاستماع بذلك ببهجة طفولية. إن الكمائن التكتيكية للنصب التذكارية لم تصبح قديمة معه، حتى لو سمعنا عنها في كثير من الأحيان بما يكفي، مع تفاصيل عن كل تمثال على حدة. السبب الآخر الذي جعلنا نحبه كان في جيوبه. إذ لم يكن أنتوني مجرد ترسانة متحركة للمتفجرات ولكنه كان دائمًا يمتلك الماريجوانا في جيوبه. وصفه مسؤولو الجيش بأنه تاجر مخدرات، وهو الشيء الوحيد الذي كان يجعله يمتلئ بالغضب. لم يكن يأخذ أي أموال من أي شخص أبدًا مقابل المخدرات، لذا فتلك التسمية الخاطئة أساءت إليه بصدق. كان

لدى أنتوني موهبة معرفة مكان أي شيء يريده الجيش ولكن لم يكن هناك مكان لتخزين البضائع بين الشراء والتسليم، لذلك استخدم مهجعنا للتخزين المؤقت. وفي مقابل هذا الصنيع، كنا أحرارًا في استخدام أي شيء يحضره أثناء بقائه معنا. لذا فقد شهد المهجع الخاص بنا عروضًا من أجهزة التلفزيون، ومسجلات الفيديو، وأفران الميكروويف، وآلات صنع القهوة، والعصارات، وآلات الخياطة، ومجموعات متنوعة من الأدوات، بما في ذلك المثاقب والمطاحن، الاهتزازية والعادية. أما مسألة من أين كان يحصل أنتوني على أغراضه وأين كان يأخذها، فلم نكتشفها مطلقًا، لكننا علمنا أنه لم يتاجر مطلقًا بالأسلحة. لم نكن متأكدين مما إذا كان قد رفض القيام بذلك من حيث المبدأ أم أنه لم يستطع الحصول على هذا النوع من البضائع، فقط لأنه لم يرغب في الحديث معه بشأن ذلك؛ لذلك احترمنا رغبته.

عندما انقضت فترة ما بعد الظهر من الحفلة، توجه أنتوني إلى قرية مجاورة. عاد ومعه خروف حي على المقعد الخلفي لسيارته. نصحه سيرو ببدء الاستعدادات في الصباح الباكر، لكن أنتوني تجاهل النصيحة. عرفنا حينها، أن العملية محكوم عليها بالفشل. والحق يقال، لم نحاول جاهدين تجنب الكارثة. كان بإمكاننا فعل المزيد لتعريفه بالنقاط الرائعة لشيّ حيوان كامل على سيخ، لكننا اعتقدنا أن الترفيه كان مهمًّا للحفلة مثل الطعام. ربما كنا لن نكون مستعدين للضحك على حساب أنتوني إذا لم يكن يحدثنا عن نوع آخر من المغامرات، تلك المتعلقة بخدمته في الحرس الوطني الأمريكي. لقد أخبرنا، من بين أمور أخرى، أنه نجا لعدة أيام في برية ولاية لويزيانا يتغذى على القنادس، والإغوانا، ويرقات المستنقعات بعد أن تعرضت وحدته للهجوم، في

ظل ظروف غامضة، من قبل عصابة من المنشقين أثناء تدريب عطلة نهاية الأسبوع. كانت الأمور تسير بسلاسة من تلقاء نفسها لأن أميدزا كان أحد مستمعيه المنتظمين وكان مهتمًّا بشكل خاص بالطعام. فقد كان أميدزا من آكلي اللحوم المتفانين ووجد أن عنصرًا واحدًا فقط من حكايات أنتوني مخيب للآمال، وهو أنه بغض النظر عن الأطعمة المثيرة التي تقدمها، فإن الخوض في الموضوع لا يتم بشكل كافٍ. إذ كان يمكنك أن تسأل أنتوني عن طعم الإغوانا، أو السلحفاة، أو القندس، أو اليرقات، أو السرخس المسلوق بأوراق الشجر، أو الأوكالبتوس المشوي، وتجده يجيب ببساطة "طعمه مثل الدجاج". صحيح أننا لم نتمكن من معرفة مذاق الإغوانا، لكن أمكننا التعرف جيدًا على حبكة فيلم الراحة الجنوبية[27]، وقد كانت إعادة سرد أنتوني الإبداعية لها هي التي عوضتنا.

عندما ربط أنتوني الخروف بشجرة برقوق في الفناء، كان عليه أن يقتله. لكن من الواضح أنه توقع أن تنهي جزة واحدة من السكين الأمر، لذا تحول الذبح إلى مشهد مروع، امتزج فيه صراخ أنتوني "مت! موت!" بثغاء المخلوق المرعوب المليء بالدماء. ركض حوله ووجهه يزداد احمرارًا، بينما يتعثر بالحبل الذي كان الخروف مقيدًا به، محاولاً الإجهاز عليه بالسكين لمدة خمس عشرة دقيقة، فقط لينهار، ويجلس بجوار الخروف، ويلف ذراعه حول عنقه، ويطلق النار عليه في رأسه بمسدسه. ما أدهش الحشد المزدحم على نوافذ المدرسة، أنه قام بعمل جيد بشكل ملحوظ في مرحلة السلخ. كان العمل الصعب قد انقضى منذ تلك اللحظة لأنه لم يفكر حتى في إزالة أمعاء الحيوان. قام فقط بإدخال السيخ في الذبيحة منزوعة الجلد ووضعها فوق النار. بعد أقل

27- الراحة الجنوبية Southern Comfort هو فيلم أمريكي إصدار عام 1981 ومن إخراج ووتر هيل. (المترجم)

من ساعة، سار بفخر إلى المهجع، حاملًا السيخ بالخروف وهو نيء بغض النظر عن بعض الحروق البسيطة من الخارج. سعلت زميلة ماجدة. "أنا نباتية. ماذا سآكل؟".

قال أنتوني: "يمكنكِ أن تأكلي السيخ"، وكان الجو مبهجًا وإيجابيًّا لدرجة أنها انفجرت في ضحك حقيقي مع الآخرين.

كانت ذروة مغامرة الطهي هي تقطيع اللحم. عندما فتح أنتوني الخروف، انفجرت الرائحة النتنة من الأحشاء، لدرجة أنه غطى فمه وانطلق خارج الغرفة. كان جميع الحاضرين على حافة الهستيريا، وحتى الإخصئيتان النفسيتان انبسطتا وحظيتا بوقت ممتع. حاول أميدزا بمفرده مضغ اللحم النيء، وهو يبصق قطعًا صغيرة على الأرض. هرع تشيركيز خلف أنتوني صارخًا: "في المرة القادمة، قدم لنا القرف بشكل منفصل! سنقوم بمزجه بالطعام بمفردنا!".

بعد تناول الوجبة المعتادة في مقصف المدرسة، عدت أنا وبورنا إلى المهجع، حاملين أميدزا بيننا. لأول مرة منذ فترة، بدا الجميع مستريحين وغير منزعجين. عندما تلاشت همهمة المحادثات وبقيت طقطقة الحطب في النار هي الصوت الوحيد في الغرفة، بقيت مستيقظًا وفكرت في أحداث الأيام السابقة. تساءلت عن عدد الأشخاص الذين سيعودون إلى ديارهم وكيف ستبدو حياتنا بعد كل ما مررنا به. هل سنستقر مع صديقاتنا الحاليات أو المستقبليات وننجب أطفالًا معهن؟ هل سيلعب هؤلاء الأطفال معًا ويخبرون بعضهم بعضًا بقصص حرب آبائهم؟ حاولت تخيل طفل برانكوفيتش، متسائلًا عما إذا كان لا يزال سيحظى بطفل. فإذا كانت صديقته حبلى، فهل ستحتفظ بالجنين، وإذا كان الأمر

كذلك، فهل ستجد له أبًا جديدًا وتنسى أنها ترملت يومًا ما؟ هل ستكون خيانة لصديقنا لو فعلت ذلك؟ هل سنبقى على اتصال معها؟ وماذا لو قابلت الطفل يومًا ما، هل سأخبره أنني كنت هناك عندما مات والده، وأن الرصاصة التي أودت بحياته كان من الممكن أن تقتلني بسهولة، وهل سيهتم الطفل بالأحداث التي حدثت من قبل ولادته؟

أردت تدخين سيجارة ماريجوانا. كان ثمن الرصاصة هو نفسه ثمن سيجارة الماريجوانا. فكُلفة قتلنا أو انتشائنا واحدة! تمنيت فجأة لو عرفت ثمن موت شيمي.

من فراشه، دفعني بورنا بقدمه. كنت مستلقيًا على جانبي فالتفتُّ إليه. عندما فتحت عيني، رأيته مستلقيًا على ظهره ورأسه مرفوع قليلًا. نظر إلي، ثم إلى الجانب الآخر من المهجع. ساعدت نفسي على النهوض ورأيت شيئًا يتحرك على سرير ماجدة. كنت أرى أنه من الغريب بعض الشيء أن تنام معنا الإخصائيتان في نفس الغرفة؛ فبالتأكيد كان بإمكان قيادة اللواء أن تجد لهما مكانًا أفضل للإقامة؟ لكن كما علمت لاحقًا من راوكار، أصرت ماجدة على مشاركتنا مهجعنا. نهضتُ ونظرت حولي. كان الجميع يجلسون وينظرون في نفس الاتجاه. لوح تشيركيز لي من الجانب الآخر من الغرفة. كان سريره في نفس الصف مع ماجدة، لذا لم يكن يتمتع برؤية جيدة مثلنا على الجانب الآخر. كان يحرك شفتيه بالكلمات في وجهي دون أن يصدر صوتًا. "هل يتضاجعان؟" رفعت كتفي لأعلى في إشارة لعدم الفهم، غير قادر على تخيل من يمكن أن يفعل ذلك مع من. لقد تقبلت فكرة رؤية كل أنواع الجنون طالما بقيت على الجبهة، لكن بطريقة ما لم أتوقع أبدًا أن أرى مشهدًا مثل ذلك الذي يتكشف لجميع من كانوا بالغرفة. كانت التلميحات حول طبيعة ما

يحدث تُرجح شيئًا ما بدرجة كافية، لكنني لم أستطع إدراك معناها؛ ليس إلا بعد لحظات قليلة، عندما انفجرت المشاعر وألقت ماجدة بطانياتها دون خجل. كان أميدزا جاثمًا فوق جسدها النحيل، وكانت هي ترتجف تحته. لقد شكلا معًا مشهدًا غريبًا. فقد كانت بطول 1.8 متر؛ نحيفة وعظامها بارزة، بينما كان أميدزا أقصر كثيرًا وممتلئ العضلات. لقد بدا وكأنه كلب من سلالة الباك يمتطي كلبًا من سلالة بورزوي.

كان البعض يعلق بالفعل علانية على ممارستهم للجنس. تراوحت ردود الفعل من "مرر لي القداحة" من أولئك الذين أرادوا مشاهدة العرض في استرخاء تام إلى احتجاجات صاخبة حول إزعاج راحتنا، في حين جاء العواء والنباح في الغالب من سبيدي وتشيركيز. نزل الاثنان من سريرهما، وركعا على الأرض، وقدما تعليقًا مستمرًّا وحيًّا على الحدث. كان يتحرك أميدزا بقوة فوق ماجدة حتى بدأت تنهمر الدماء من الضمادات على قدميه. كان يمكن للكشر على وجهه أن يكون بسبب نشوة الاستمتاع أو الألم الناجم عن الجروح المفتوحة حديثًا. كان أنينه الهادئ يتحول إلى عواء من الألم، لكنه وشريكته المنتشية لم يبديا أي علامة على التباطؤ. أخيرًا سار سبيدي وتشيركيز نحوهما. قال تشيركيز: "ليبارك الله روحك المعاقة، لا يمكنك المشي، لكنك تخيط مثل ماكينة الخياطة!".

أمسك هو وسبيدي بذراعي ورجلين أميدزا وأبعداه عن ماجدة. صرخ أميدزا من الألم. حملاه إلى سريره، فتلوى بينهما، ونصفه السفلي عارٍ وقضيبه المنتصب مكشوف. ترك الدم المتساقط من الضمادات سلسلة من الدماء على الأرض. كان سبيدي قد عاد بالفعل إلى جانب ماجدة. صعد فوقها وأنزل سرواله. "دعونا نحمي قليلًا، ثم يمكننا مناقشة

التفاصيل النفسية بعد ذلك".

ركع تشيركيز بجانبها، ومرر أصابعه من خلال شعرها. وضعت رأسها على حجره. قال لها في حالة سكر: "أعدك بأنه سيكون هناك الكثير من المواد لاختبار رورشاخ". (28)

قفزت من سريري وأمسكت بندقيتي، لكن بورنا سحبني للخلف ونزع سلاحي بحركة واحدة سريعة. استطعت أن أرى أنه تفاجأ أيضًا، لكن هدوءه وإدراكه كانا سليمين. ذكرني بشيمي مرة أخرى. همس: "إذا ألقيت نظرة أفضل، سترى أنها موافقة".

كان بورنا على حق. في الواقع، ماجدة لم تكن معنا في الغرفة. يبدو أنها تركت حدود جسدها، ربما لأول مرة في حياتها، ولم تكن في عجلة من أمرها للعودة. كان سبيدي وتشيركيز يتناوبان عليها، ويتوقفان مؤقتًا لإشعال سجائر الماريجوانا لبعضهما. استمرت العربدة لساعات. لقد أفسح الارتباك الأولي بين المتفرجين المجال للدهشة وللامبالاة في نهاية المطاف. فقد أدار الناس ظهورهم في أسرتهم وناموا. ظل أميدزا يتألم حتى الصباح. إذا كانت الظروف مختلفة قليلًا، كان من السهل أن نرى كيف كان يمكن للحادثة أن تؤدي إلى الجرأة والحيوية وأن تكون بمثابة مؤنة للنكات القذرة لأشهر عديدة، لكن الحقيقة هي أنه لم يذكرها أحد في الغرفة مجددًا! مع مرور الأيام، أصبحت أشك في ذاكرتي بشكل متزايد. فقط إحدى اللقاءات التي صادفتني بعد بضعة أشهر هي التي أمدتني بأدلة مؤيدة. لولا ذلك اللقاء، لربما كنت سأقنع

28- اختبار رورشاخ هو اختبار نفسي يتحدث فيه الأشخاص عما يرونه في صور بها بقع ملونة ثم يتم تحليلها باستخدام التفسير النفسي. (المترجم)

نفسي بأنني دخنت كثيرًا من مخدرات أنتوني!

جاء ذلك اللقاء بينما كنت أنتظر كفاتيرنيك في مقر قيادة الجيش في المدينة، وأتحدث مع سكرتيرة كان زوجها نائبًا في مكان قريب من لوائنا. ولأنني أتيت مع العقيد كمرافق له، اعتقدت السكرتيرة أنني من الشرطة العسكرية أيضًا. أرادت معرفة الوحدة التي كنت منتسبًا لها. عندما أخبرتها أنني تابع لقوات استطلاع اللواء 199، أصبح سلوكها جادًّا. خفضت من صوتها واتكأت على المكتب. "هل سمعت عن تلك الإخصائية النفسية؟ لقد حدث ذلك في وحدتك".

"نعم أعرف. كنت في الغرفة".

اتكأت السكرتيرة على كرسيها، وظلت صامتة لبعض الوقت. "كنت أعرفها جيدًا. كنت أنا وهي في الجامعة معًا. لقد تركتُ الدراسة بعد السنة الثانية عندما تزوجت. لكنها كانت أفضل طالبة في جيلنا. كانت مُجدة تمامًا في دراساتها. كنا جميعًا نحسدها". نظرت إلي، وهي تلوي شفتيها. "كنت أنا وهي في بعض الأحيان نخرج معًا، وما إن كان يصل الأمر إلى الحفلات الصاخبة، كانت تنهض وتقول إنه يتعين عليها العودة إلى المنزل لأن لديها المزيد من القراءة للقيام بها. هل يمكنك أن تتخيل؟".

لا بد أن وجهي أظهر أنني لا أعرف حقًّا ماذا أقول.

قامت السكرتيرة بحشرجة حلقها وأنهت حديثها قائلة: "على أي حال، أنا أشعر بالأسف بشأن أطروحتها. اعتقدتُ أنها لن ترتاح حتى تحصل على درجة الدكتوراة، لا أن تفسد الخطوة الأولى. الكثير من الطموح

والتضحية، وأضاعت كل شيء بسبب هذا الفعل الغبي. أمر لا يصدق".

بهذا، بدأت أفهم سبب تصرف ماجدة وكأن لم يكن هناك أحد من حولها في تلك الليلة. بدا منطقيًّا أن اندفاعها اعتمد على مخزون ضخم نسبيًّا من إنكار الذات. بعد المحادثة مع السكرتيرة، فكرت في الحادثة أكثر من مرة، محاولاً وضع ما سمعته وما رأيته في قصة متماسكة. لقد اختارت شابة طموحة مع بعض الصراعات الداخلية أشجع طريقة متاحة لمواصلة دراستها؛ لقد جاءت إلى منطقة حرب للبقاء تحت سقف واحد مع أناس دفعتهم الحرب إلى الجنون. ثم أصبحت الشخص الأكثر جنونًا في الغرفة. لكن لِمَ لا؟ المرأة التي تخلت عن السلامة المدنية وخاطرت بفقدان حياتها لم تكن مختلفة عن بقيتنا. لقد فعلنا جميعًا الشيء نفسه؛ تركنا منازلنا وأصدقاءنا وعائلاتنا واستبدلنا وسائل الراحة في الحياة الطبيعية بالثلج والوحل والنار والدم والألم.

بالنسبة لأي شخص تبقى لديه القليل من العقل، كان من المؤلم مشاهدة تحرر ماجدة. لقد تم تفجير شاشتها الواقية، لكن الأمر كان كذلك معنا أيضًا. كان الاختلاف الوحيد هو أن صمامات تخفيف الضغط الخاصة بنا عملت لوقت إضافي لأشهر وأطلقت صفيرها في يوم واحد، وتفاقم الغضب والإحباط المتراكمان بكثافة غير متوقعة. إذا كانت لدي طريقة لأتفحص ما بذهنها في تلك الليلة، فهناك شيء واحد فقط سأحاول اكتشافه -ما إذا كانت هناك شرارة أولية واضحة أدت بها إلى الانفجار ودفعتها إلى الجنون.

كانت الحادثة التي حدثت أمام أعيننا سائلة كما لو أن كل من في الغرفة قد مر بهلوسة جماعية. عاد المظهر الحاد للواقع فقط عندما

أيقظني بورنا. كان قد حان دورنا للذهاب في دورية. دفعني بمقبض بندقيتي، ودفعها في يدي. "هيا. يمكنك الحصول عليها الآن".

نهضت، وأعدت البندقية إلى الحافظة. كان سبيدي وتشيركيز يسكبان البراندي على جسد ماجدة المتلوي. نظر إلي بورنا وهو يرتدي زيه العسكري. انحنى عن قرب وهمس في أذني: "لقد حلمت بشيء. أعتقد أن لدي أختًا".

ميلان المجنون

خرجنا إلى صباح ناصع ومشرق بسماء بيضاء كاللبن. لم يكن الطقس مشمسًا، لكنه كان تغيرًا لطيفًا عن الظلام المعتاد والضباب الملون بلون الرصاص. غمرنا الهواء الذي تقل حرارته عن الصفر ونحن متجهون إلى نقطة التفتيش. كان الطريق الذي كنا نقوم بدورية به يتعرج عبر الحقول ثم يختفي بين سلسلة جبال قصيرة. وبينما يصعد إلى الأعلى، كان ينحني في منحنى خفيف، بطول عدة كيلومترات. أُقيمت نقطة التفتيش على مشارف القرية الأقرب إلى مدرستنا. كانت القرية آخر مستوطنة تابعة لأراضينا. نظرًا لأن الطريق وراءها يؤدي إلى خطوط العدو، لم تكن هناك أي حركة مرور تقريبًا. إذا اقترب منا شخص ما من الجبال، فقد يعني ذلك شيئين فقط: إما أنهم أتوا لأراضينا عبر الحقول، وهو ما لم يكن لديهم سبب للقيام به لأن حركة المرور على الطريق الرئيس تعمل بشكل طبيعي، أو أنهم تاهوا وضلوا الطريق وهو ما كان شبه مستحيل. إذ كان الأفراد على كلا الجانبين يعرفون بالضبط إلى أين يقود كل طريق وأين كان الخط الفاصل.

كانت الرؤية تمتد من نقطة التفتيش إلى عدة كيلومترات لأعلى الطريق. كانت البقعة مثالية للمراقبة لأنها تتيح لنا اكتشاف المركبات التي تقترب في وقت مبكر. كان التعقيد الوحيد هو أن كل شخص في المنطقة يقود مركبات دون لوحات تسجيل. لهذا السبب، اتخذنا دائمًا

الحيطة من خلال إخفاء إحدى الحراس على الطريق. كان يبقى على ارتفاع منخفض، بحيث يرى المركبة الآتية في مرماه، بينما يقترب الحارس الآخر من السيارة ويوقفها ويتفحص أوراق السائق. ومن المسلم به أن هذا كان إجراءً سخيفًا لأنه لا توجد مثل هذه الأوراق التي تمنح أي شخص الحق في المرور. كان الفحص مجرد عرض له تأثير نفسي على السائق. أما القرار الحقيقي بشأن السماح له بالمرور فيعتمد على تقدير مقلة عين الرجل المناوب وقتها.

كانت مقصورة ميلان المجنون بجوار الطريق مباشرة. لم تكن من الداخل أكبر من غرفة المعيشة في شقة والدي. كانت تحتوي على أرضية ترابية وموقد خشبي وجدران زرقاء فاتحة مرقطة بحلقات بنية من العفن. وفي إحدى الزوايا كانت هناك منصة مرتفعة قليلًا مع سرير كبير عليها. كان الركن المقابل بمثابة مساحة تخزين لعدة مئات من الكيلوجرامات من البطاطس. لم يكن للباب الأمامي حتى مقبض، والباب نفسه قد سقط عن المفصلات منذ فترة طويلة. عندما كان يريد ميلان إغلاقه، كان يقوم بوضعه بين قوائم وعارضات الباب وتثبيته بحبل. في الطقس البارد، كان أفراد الدوريات يحتمون في منزله، وبعضهم يحل ضيفًا عنده حتى عندما يكون الطقس جيدًا، لتناول مشروب والانخراط في قليل من الحديث. لم يكن في المقصورة إضاءة باستثناء مصباح الكيروسين، لذلك لم يكن ميلان في كثير من الأحيان يعرف أيًّا من أعضاء اللواء قد استمتع بضيافته. لكن ميلان لم يمانع. فقد كان يحب الجيش، وكان الجميع موضع ترحيب.

كان لميلان ابن حمل السلاح عندما قُتلت زوجته. كان هو وابنه أرملين. فقد توفيت زوجة ميلان بسبب مرض السرطان قبل فترة وجيزة من

الحرب. بينما كانت زوجة ابنه من قرية على الجانب الآخر من الخط الفاصل. كانت عائدة من زيارة لوالديها عندما أوقفتها دورية الجانب الآخر. حيث اتُهمت بالخيانة وقُتلت على جانب الطريق. بعد انتشار أنباء مثل هذه الجرائم الوحشية، حمل العديد من القرويين السلاح. لقد قاموا بتوحيد قواهم وحراسة مداخل قراهم والتزموا بذلك حتى عندما وصل إليهم الجيش النظامي. لقد أتاح وصولنا لهم فقط المزيد من الوقت لأداء مهامهم الاعتيادية.

كان ميلان وابنه في الغابة يجمعان الحطب ذات مرة عندما صادفا مجموعة من قوات استطلاع الأعداء. أصبحا محاصرين وأُسرا. حاول ميلان إقناعهم بأن ابنه كان يحمل البندقية فقط في حال مصادفتهم دبًّا، لكن ابنه لم يكن يبرر لأي شخص؛ بل صاح بوجه الجنود. بعد ذلك رُويت قصة عن كيف قطعوا رأسه أمام أعين ميلان مباشرة بنفس المنشار الذي أحضره ميلان للخشب. تم إطلاق سراح ميلان نفسه حتى يتمكن من نقل الحدث إلى القرية وإخبار الجميع كيف سيتعامل العدو معهم. في ذلك اليوم، قال السكان المحليون، فقد ميلان عقله.

بموجب اتفاق غير معلن، كان يحضر كل من يقوم بدوريات في نقطة التفتيش علبة سمك أو لحمًا للغداء ويتركها في كابينة ميلان. كان يشعر بإهانة شديدة إذا قدم له أحدهم الطعام علانية. بل كان يمكن أن يبكي حتى من الشعور بالمهانة والإذلال، لذلك كنا نقوم بذلك في الخفاء، وهو كان يعتقد على الأرجح أنه جلب الأشياء بنفسه. في بعض الأحيان كان يذهب إلى المدرسة ويتجول في الممرات، ويشاهد الفاترينة الزجاجية التي تعرض رسومات التلاميذ. كان من بينها رسمة رسمها ابنه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. وإذا سأله أحدهم عما يفعله، كان يقول

ميلان إنه ينتظر المعلم ليسأله كيف كان أداء ابنه في المدرسة. كان سيروفاك قادرًا في الغالب على طمأنته بأن ابنه حصل على درجات جيدة وأنه يحتاج فقط إلى بذل جهد أكبر في الرياضيات، ثم يصطحب الرجل العجوز إلى مقصورته ويدفع بعلبة سجائر في جيبه. وإذا سأله ميلان عن سبب إعطائه السجائر، كان سيرو ينقر على أنفه بسرية "كن حريصًا على ألا يرافق ابنك مجموعات سيئة. لقد صادرتها منه في الصف". كان يأخذ الرجل العجوز إلى منزله، ويتناول معه كأسًا من البراندي محلي الصنع، ويضعه في الفراش. إن أي شخص يشاهد هذه المشاهد لا يعرف هل يضحك أم يبكي.

كان مدخل مقصورة ميلان مواجهًا للطريق. عندما يكون الباب مفتوحًا، يمكن للمرء أن يجلس بجوار الموقد ولا يزال يرى الطريق حتى المنعطف الكبير. كان يحب ميلان قطع البطاطس إلى أنصاف ثم يضعها على الموقد، وبينما كانت تُشوى على الجمر، كان يروي عطشه بأقوى براندي متاح. في ذلك الصباح، مثل مرات عديدة من قبل، بقينا برفقته وجلسنا بجانب الموقد وهو يتدفأ. أخبرنا أنه يجب علينا أن نشرب نخب بعضنا بعضًا في الظلام؛ لأن الكيروسين نفد. وقد وعدته بأن أجعل أنتوني يحضر له زجاجة جديدة بمجرد وصوله. كان بورنا متكئًا على الحائط بجوار الموقد، يراقب الطريق من خلال الباب نصف المفتوح. قمت بتقطيع شرائح البطاطس مع ميلان وساعدته في ترتيبها على الجمر. أخرج ميلان زجاجة من مكان ما وأخذ جرعة طويلة. ثم ناولها إلى بورنا الذي شرب وارتجف. شغل ميلان نفسه بالبطاطس، ولم يعِرنا المزيد من الاهتمام. قدم لي بورنا الزجاجة ورفع حاجبيه، ليحثني على أن أشرب. قبلت، واعتقدتُ أنها لن تكون أقوى من زجاجة أميدزا. ومع

ذلك، شعرت أن شيئًا ما غريبًا بها، لذلك أخذت جرعة صغيرة فقط. بمجرد أن لامس المشروب لساني، علمت أنني لم أشرب براندي، ولكن لم أدرك سبب جلوسنا في الظلام إلا بعد أن ابتلعت. لقد تناولت جرعة كبيرة وأعدت الزجاجة إلى ميلان المجنون، الذي كان يتلاعب بقطعة بطاطس ساخنة تمت إزالتها حديثًا من الجمر. جلسنا حول الطاولة الصغيرة وأمضينا نصف الساعة التالية في مضغ البطاطس وشرب الكيروسين!

"شخص ما قادم".

أيقظني بورنا من غفوتي. كان الصباح قد أشرق بالفعل، وكنت أرى بوضوح سيارة مدنية حمراء تقترب من القرية. خرجنا واتخذنا مواقعنا. بقي بورنا في الخلف منخفضًا قدر الإمكان، بينما وقفت أنا على الطريق أمامه بنحو عشرة أمتار. لوحت بمصباح أحمر يشير إلى السائق بالتوقف. صرخت، حتى يسمعني بورنا "لا يبدو أنه سيتوقف!".

أعاد بورنا تعمير بندقيته دون أن ينبس ببنت شفة. كانت السيارة تقترب. عندما اقتربت على مسافة عدة مئات من الأمتار، تمكنت من رؤية السائق. كان يرتدي زيًّا مموهًا. كان من المفترض أن يراني ومصباح الإشارة الخاص بي الآن بشكل أفضل، لكنه فقط أسرع في قيادته. نزعت البندقية من كتفي وجثوت على ركبتي ووجهتها نحوه. أرسلنا رشقات نارية قصيرة في اتجاهه. استدارت السيارة بحدة إلى اليمين، وخرجت عن الطريق، وانحرفت فوق خندق، وانقلبت قبل أن تتوقف في حقل على بعد مسافة منا. انتظرنا، ولم ننهض. تسلل بورنا نحوي، وهو منحنٍ. عبرنا إلى الجانب الآخر من الطريق ونحن منحنيان. ظل بورنا

ورائي، وأبقى بندقيته موجهة نحو السيارة. تحطمت نوافذ السيارة التي تبين أنها ماركة فورد إسكورت حمراء. بدا الزجاج الأمامي مثل شبكة العنكبوت. بمجرد أن أشرت إلى بورنا بأن نقترب، فُتح الباب وخرج رجل ضخم. استقام وهو يحمل مسدسًا. وقف هكذا لعدة لحظات كما لو كان ينتظر أمرًا صامتًا، ثم أطلق صرخة حيوان شرس وبدأ يركض نحونا. هاجمنا وكأن كل جيوش العالم كانت وراءه. نظرت إلى بورنا. بدا في حيرة من أمره. كان الرجل المجنون يركض ويطلق مسدسه نحونا، بغض النظر عن عدم قدرته على ضربنا من تلك المسافة. نظرت من خلال المنظار ورأيت أنه يحمل شارة العدو على زيه الرسمي وقبعته. نظر إلي بورنا وهو يحمل بندقيته في مستوى وجهه. "معنا أم معهم؟".

لكي أكون متأكدًا تمامًا، نظرت مرة أخرى. كان جنديهم يركض عبر الحقل ويحاول إطلاق النار علينا بمسدسه. قلت له: "إذا كان تابعًا لنا، فلم أكن أعرف أبدًا أن لدينا مثل هذا الجنون".

أطلق بورنا النار عليه. وضعت بندقيتي الأوتوماتيكية على وضع طلقة واحدة وفعلت الشيء نفسه. كان الرجل لا يزال يركض. ظننت أننا أخطأنا الهدف وشعرت بالدهشة. لقد كنت أشعر بالفخر لكوني واحدًا من القلائل في الوحدة الذين يمكنهم تصويب عشر من أصل عشر رصاصات في علبة فاصوليا على بعد مئة خطوة. أطلقت النار مجددًا ورأيته يرتعش، لكنه استمر في الركض وإطلاق النار. استلقيت على الأرض وصوبت. أطلقت رصاصة تلو الأخرى، مصوبًا ومصيبًا بدقة، لكن الرجل كان لا يزال يركض كما لو أن ما كنت أصيبه به كان مجرد حصى أطلقها من مقلاع. أعدت البندقية إلى الوضع الأوتوماتيكي وأطلقت

عدة رشقات نارية. انتفض جسده تحت سيل الرصاص وتوقف أخيرًا، متأرجحًا على قدميه. كان ينظر إلينا ويتنفس بصعوبة. لم يكن لدي أي فكرة عن عدد الرصاصات التي أصابته، ولكن بعد فترة قصيرة هب إلى الركض مرة أخرى، مثل الكلب الذي تحرر لتوه من السلاسل، كما لو أن تلك الثواني القليلة قد أعادت شحنه تمامًا. لم يكن يبعد عنا أكثر من مئة متر، وما زال يصرخ ويطلق النار. نظرت بجانب عيني إلى بورنا. كانت عيناه متسعة من الدهشة وعدم التصديق. كان الرصاص يصفر فوق رؤوسنا. اخترق العديد منه جدران مقصورة ميلان المجنون.

تمكنا لاحقًا من إحصاء أربع عشرة إصابة به. ولو لم يضع بورنا رصاصة في رأسه، لربما عاش الرجل ليُري لأحفاده الندوب. لكن الرصاصة الخامسة عشرة جعلته يقع على ركبتيه في الحقل ويدفن وجهه في العشب البارد. ركض بورنا إلى السيارة. عاد ومعه نصف زجاجة شراب ممتلئة. هزها ونظر إلى السائل بداخلها. أصبح فم الزجاجة ملطخًا بمسحوق أبيض. لعقه بورنا بحذر، وبصق، وضحك بدهشة.

"براندي مع كوكايين. هل سمعت عن هذا المزيج من قبل؟".

"أبدًا يا رجل". قلت وأنا في حيرة من أمري.

سكب بورنا السائل على الأرض وألقى الزجاجة بعيدًا في المساحات الخضراء. نزعنا بنادقنا، ونزعنا الرصاص من الخزنة، وعدنا إلى الطريق. كان ميلان جالسًا أمام مقصورته. وقد جذب انتباهه إطلاق النار والصراخ. لقد خرج وشاهد كل شيء من عتبته. كان يراقبنا بضبابية، ولا يزال يشرب الكيروسين. بينما على الطريق، من اتجاه المدرسة، كانت فرقة من الشرطة العسكرية تجري؛ ويتقدمها سيروفاك. رفع ميلان المجنون قنينته عاليًا في الهواء ليحيه. "صباح الخير يا مُعلم!".

آمين

كنت لا أزال أنا وبورنا في الدورية عندما تلقت وحدتنا إضافة غير متوقعة. كان الرجل الجديد زميلًا ذا مظهر صارم وله لحية أنيقة. يبدو أنه تم إرساله كبديل لبرانكوفيتش. بغض النظر عن التناقض المعتاد في وحدتنا حول المبتدئين، يبدو أن الرجل الملتحي قد نجح في جلب كراهية صريحة ضده. صافحنا وعرفنا بنفسه وأنه يدعى نيز. صافحته وقررت عدم الاكتراث بمعرفة اسمه الأول. لم أستطع أن أحدد بدقة ما جعل الآخرين ينفرون منه، لكنني شعرت به بالتأكيد أيضًا. كانت مصافحته مرتخية وراحة يده رطبة. كان القلق ينبعث منه في موجات متتابعة. كان ينبض ببعض الاضطرابات الخفية التي لا يمكن أن تكون شجاعة المبتدئين لأنه كان بالفعل على خط المواجهة لمدة شهرين. مهما كان الأمر، لم يشعر أي شخص أنه يود الاقتراب بما يكفي لمعرفة ذلك.

في البداية، كانت المسافة الحذرة التي أبقيناها مع الوافد الجديد تعود بقدر ما لمجيئه من وحدة مكافحة الإرهاب. كنا نعلم من التجربة أن رجال مكافحة الإرهاب لديهم نوع من عقدة التفوق. لم يكن لديهم سبب حقيقي لذلك، لكنهم كانوا يستندون إلى التدريب الخاص الذي تلقوه. فلقد تم تدريبهم في القتال اليدوي من قبل مدربين تعلموا مهاراتهم في الخارج كجنود مرتزقة. أما مسألة ما إذا كان قد اقترب أحد المتدربين من العدو بدرجة كافية لاختبار هذه المهارات، فهي مسألة كانوا سعداء

بتجاهلها. كان القليل من التبختر والتباهي أمرًا لا مفر منه معهم، وتساءلنا فقط إلى أي مدى سيكون الأمر سيئًا؟

لكن لم يكن هناك داعٍ للقلق بشأن ذلك في حالتنا. فقد كان الوافد الجديد من النوع المنزوي. الشيء الوحيد الذي كان صارخًا به هو القلق، الذي كان لا يزال يشع من كل حركة يقوم بها. ظل يعبث بأغراضه كما لو كان غير راض عن ترتيبها. كان يرتجف من حين لآخر، كما لو كان يتوقع ظهور شيء ما أو شخص ما. لقد عزونا كل ذلك لأي كان ذلك الذي كان يقلقه، وبعد ذلك علمنا أننا كنا على حق، ولكننا علمنا أيضًا أنه دائمًا ما كان منظمًا وأنيقًا للغاية. بدت ملابسه كما لو أنه قام بكيِّها في الخفاء. بينما كان كل شيء آخر به ناضرًا ونظيفًا بدقة كما لو كان مستعدًّا لعرض عسكري. وقد اختار لجلوسه ركنًا أسفل النافذة ونظمه وضبطه على الفور بكمال هندسي مشابه للماندالا[29]. بدت مرتبته كمشتل أزهار محاط بسياج أبيض منخفض في وسط مكب للقمامة. وكان لا يزال يتفوق على نفسه عندما يتعلق الأمر ببندقيته، التي كان يقوم بتنظيفها لفترات طويلة من الوقت، وتشحيم كل جزء بدقة جراحية. حتى إن سيرو لاحظ ذلك وأخبره أنه من الأفضل تنظيفها بشكل أقل دقة ولكن لمرات أكثر في اليوم. "كلما قل الوقت الذي تقضيه في كل عملية تنظيف، قلت فرصة وقوع حالة طارئة على حين غرة وأنت غير مستعد" أو هكذا ادعى سيرو. لم نعلق؛ لأننا كنا منزعجين بالفعل من ذلك الملتحي سواء أكان يفعل ذلك بسرعة أو ببطء. إذ كانت الطريقة المنظمة التي يضع بها الأشياء وحدها تجعلنا ننزعج للغاية.

29- الماندالا mandala هي فن الترتيب الهندسي للرموز وله عدة أهداف في التقاليد الروحية الشرقية كالهندوسية والبوذية. (المترجم)

ومع ذلك، فإن وصوله لم يبدُ دون جانب مشرق. فلا يوجد شيء أفضل للمجموعة من عضو يثير أعصاب الجميع ويزعجهم. لبعض الوقت، استمتع الجميع بشعور الاتحاد في الكره. ثم فعلنا الشيء المعتاد وقررنا أن ننسى أنه كان هناك.

***

تم نقل الإخصائيتين النفسيتين إلى منشأة تابعة للجيش في أقرب بلدة ببعض التسرع. ومن هناك أُعيدتا هما وأميدزا إلى منازلهم. شعر راوكار بالمسؤولية عن سلوكهما، لذلك طلب من العقيد كفاتيرنيك أن يؤدب سيروفاك كل من كان حاضرًا أثناء الحادث. كان يمكن سماع رأي سيروفاك من بعيد. دخل غرفة العمليات مع الآخرين وأغلقها ولم يسلم أحد منهم من جلد لسانه. صرخ في راوكار أولًا، ثم في العقيد نفسه، وبعد ذلك حاول الرفيق السياسي أن يقول كلمة وندم عليها على الفور. وقفنا على الجانب الآخر من الباب المطلي بطلاء أبيض مقشر واستمعنا إلى الجدل. كانت تأتي كلمة من بين كل ثلاث كلمات بصوت عال بما يكفي للسماح لنا بإدراك باقي الحديث. كان معظمه انتقادات من سيروفاك لطاقم اللواء. لقد صرخ في وجه الآخرين بأنه لم يكن من المفترض بهم أن يضعوا مدنيات في مهجع للذكور. ووبخ الضباط بسبب عودتهم إلى منازلهم كل أسبوعين بينما لم يكن لدى الجنود حتى جدول زمني محدد للإجازات. ولم ينس التنديد بقيادة الجيش بسبب الضغط اليومي الذي تحملته وحدتنا.

في النهاية ذكرني أنا وبورنا، مدعيًا أننا أنقذنا حياة الجميع. فكما اتضح، وجد سيرو ورجاله شحنة من المتفجرات في صندوق السيارة

الحمراء التي أوقفناها في ذلك الصباح. لقد اندهشوا من أنها لم تنفجر عندما انحرفت عن الطريق. كان سيرو نفسه في حيرة من سبب توجه المجنون في السيارة باتجاهنا مسلحًا وكأنه سيشن هجومًا من رجل واحد. الآن نجح في اختلاق قصة انتحاري كان عازمًا على اغتيال طاقم اللواء.

يبدو أن الاستنتاج هو أن اللواء كان يستسلم لموجات متعاقبة من الهستيريا واللامبالاة وأن بعض الجنود أصبحوا يشكلون خطرًا على الآخرين وعلى أنفسهم. وفي محاولة لإنقاذ الروح المعنوية، قرر كفاتيرنيك إحضار كاهن ليقدم لنا بعض كلمات الإرشاد والراحة. لا أعرف ما الذي كان يمكن أن يقوله أي كاهن لتغيير مسار ذلك الحادث في المهجع، لكن سبيدي وتشيركيز كانا قد استنتجا بالفعل أن خطاياهما الأخيرة ستُغفر بالعشاء. تقرر أن يكون الاعتراف بعد الصلاة. لبدء الأمور، ألقى الكاهن علينا خطابًا صغيرًا. بدا مخلصًا في جهوده لتخفيف شعورنا بالذنب بشأن إزهاق الأرواح. أخبرنا أن الكتاب المقدس اعتبر القتل خطيئة، ولكن ليس إذا كان ذلك دفاعًا عن النفس، والدفاع عن وطن المرء كان -حسب قوله- نفس الشيء. كنت متأكدًا من أنه كان يقدم لنا تفسيرًا متساهلًا ومبالغًا فيه. في الظروف العادية كنت سأحتقره بسبب ذلك، لكنني وجدت أنني لا أمانع حقًّا إذا كان ذلك يجعل أيًّا من الجنود يشعر بتحسن بشأن العبء الذي يتعين عليهم تحمله على أي حال. أما مسألة ما إذا كانت كلماته تحض على العنف، فلم تكن هذه مسألة تشغل بالي في ذلك الوقت. هل كان بإمكانه أن يشجع أحدًا على إطلاق النار على سجين مثلًا؟ هل أعطاهم مخرجًا بـ"دعاء" بسيط؟ أحيانًا كنت أتساءل وأفكر في ذلك لاحقًا، لكن ليس

كثيرًا. على أي حال، لم يكن من شأني أو يهمني ما يأخذه الآخرون من كلمات الكهنة، وأنا شخصيًّا كنت على ما يرام مع أخلاقيات أفعالي في القتال. كنت أذهب في كل مهمة وأنا مدرك لخطر أن يقتلني شخص ما وكنت أحاول النجاة. ولم أر أي شر في ذلك.

لم يكن لدى الكاهن فرصة كبيرة لإثارة اهتمامي بأي شكل من الأشكال لأنني حظيت بلقاء مع الكنيسة قبل مجيئي إلى الجبهة. استحدثت قواتنا بدعة ارتداء المسبحة. وعندما حان وقت ذهابي إلى منطقة الحرب، ذهبت إلى كنيسة الأبرشية وأخبرت الكاهن المحلي أنني أيضًا أريد مسبحة. لم أكن أصدق أنها ستحميني، لكنني قلت لنفسي إنها لن تضر. أخذني إلى الكنيسة وقدم لي خيارات من جميع الأنواع. وبينما كنت أستشعر الخرز في أصابعي، قام بحشرجة حلقه برفق. كان سعر المسابح البلاستيكية ثلاثة ماركات ألمانية. بينما كانت تكلفة تلك التي تحتوي على خرزات خشبية خمسة ماركات، أما المسابح الزجاجية فكانت بعشرة. إلا إذا كانت فسفورية فكانت بعشرين. إذا كان قد أخبرني بذلك بعد عدة أشهر، ربما كنت قد طعنته في كف يده.

عندما وقف الكاهن على قدميه وبدأ الصلاة، بقي بقيتنا جالسين. ثم طلب منا أن نقف، وهو ما فعلناه، وعندما طلب منا أن نجلس مجددًا، فعلنا ذلك أيضًا، واستمر هو في القراءة من كتابه. بعد فترة، بدا أن الوقت قد حان للوقوف مرة أخرى. لكن بما أن الجميع ظلوا جالسين، لم أتحرك أيضًا. توقف الكاهن عن دعوتنا إلى الوقوف. ربما كان يشعر بالحرج نيابة عنا، وربما قال لنفسه إن الكلمات الإلهية ترفع من شأن المستمع حتى لو كان المستمع جالسًا. في جميع الصلوات التي قادها ولم نكن نعرف كيف نتبعه بها، كانت الكلمة الوحيدة التي نقولها في

انسجام تام هي "آمين". كانت الحقيقة أن معظمنا لم يكن من مرتادي الكنيسة، أو لم نكن قبل الحرب، لكن الدين كان أحد الأشياء التي تميزنا عن العدو، لذلك أصبح من المألوف الآن أن نعود لجذورنا الكاثوليكية. نظرت خلسة إلى الأشخاص في الغرفة ورأيت أن ذا اللحية هو الوحيد الذي كان مندمجًا. أما بورنا فكان تائهًا تمامًا، مثلي، على الرغم من أنه كان يعاني على الأقل من فقدان الذاكرة كعذر -إذا كانت هناك حاجة إلى عذر لعدم معرفة ما يجب القيام به أثناء القداس-. مع استمرار الأمر، تلاشى اهتمامنا تمامًا. كان بإمكاني الشعور بالملل يتزايد في الغرفة. كان سبيدي وتشيركيز يسليان بعضهما بعضًا عن طريق العبث بتعبيرات وجوههما. وصل الكاهن أخيرًا إلى فعل البركة، ورشنا بالماء المقدس، ثم قال بضع كلمات، ثم دعانا لتقديم أسلحتنا حتى يباركها أيضًا.

في الصخب القصير الذي أعقب ذلك عندما كنا نحضر بنادقنا، تساءلت عما إذا كان أي شخص سيثير ضجة أو سيلفت الأنظار. لم أكن أعتقد حقًّا أن أحدًا سيفعل ذلك. ومع ذلك، عندما وضع الجميع أسلحتهم على الطاولة، لم يشارك بورنا. للحظة كنت أتوقع منه تقريبًا أن يشير إلى ثغرة أمنية أو بعض التفاصيل العملية الأخرى التي فاتتنا. لكنه فقط بقي حيث كان. عندما نظر إليه الجميع نظرات ترقب، تحدث بصوت هادئ. "أنا متأكد من حقيقة أن الله يرى الحرب على أنها مجرد ضعف بشري آخر، لكنني لا أعتقد أنه من الصواب جر الله إلى حربنا".

قال سيرو، الذي كان الوحيد الذي تجرأ على الرد: "وفر علينا تفكيرك. لدينا بلد ندافع عنه. نحتاج إلى الدعم والقوة الروحية".

رمش بورنا بعينيه كما لو أن سيرو كان يقول كلامًا غير منطقي على الإطلاق. "عندما تقاتل من أجل قضية عادلة، فهذه هي كل القوة الروحية التي تحتاج إليها".

نفذ صبر سيرو وصاح. "فوق هذا التل، تمتلئ الغابة برجال مسلحين يعتقدون أن قضيتهم عادلة!".

"كانوا لن يقاتلوا إذا لم يكونوا يعتقدون ذلك. ولا نحن كذلك".

امتلأ وجه سيرو بالغضب. "كن حذرًا يا هذا، وإلا قد يعتقد من يسمعك إنك تقول أنه لا يوجد فارق بيننا وبينهم!".

لم يتردد بورنا في قول ذلك. "نحن نرتدي نفس الزي ونشرب نفس البراندي ونصلي لنفس الرب. الاحتمالات كبيرة أن بعضهم هناك يقفون حول كاهنهم الآن أيضًا، بينما يبارك أسلحتهم!".

في الجزء الخلفي من الغرفة، أُصيب أحدهم بنوبة سعال. ومهما كان رأي الآخرين في كلمات بورنا، فلا أحد كان يستطيع أن يصدق أنه كان يقولها بوجه سيروفاك. كان سيروفاك لا يزال يحاول الالتزام بضبط النفس. "هل هناك شيء ما تحاول أن تقوله يا بورنا؟".

"إنه يقول فقط إنه في غضون خمس سنوات، سوف يتصافح سياسيونا، وسيكون الجميع أصدقاء مرة أخرى. وكما تعلمون، ستنتشر الزهور والأكاليل وما إلى ذلك". قُلت محاولًا تلطيف الأجواء.

استدار سيرو ناحيتي وهو ممتلئ بالصدمة: "ماذا قلت للتو؟".

"لم أكن أنا الذي قلت. بل قال ذلك الكابتن هاردنبرغ للملازم ديستل.

حسنًا، أقصد بصرف النظر عن الزهو... ".

وقف سيرو بوجهي مباشرة، ولم يكن هناك أثر للفكاهة في عينيه: "من قال ماذا لمن؟".

تراجعت خطوة إلى الوراء، وأدركتُ أنني قد اتخذت النهج الخاطئ لتهدئة الموقف. أُصبت بالارتباك التام: "ماكسيميليان شيل. قالها لمارلون براندو. في فيلم الأسود الصغيرة"[30]. نظرت إلى بورنا. "بورنا؟ الأسود الصغيرة صحيح؟".

أبقى بورنا عينيه موجهة على سيروفاك. كان تعبيره باردًا. "أنا فقط أتساءل لماذا لا يكفي أن تعرف لماذا تقاتل. لديك ذلك، ولديهم أيضًا ذلك. أما أنا فلا، لذلك ربما أحسدكم جميعًا. غير أنني أعرف أن ذلك الذي يدفعني أيًّا كان هو، حتى لو كان كراهية أو انتقام، فهو يساعدني على البقاء على قيد الحياة. ولهذا، لست بحاجة إلى مباركة أحد. ليست هناك خطيئة في ذلك".

ابتسم الكاهن وألقى نظرة دمثة على بورنا، وبارك نفسه برمز الصليب بينما يقول "آمين". وقف بورنا في مقابله مباشرة. نظر إلى الكاهن، وبدا أنه أدرك شيئًا منسيًّا. ثم تمتم "آه- مين" على طريقة الأرثوذكس كما لو كان يستهزئ، وغادر الغرفة. ركض سيروفاك وراءه، وأمسكه من ذراعه، وجذبه إلى الخلف بقوة، ورد على الكلمة كما لو كانت صفعة على وجهه. "هذه آخر مرة تقوم فيها بهذا النوع من الاستفزاز في وجودي، هل تسمع؟".

30- الأسود الصغيرة The Young Lions فيلم دراما أمريكي عن الحرب العالمية الثانية صدر عام 1958 من إخراج إدوارد ديمتريك. (المترجم)

"أنت الآن، أيها القائد، تستفزني. فلتكن هذه هي المرة الأخيرة أيضًا". قام بورنا بإبعاد يد سيروفاك عن ذراعه وخرج.

قبل أن يغلق الباب مباشرة، ألقى نظرة من فوق كتفه ورفع حاجبيه. "الأسود الصغيرة. إدوارد دميتريك، عام 58".

قام الكاهن برسم علامة الصليب في الهواء، وأشبك يديه معًا، وجلس على الطاولة. جعل تشيركيز نفسه يبدو جادًّا وقال "يا سيرو. ما الفارق بين آمين أو آه-مين؟ نحن كلنا شتلات الله".

"قد تكون الشتلات من الله، ولكن الثمر من الشيطان". قال سيرو وهو يمسح جبهته بينما يجلس.

التفتَ إلى الكاهن، محاولًا تقديم تفسير، لكن الكاهن رفض. أجريا مناقشة موجزة حول الخلاف والتفاهم والتسامح. وعندما اكتفى الكاهن من الكلام، سأل عما إذا كان أي شخص يريد الاعتراف. ألقى تشيركيز بنفسه على فراشه وعقد ذراعيه خلف رأسه. "من المؤسف أنك لم تكن هنا بالأمس، أبتاه. كنت ستجد بعض الاعترافات".

نظر الكاهن بأرجاء الغرفة ولاحظ أن ذا اللحية كان مرتبكًا. فخرجا معًا. بعد ساعة، انطلقت رصاصة من الحمام. ذهبنا لهناك ورأينا مشهدًا غريبًا. كان ذو اللحية جالسًا في كشك الاستحمام، محاطًا ببركة من الدماء. كان يرتدي زيًّا جديدًا وحذاءً مصقولًا. كان وجهه لا يشوبه شائبة كما كان دائمًا، بشعر ممشط ولحية مشذبة بدقة، بينما كان نصف رأسه في الخلف مفقودًا. التقينا لاحقًا برجال مكافحة الإرهاب من وحدته

السابقة. قالوا إنه تقدم بطلب لنقله لمكان آخر لأنه لم يعد يحتمل. أخبرته زوجته أنها تريد الطلاق. لقد صدمته بذلك في المرة الأولى التي عاد فيها إلى المنزل في إجازة، ولم يتعافَ من الصدمة. لقد كان يهيم بها حبًّا لدرجة أنه لم ينظر أبدًا من قبل إلى أي نساء أخريات. كانت هي كل حياته، وسبب وجوده. لقد أغدق عليها هذا النوع من الإخلاص الذي يحلم به الأزواج أكثر مما يحصلون عليه في الواقع. وعندما رفضته، بدأ في التحديق في أي شيء لفترات طويلة من الزمن. تجنب الطعام، حتى أنه رفض الماء. قال رفاقه إنه كان يرقد ووجهه مدفون في يديه لأيام متتالية، يتلوى في عذاب صامت. معظمهم لم يعرفوا حتى ما خطبه، لكن أولئك الذين عرفوا قاموا بمواساته وإخباره أن الوقت يشفي كل الجروح. قَبِل كلماتهم بامتنان. بدا وكأنه يفهم أن الرجال لا يعطونه مجرد كلمات مبتذلة. لقد فهم أنهم تكلفوا عناء التحدث إليه لأنهم مهتمون. لم يشك في ذلك. لكنه شك فقط في تأكيداتهم بأنه في يوم من الأيام سيكون على ما يرام. ربما كان يستطيع أن يفهم هذا أيضًا، لكنه كان يعاني من ألم شديد لدرجة أنه لم يكن له أي فائدة بالنسبة له. فبالنسبة له، كان "الغد" يُماثل "بعد ألف سنة".

في النهاية تقدم بطلب لنقله إلى وحدتنا لأنه سمع أن لدينا أكبر عدد من الضحايا. لكن معاناته كانت شديدة لدرجة أنه لم يستطع الانتظار حتى يتم إرساله في مهمة. جعلني هذا أشعر بالامتنان بشكل غريب له. إذ ربما إذا كنا قد خرجنا معًا، كان سيتصرف بإهمال ويعرض حياة شخص آخر للخطر. إذا كان قد اتخذ قراره، فقد اختار على الأقل طريقة جيدة للرحيل. وعلى الرغم من أنني لم أعطِه فرصة للتعرف بينما كان يمكنني ذلك، فقد شعرت لاحقًا أنني عرفته أفضل من أي شخص آخر.

فقد كانت قصته بالتأكيد آخر قصة حب رومانسية نشهدها، وقد رواها دون أي كلمات. عندما أفكر فيه اليوم، أفكر في ما ينطوي عليه الضغط على الزناد. إذ لا يتطلب قرار إنهاء حياة شخص سوى دفعة من الإصبع، ومع ذلك فهو قرار يغير العالم. إنه مثل دفع قطعة الدومينو والبدء في تسلسل لا رجوع فيه، وقد فعل ذو اللحية ذلك بحياة الأشخاص الذين كانوا قريبين منه. بعد وقت قصير من وفاته، تعلمت أكثر مما كنت أتمنى كيف تعمل هذه الأشياء.

في وقت لاحق، بعد نهاية الحرب، التقيت زوجته. لقد تأثرت بشدة بوفاته. هذا ما كنت أومن به. إذ لا أعتقد أن أي شخص سيجد من السهل اكتشاف أنه كان سبب عيش شخص آخر وأنه قد سلبه هذا السبب عن غير قصد. قدمت نفسها على أنها أرملة بطل حرب قُتل أثناء القتال. الخطاب الذي ألقته لي، المليء بنبرة الضحية، لم يسلم من الكراهية الشوفينية لكل شيء ليس لنا. كان مقنعًا لدرجة أنها ربما صدقته بنفسها. ومع ذلك، فإن الدعم الذي حصلت عليه من الدولة، جنبًا إلى جنب مع شقة مجانية، ومعاش تقاعدي كبير، وخصم ضريبي على سيارتها، كان -على ما أعتقد- يريحها بشكل لائق. لم تتنازل أبدًا عن أي من هذه الامتيازات لصالح والدي زوجها المتوفى. بينما لم يتغلبوا هم أبدًا على فقدان ابنهم الوحيد. ماتوا بعده بسنوات قليلة، من الحزن، كما يحب كبار السن أن يقولوا. إذا كان الحزن سببًا للوفاة يمكن وضعه في السجلات الطبية، فسيتم ختمه بالكامل على ملف عائلة نيز.

ماركو وماركو

على بعد نحو عشرة كيلومترات أعلى المنشرة على الخريطة، كانت هناك بلدة صغيرة تقع على الخط الفاصل النهائي. وبسبب نزوة من القدر، مؤذية لدرجة غير ممكنة، كان يمر الخط وسط روضة للأطفال في البلدة. كانت البلدة تدين بمعظم الحركة فيها قبل الحرب لروضة الأطفال، والتي كانت المؤسسة الوحيدة من نوعها في المنطقة. كانت هي المكان الذي يُرسل إليه الآباء أطفالهم من جميع القرى المحيطة. لكن بمجرد أن بدأ القتال وهرب الناس، دخلت البلدة في الوضع الغريب الحالي، لدرجة أن الجنود المتمركزين فيها أطلقوا عليها الاسم المستعار "برلين الصغيرة". على جانب من البلدة كان هناك مبنى سكني يأوي جنودهم. بينما الجانب الآخر من البلدة كان يأوي قواتنا. في المنتصف كانت هناك حديقة على شكل دائرة، وفي وسط الدائرة كان هناك مبنى هش بجدران ذات ألوان زاهية. كان المبنى فارغًا، مما أضفى لمسة من الإنصاف على تلك الفوضى بأكملها. فالجدران التي كانت تردد مؤخرًا صدى ضوضاء أطفال الجميع لا تستحق الانتماء إلى أي من الطرفين المتحاربين.

كان المشهد المتكون في البلدة قد حدث بعد معارك مرهقة بكل متر من الأرض. في الوقت الحاضر يبدو أنه مأخوذ مباشرة من كتاب تاريخ عن حرب الخنادق. كان الجيشان العالقان فيه يخلوان بنفس القدر من أي مبادرة لمحاولة تحريك الخط. كان ثم هدوء غير طبيعي يحلق فوق

المكان. أخبرنا أنتوني، الذي جعل من إحدى مهامه معرفة ما يحدث في كل مستوطنة في المنطقة، أنه لم يتم إطلاق رصاصة في البلدة خلال أسبوعين. سقطت القوات من كلا الجانبين في حالة خمول. وبينما انتظر قادتهم الميدانيون أوامر من الأعلى، غير مستعدين للمخاطرة بمزيد من الخسائر من تلقاء أنفسهم، بدا الجميع راضين تمامًا عن البقاء في مكانهم.

في الأيام الأولى من المأزق، كانت تُطلَق من حين لآخر رصاصة تُرسَل في اتجاه الآخرين. وفي بعض الأحيان، كانت تتطاير قنبلة يدوية فوق سطح روضة الأطفال وتنفجر في الحديقة. في الصمت المدوي الذي كان يعقب ذلك، كان يشعر الرجال من كلا الجانبين بالعبء وعدم الراحة؛ لأن العديد منهم يعرفون شخصًا ما على الأقل على الجانب الآخر. إذ كان بعضهم زملاء عمل سابقين. بينما اعتاد آخرون على الاجتماع في معارض المقاطعة أو التسكع في نفس الحانات. عرف ماركو وماركو بعضهما بعضًا لأن أطفالهما كانوا يذهبون إلى نفس روضة الأطفال؛ تلك الروضة التي أصبحت فارغة الآن في وسط المدينة المقسمة. كان الأطفال بنفس العمر، وكذلك كان ماركو وماركو. ونظرًا لأن كلًّا منهما كان يعرف أن الآخر كان على الجانب الآخر، بدآ في إرسال الرسائل لبعضهما من فوق الحائط بالصراخ. اعتبرهما الجانبان المتحدثين الرسميين لوحدتيهما، لذلك عندما أتت فترة الظهيرة الخاملة، تجمع حول كل ماركو عدة أشخاص، وأخذوا يفكرون في بعض الإهانات البغيضة للهمس بها في أذنه حتى يتمكن من الصراخ بها إلى الجانب الآخر.

كانت المحادثات المبكرة تهدف في الغالب إلى السخرية من الآخر

والاستخفاف بكل شيء عزيز عليه. تدريجيًّا اتسع نطاق الحوار. أخذ الاثنان يناقشان حالة الطقس أو يسألان بعضهما عن صحة بعضهما. كانا ما زالا يفعلان ذلك بحذر شديد، حتى لا يشي ذلك ببعض الضعف الذي قد يسيء الطرف الآخر استخدامه. عندما سأل ماركو عما إذا كان ماركو يشعر بالبرد، قال ماركو إنه لا يشعر بالبرد، لحسن الحظ؛ لأن كل فرد في وحدته يرتدي سترة جديدة تمامًا مصنوعة للظروف القاسية. لقد فهم ماركو هذا تمامًا؛ لأنه لم يكن يشعر بالبرد أيضًا. ففي وحدته، كانوا يرتدون زي متسلقي الجبال السويسريين، بل وأكثر من ذلك، عندما حصلوا لأول مرة على زيهم الرسمي كهدية، وجد كل منهم شوكولاتة مخبأة في الجيب. ولم يكن ماركو جائعًا أيضًا. وقد سأل عن شكل الطعام لديهم وعلم أن الجانب الآخر كان لديه شيف من فندق فينيس إيكسلسوار يطبخ لهم وعرف كيف أصبح طباخهم. كان الشيف قد ترك وظيفته في النمسا لينضم إلى وحدتهم على وجه الخصوص. لقد كان رجلًا رائعًا وطباخًا أروع. كل ما كان يصنعه كان من الدرجة الأولى، بدءًا من السلطة الروسية وصولًا إلى كوارع الخنزير مع المخلل الملفوف. ناهيك عن كعكة زاخا الشهيرة، التي كان يقدمها كل يوم بعد العشاء. حسنًا، كان بإمكان ماركو أن يرى كيف يبدو ذلك بالنسبة للبعض، لكن في جانبه كانوا يرون أنه لا يوجد طعام مثل طعام البيت. كان لديهم زوجاتهم اللائي يجلبن لهم وجبات الطعام. كانوا يحظون بوجبة مشوية جيدًا على الطراز القديم للغداء، كل يوم. أما بالنسبة للوجبة الخفيفة بعد الظهر، فكانت تتمثل في لحم الخنزير المقدد والجبن المحلي المنقوع بالزيت، وليس هذا كل شيء بعد، فعليهم ترك مكان لتناول العشاء. على الرغم من أن كلًّا من ماركو وماركو وجميع

زملائهم من المقاتلين كانوا يعرفون أن كل كلمة كانت محض كذب، لم يكن لدى أي شخص الرغبة في مقاطعة ذكر تلك القوائم الخيالية. لقد كانوا يتناولون أكثر غداء متواضع ممكن، ثم كان ماركو وماركو يزحفان إلى الحائط ويواصلان محادثتهما الممتعة بشكل متزايد، والتي وجدها بقية الجنود مريحة للغاية لدرجة أن البعض نسي تعمير سلاحه بالرصاص أثناء الحراسة.

وإذا بدافع الملل المطلق، أُطلقت رصاصة على الجانب الآخر، فإن ماركو كان يرد بشتم زميله وتوبيخه بشدة. كلاهما كان يشعر بالقلق من أن الآخر قد يتعرض للإهانة ويقطع العلاقات الدبلوماسية. لكن بطريقة أو بأخرى، كانت تعود الأمور إلى طبيعتها، وتُستأنف المحادثات كما كانت من قبل. كان ماركو التابع لنا يتفاخر بأن زوجته كانت حاملًا مرة أخرى، ورد ماركو التابع لهم بأنه يجب أن يسمي الطفل ماركو إذا كان صبيًّا، ليس تيمنًا باسم والده فقط، ولكن به هو أيضًا. ثم شرعا في السؤال عن زوجاتهما وأطفالهما بشكل عام؛ ما الذي فعلاه في الوطن، وما إذا كانت مخزونات الطعام ستدوم طوال الشتاء، وما إذا كان كل منهما قد خطط -عندما تنتهي الحرب- لإصلاح السقف أو تركيب التدفئة المركزية.

بعد أسبوعين من عدم وجود شيء يعكر صفو السلام سوى صراخ ماركو، ثمل أحد جنودهم وأطلق رشقة طويلة من الرصاص على جانبنا. كانت الطلقات تنطلق باتجاه الطريق الذي يسلكه ماركو تمامًا بينما كان يقترب من المكان الذي يجلس فيه أثناء محادثته. كان بإمكاننا سماع ماركو التابع لهم وهو يصيح "ما مشكلتك بحق الجحيم؟ سوف تصيب شخصًا ما!" لكن الطلقة التالية أصابت بالفعل ماركو، فسقط

على الأرض، وقد أصيب في ساقيه.

في الفوضى العامة التي اندلعت في أعقاب ذلك، لم يعرف أحد ما كان يحدث، لكن الجميع أطلقوا النار بكامل طاقتهم. كان دوي الرصاص يُسمع في جميع الاتجاهات، مما أدى إلى كسر النوافذ وتهشيم جدران المبنى. جر ماركو، رغم كونه مصابًا، نفسه إلى أقرب مقعد في الحديقة واستلقى بأسفله. عندما هدأ إطلاق النار، حاول الخروج، لكن كان هناك قناص يراقبه، واخترقت رصاصة نعل حذائه. هرع رجاله لمساعدته. لكن القناص كان يمنعهم بسهولة من التدخل. خرج الوضع عن السيطرة مرة أخرى. كان جنودهم ينشدون أغاني المعارك، معتمدين على تفوقهم اللحظي. وعندما حل المساء وكان ماركو لا يزال يشعر بالبرد وينزف تحت مقعد الحديقة، أدرك الرجال من وحدته أن الوقت قد حان لطلب المساعدة الخارجية.

***

قال سيروفاك وهو يزم شفتيه رافضًا: "لن أرسل الثلاثي". أشار بإصبعه نحوي. "ستقود الفريق هذه المرة. خذ تشيركيز، وسبيدي، وبورنا. خذ أنتوني معك أيضًا".

"لماذا؟" قال سبيدي، الذي لا يفوت فرصته للتبجح والتوقح. "لا يوجد أي تماثيل هناك، أليس كذلك؟".

"أنتوني يعرف المكان أكثر من أي شخص آخر. سيكون مفيدًا لكم".

"ما هو الوضع؟" سألته.

تنهد سيروفاك وهو يمسد شاربه: "هناك قناص يُبقي أحد جنودنا

محاصرًا. لا يستطيع الخروج، ولا أحد يستطيع الوصول إليه. كل من يحاول الاقتراب منه يصاب برصاصة أسفل قدميه".

"حتى الآن في هذا الوقت؟".

"اللقيط لديه جهاز للرؤية الليلية. لسوء حظنا اللعين".

"هل رجلنا مُصاب؟" سأل بورنا.

"لقد أصيب بطلقة في ساقيه. سيتعين عليكم أن تتصرفوا بسرعة. إذا بقي هناك بضع ساعات أخرى، فسوف يصاب بالغرغرينا. لكن عليكم أن تكونوا حذرين للغاية. هناك على الأرجح المزيد منهم يتناوبون لمراقبته".

تدخل سبيدي: "هذا جيد، إذًا. سنرسل بورنا ليشتت انتباههم. يمكنه تناول بعض المشروبات مع الرجال وقتلهم جميعًا بمفتاح المأكولات المعلبة".

قال تشيركيز بتذمر: "إنهم ليسوا رجالًا يا سبيدي. إنهم رفاق أو زملاء. أو أيًّا كان ما يفضلون أن يطلقونه على أنفسهم".

"بربك! ألا يمكنك أن تدرك متى يكون من غير المقبول أن تمزح؟".

"أنا آسف، سيرو". أبدى سبيدي ندمه سريعًا. "أنا أشعر بقليل من المرح. نفدت السجائر منا الليلة الماضية، لذلك اضطررت لتدخين هذا الشاي الهندي".

"اغرب عن وجهي! هيا، قم بالاستعداد وتجهيز نفسك إلى أن ينتهي الكبار من التحدث!".

غادر سبيدي الغرفة، وواصل سيرو شد شاربه. "يا رفاق، إنه عمل معقد. سيتوقعون منكم معجزات، لكن لا تخاطروا بأي مخاطر لا داعي لها. إذا رأيتم أنه لا يوجد شيء يمكنكم فعله، فليخبرني أحدكم عبر اتصال، وسأخبر قائدهم أن يعيدكم لأنني بحاجة إليكم هنا".

أثناء خروجنا، همست لبورنا وتشيركيز: "انتظرا ذلك. سوف ينادينا مرة أخرى".

بالفعل، قبل ثانية من الوصول إلى مقبض الباب، أخبرنا سيرو أن ننتظر. انفجرنا جميعًا ضاحكين. راقبنا سيرو بينما يزم شفتيه إلى أسفل. "ماذا مجددًا؟".

"لا شيء. لقد عرفت فقط أنك ستنادينا مجددًا. مشهد يحدث كثيرًا في الأفلام. لا شيء مهم. أكمل حديثك".

بدا سيروفاك وكأنه ليست لديه فكرة عما كنت أتحدث عنه. "بورنا، هذا أمر يخصك أنت بالتحديد".

رفع بورنا رأسه وضبط قبعته. ونظر لسيروفاك بتعبير محايد.

"لا توجد إجراءات فردية، مفهوم؟ أنت لست قائد الفريق".

قال بورنا: "عُلِم".

"عندما لا أكون هناك، يحل قائد الفريق مكاني. ستفعل ما يقوله وليس أكثر".

"عُلم".

فتح سيروفاك فمه ليقول شيئًا ولكن بدا أنه فكر مجددًا وأغلقه. لاحظ الجميع أن بورنا بدا خانعًا للغاية. كنت متأكدًا من أنه سيقول "عُلم" مرة أخرى إذا قال سيرو أكثر من ذلك، فقط ليستفزه ويغضبه. لكن سلوك بورنا كاد يقنعني بأنني كنت مخطئًا. لقد نظر إلي نظرة بريئة لدرجة أنني كدت أعتقد أنه ينوي بالفعل اتباع التعليمات والتسلسل القيادي.

***

"أنت تفكر في قتلنا جميعًا قبل أن نصل إلى هناك، أليس كذلك".

قدت السيارة دون رفع قدمي عن الدواسة. حلقت السيارة الجيب فوق الطريق الإسفلتي المتشقق. جلس أنتوني مُتصلبًا في المقعد الخلفي، وبدا قلقًا. بينما كان يمد سبيدي وتشيركيز أيديهما من عليه ليصفع كل منهما الآخر ويشدان أذني بعضهما بعضًا. ظهرت وجهتنا النهائية في الأفق سريعًا. ركض الرجال المحليون إلينا بمجرد توقفنا، ورحبوا بنا بوجوه ممتنة لكن قلقة بشكل واضح. أبلغونا بالوضع الذي لم يتغير. عندما قادونا إلى الجزء الخلفي من المبنى حيث تتمركز وحدتهم، بدأنا في تصور الأمر بالكامل ثم التخطيط.

"أنتوني، تحدث. كيف نصل إلى الحديقة دون أن يرانا القناص؟".

"لا يمكن يا رجل. لا يمكنك الوصول إلى هناك، فالقناص يراك طوال الوقت".

"لا بد أن هناك اختصارًا أو شيئًا ما يمكننا استخدامه للوصول إليه من الجانب؟".

"لا يوجد مثل هذا المكان. انظر بنفسك. البلدة مُقسمة إلى قسمين بخط

مستقيم، والقناص يُبقيها تحت المراقبة بالكامل وهو في المنتصف".

قال تشيركيز: "وربما ليس وحده".

قال بورنا: "هذا صحيح. يجب أن يكون لديه مساعد مع منظار".

"هل يمكن أن يكون هناك قناصان؟" سأل سبيدي.

"كل شيء ممكن، لكن لن يمكنك الوصول في الحالتين".

وقفنا على العشب وفكرنا في خياراتنا. لم يكن هناك الكثير.

بين بنايتنا ومقعد ماركو كان هناك ميدان صغير مراقب بواسطة القناص. إما أن نقوم بالقضاء على القناص أو إيجاد طريقة للوصول إلى ماركو دون أن يقضي علينا القناص. إذا كان قد سقط لمسافة أبعد عشرة أمتار، كنا سنحتمي في الحديقة ونصل إليه على طول الجانب الأيمن من روضة الأطفال، مستخدمين المبنى كحماية. أو كان سيعود هو بنفس الطريقة. لكنه كان في العراء، دون غطاء باستثناء المقعد، وسواء ذهبنا إليه عبر الحديقة أو مباشرة عبر الميدان، ستكون لدينا مسافة تقارب عشر خطوات مكشوفة. كانت الطريقة الوحيدة للقيام بذلك بأمان هي من خلال تشكيل السلحفاة[31] تحت الدروع الواقية من الرصاص -وهي فكرة ممتازة- إلا أننا لم نشاهد سوى مثل هذه الدروع على التلفاز. كان الخيار الآخر أكثر تعقيدًا. إذ لم نكن نعرف مكان وجود القناص، وكان من الخطورة للغاية استفزازه لإطلاق النار والكشف عن عشه. كان في مكان ما في مبنى سكني خلف روضة الأطفال، لكن

31- هو تشكيل عسكري يعود للعصور القديمة يقف فيه الجنود في صفوف خلف بعضهم ملتصقين ويمدون الدروع للأمام وللأعلى لتحصين أنفسهم من جميع الاتجاهات. (المترجم)

المبنى مكون من خمسة طوابق وأربعة مداخل، وقد يكون مختبئًا خلف أي نافذة أو حفرة في الحائط. بالإضافة إلى أننا لم نكن نعرف حتى ما إذا كان وحده أم أن هناك من يغطيه.

"ما هذا المبنى الصناعي المقابل لروضة الأطفال؟".

نظرنا في الاتجاه الذي أشار إليه بورنا. حدق أنتوني كأنه يصوب عينيه نحو هدف. "هذا هو مصنع الأسمنت. انقسمت المدينة بهذه الطريقة. لديهم المبنى السكني الكبير، ولدينا مصنع الأسمنت. حظ مروع".

أخرج بورنا منظاره ونظر إلى المصنع المهجور برافعاته وأكوام الرمل بداخله. "منذ متى توقف عن العمل؟".

"لا أعلم. يمكننا أن نسأل الناس المحليين. سأذهب لفعل شيء ما. أراكم لاحقًا".

اختفى أنتوني واقتربنا من مصنع الأسمنت مع عدد من الرجال المحليين. أحضر شخص ما أحد سكان المدينة المسنين الذي كان يعمل رئيس عمال في المصنع. أخذه بورنا جانبًا وتحدث معه. أشار الرجل إلى أجزاء مختلفة من المصنع، وقدم إجابات مُفصلة لكل ما سأل عليه بورنا.

قال سبيدي: "أعرف ما ينوي فعله. سيطلب منا صنع قوالب لصب الأسمنت فيها، ثم سنذهب إلى الحديقة مرتدين بدلات إسمنتية".

قال تشيركيز: "لا، ليس الأمر كذلك. سنقوم بوضع الأسمنت في زجاجة من البراندي، ونأخذها إليهم كهدية، وننتظر حتى يتماسك في بطونهم".

قلت: "ربما يجب أن نختبره عليكما بملء أفواهكما بنصف لتر لكل واحد".

عاد بورنا وقاطعنا. "هذا ما سنقوم به. أنتم الثلاثة سوف تنتظرون خلف ذلك المبنى، وعندما أقوم بإرسال إشارة لاسلكية إليكم، ستركضون إلى المقعد وتحضرون رجلنا".

"أوه، هذا كل شيء؟" تسللت نبرة اندهاشية إلى صوت سبيدي. "أعني، لماذا الانتظار؟ يمكننا فقط الركض الآن. وكلما ذهبنا مبكرًا، سنعود أسرع".

قال تشيركيز: "توقف عن الصياح يا سبيدي. دعونا نسمع ما سيقوله".

"سيكون جميع من في الوحدة العسكرية المحلية على استعداد لحمايتكم. عندما أقوم بإرسال إشارة لهم، سيبدؤون في إطلاق النار فوق سطح روضة الأطفال، ولن يتوقفوا حتى تعودوا".

"أوه، حسنًا، في هذه الحالة، لا أرى أي مشكلة". نزع سبيدي قبعته وصفعها في راحة يده، مثيرًا بعض الشكوك.

خرج أنتوني من مكان ما وركض إلينا لاهثًا: "مهلًا! هل يعرف أحدكم ماركو كوفاتشيفيتش؟".

"اللعنة عليك يا رجل". جفلتُ من شدة انفعاله. "ماركو كوفاتشيفيتش من؟".

"ماركو كوفاتشيفيتش. هل يعرف أحدكم الاسم؟ من هو؟".

تقدم أحد الرجال المحليين إلى الأمام، وهو ينظر من ورائي. "ماركو

كوفاتشيفيتش؟ إنه الرجل الذي أنت موجود بسببه هنا. إنه الرجل الذي يحاصره القناص في الحديقة".

نظرنا إلى أنتوني في حيرة، الذي بدوره بدا أكثر حيرة. لكنه رفض الإجابة بينما يغمغم "ليس ماركو كوفاتشيفيتش ذاك!".

نظرنا لبعضنا. قال أحد الرجال المحليين: "هناك ماركو على الجانب الآخر. أعتقد أنه قد يكون كوفاتشيفيتش أيضًا. إنه اسم عائلة شائع هنا. ربما يقصده؟".

طمأن سبيدي السكان المحليين: "لا عليكم، أنتوني يتغابى".

قال تشيركيز بلا أي علاقة لما نقوله: "أن تكون قضيبًا أفضل من أن يكون لديك قضيب في مؤخرتك".(32)

بينما شكرنا أنتوني وغادر، أخذ تشيركيز وسبيدي بيد بعضهما وبدآ في الغناء "من الأفضل أن تكون تكون تكون تكون، نعم نعم!" تبادل الرجال المحليون النظرات. كان يمكنني أن أتخيل رأيهم فينا.

أنهى بورنا العرض. وضع يده على كتف رجل المدينة المسن وخاطبنا. "اسمعوا يا رفاق. وأنا والمدير، سنذهب داخل المصنع. أولئك الذين جاؤوا معي، استعدوا. بالنسبة لأي شخص آخر، اتخذ موقعك بأسلحتك وكن على أهبة الاستعداد. قم بتشغيل أجهزة اللاسلكي الخاص بك واضبطه على تردد 10.8".

قام الجميع بنزع أجهزة الراديو اللاسلكية الخاصة بهم من أحزمتهم

32- من الممكن أن تشير كلمة Dick في الإنجليزية إلى الغباء أو إلى القضيب الذكري. (المترجم)

وشرعوا في ضبط التردد. وبينما كانت تحدث الأجهزة بعض الضوضاء، أخبر بورنا الرجال المحليين بخطته، ثم التفت إلينا.

"أنتم الثلاثة، عندما أقول: اذهبوا، اركضوا إلى المقعد، وأحضروا رجلنا، واحملوه إلى النصب التذكاري في الحديقة. هذا يكفي لمنحكم الحماية الأولية. ثم ستنتظرون هناك".

لم يكن واضحًا لي على الإطلاق كيفية وصولنا إلى هذا الحد، لكنني تركت ذلك جانبًا ورسمت بعض الخطوط في الثلج. "الطريقة الوحيدة التي يمكنهم من خلالها الاقتراب منا على الأرض هي الالتفاف حول هذا المنعطف. سأركض إلى الحائط وأحمي الطريق خلفه بقنابل يدوية".

أومأ بورنا بالموافقة. "أنت افعل ذلك، وسينتظر تشيركيز وسبيدي مع الرجل المصاب ويعدان إلى عشرين. في غضون ذلك، سيضرب المحليون روضة الأطفال بكل ما لديهم. بعد ذلك، ستنسحبون جميعًا معًا. سيكون الطريق خاليًا".

ذهب كل منا في طريقه. انتظرت مع تشيركيز وسبيدي خلف المبنى السكني. بدأ سبيدي يتذمر. "إذا أسعفتني الذاكرة، قال سيرو إنك أنت المسؤول عن العملية".

"نعم أنا كذلك، وليس لدي أي فكرة عما يجب أن نفعله. لذلك أعتقد أنه من الجيد أن بورنا لديه فكرة عما يجب فعله. أليس كذلك؟".

"أوه، هل حقًّا لديه فكرة؟ ربما أنا فقط الذي ما زلت لا أفهم كيف سننتزع هذا الرجل من تحت أنف القناص لمجرد أن بورنا سيعطينا إشارة".

"أنا لا أعرف أيضًا يا سبيدي، لكني أثق به".

قال تشيركيز: "أنا أثق به أيضًا".

"أنا فوضوي يا رجل". أمسك سبيدي بطية صدر السترة التي كانت تحمل الشارة السوداء مع الحرف الأبيض A "نضع ثقتنا في الأناركية والفوضى. وهذا من حسن حظنا. في غضون دقيقتين، سيمتلئ الموقف بذلك".

"وسراويلنا أيضًا يا صديقي".

"أنا أعمل بشكل أفضل تحت الضغـ...".

لم يكن سبيدي قد انتهى حتى من عبارته الشهيرة عندما انبثق ضوء ساطع للغاية من وراء ظهورنا. استدرنا لنحاول معرفة ما يجري. كان الضوء ساطعًا لدرجة أن البلدة بأكملها بدت وكأنها في منتصف يوم مشمس. نظرنا بعضنا لبعض بوجوه تملؤها الدهشة، ثم انفجرنا بالضحك. أطلق تشيركيز صرخة أصمت آذاننا. "تبًّا، لقد فعل ذلك مرة أخرى!".

جاء الضوء المتوهج في البلدة من اتجاه مصنع الأسمنت. من السياج الذي يحيط بالمصنع، من قمم الرافعات والحاويات، بعثت كشافات الإضاءة المنسية إنارة شديدة لدرجة أنها أبادت الليل تمامًا. كان الضوء ساطعًا لدرجة أنه آلم أعيننا. وبدأت أوركسترا مدوية من البنادق الآلية سيمفونية من الرشقات النارية الموجهة نحو الجانب الآخر. تردد صدى صوت بورنا عبر أجهزة اللاسلكي الخاصة بنا. "اذهبوا! اذهبوا! اذهبوا!" ركضنا بأسرع ما يمكننا. كان سبيدي يصرخ بأعلى صوته "رائع، الآن

القناص يمكنه حقًّا رؤية ما يفعله!".

وصلنا إلى مقعد ماركو في ثوانٍ. وجدناه جاثيًا تحته، متجمدًا من البرد. كانت ساقاه داكنتين بفعل الدماء المتجمدة. لم نضيع الوقت أنا وتشيركيز وبدأنا في إمساكه من تحت الإبط، بينما أمسك سبيدي بحزامه. بمجرد أن تمكنا منه، ركضنا إلى الحديقة، ونحن نصف نحمله، ونصف نجره. اختبأنا خلف النصب في اللحظة التي انطفأت فيها الأضواء الكاشفة. كانت لا تزال طلقات البنادق الطويلة تمزق السماء فوقنا. "لماذا بحق الجحيم أطفؤوا الأنوار الآن؟" صرخ سبيدي.

"لقد أعمى القناص!" قال تشيركيز، الذي فهم مقصد بورنا تمامًا: "كان على القناص أن يطفئ جهاز الرؤية الليلية الخاص به، ولكن فقط عندما بدأ بالاعتماد على الأضواء الكاشفة، أفسد بورنا الأمر عليه مرة أخرى! يكفينا بضع ثوان للفرار، بينما سيظل القناص مشدوهًا حتى الأسبوع المقبل!".

"عد إلى عشرين!" صرخت من فوق كتفي، وركضت إلى جدار روضة الأطفال.

بينما أنا أركض، نزعت قنبلتين يدويتين من حزامي وألقيتهما على الطريق. بعد الانفجار الأول سمعت صرخات ألم وذعر. وانفجرت القنبلة الثانية دون رد فعل فوري. بعد ذلك بوقت قصير سمعت قعقعة الأحذية وهي تجري في كل اتجاه. كانوا يحاولون التسلل إلينا على طول جدار روضة الأطفال. قمت بتنشيط آخر قنبلة يدوية لدي وأرسلتها على الطريق مثل كرة البولينج، ثم استدرت إلى سبيدي وتشيركيز.

"تشيركيز! ساعدني!".

كان بجانبي في ثوان. بينما كنت أمطر الطريق حول المنعطف بنيران البندقية، ألقى أولاً إحدى قنابله اليدوية، ثم تبعها بأخرى. كان سبيدي جاثيًا على الأرض ممسكًا بماركو الجريح في حضنه. كان يقوم بالعد بصوت عال حتى نسمعه.

"اثنا عشر! أحد عشر! عشرة! تسعة! ثمانية!".

"عندما يصل لواحد، اركض إليه!" قال تشيركيز. "خذ ماركو، ودعنا نخرج من هنا!".

أومأت وواصلت إطلاق النار من خلف جدار روضة الأطفال. تناوب تشيركيز معي. كنت عندما أتوقف، يطلق هو النار. كنا مختبئين عن أنظار القناص وقادرين على إرسال سيل من الرصاص والقنابل اليدوية في طريقهم لدرجة أنهم لم يتمكنوا حتى من رفع رؤوسهم. توجهنا إلى سبيدي الذي كان لا يزال يصرخ بالأرقام.

"خمسة! أربعة! ثلاثة! اثنان! واحد!".

ذابت نهاية العد التنازلي في حريق من الأضواء الكاشفة. قام بورنا بتوجيه شعاع من الضوء إلى الحديقة. أصبح طريق انسحابنا مضاءً ببراعة. كنا لا نزال نطلق رشقات نارية. آخر ما رأيناه من سبيدي كان ظله وهو يحمل رفيقه البالغ من العمر ضعف عمره بين ذراعيه. كان وهو مضاء من الخلف في مواجهة السماء، يبدو وكأنه تمثال بيتتا[33]

33- تمثال بيتتا Pietà هو أحد الأعمال الشهيرة للفنان مايكل أنجلو في كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان والذي يمثل تجسيدًا للسيد المسيح وهو في حضن أمه مريم العذراء بعد إنزاله من على الصليب. (المترجم)

الشهير. ثم انفجرت قنبلة يدوية أصابت المكان الذي كان يقف فيه مع ماركو بالضبط.

عانقت تشيركيز من الخلف، وسحبته إلى الوراء. صرخ وأطلق رشقات نارية عشوائية في الهواء. أصبح يعرج كما لو أن ساقيه مصنوعتان من الهلام. كان فمه مفتوحًا عن آخره، وأطلق صرخة طويلة من الألم والذهول. جررته معي إلى الوراء. لم أصدق أن سبيدي مات. ليس بهذه الطريقة، ليس الآن بعد أن كدنا ننجح. الكثير من التخطيط، الكثير من المخاطرة، كل ذلك بات هباءً منثورًا. لقد سلبت قنبلة طائشة كل شيء منا. كنت أقوم بسحب تشيركيز، الذي كان لا يزال يتعثر بلا قوة ويطلق النار في الهواء، بينما أبكي. كان عقلي في حالة من الفوضى. حاولت التخلص من السؤال الذي كان يلح علي -من أين أتت تلك القنبلة؟- والتركيز على انسحابنا. لكم يكن من المفترض أن يتسلل العدو إلينا، ليس في وجود النيران المتواصلة التي أطلقناها في طريقهم، ولكن من الواضح أنهم فعلوا ذلك. احتجزت تشيركيز طوال الوقت، محاولًا منعه من إصابة نفسه. تحولت المهمة إلى كارثة. تحولت الخطة المثالية إلى كارثة. لقد خاطرنا بحياتنا، مع إعطاء الجميع أملًا زائفًا، وانتهى بنا الأمر بخسارة ليس رجلًا واحدًا فقط بل اثنين. لم يكن يمكن للأمور أن تزداد سوءًا. أو بالأحرى، كان يمكنها، وبطريقة ما، حدث ذلك، لكنني كنت غير قادر على تخيل ذلك حينها من حسن حظي.

بعد ساعة، كنا نقود السيارة إلى المدرسة. جلس تشيركيز في الخلف. كان سبيدي ملفوفًا بقماش بال ورأسه يترنح من تعرجات الطريق على فخذ تشيركيز. كان أنتوني يمسكه، لكن تشيركيز لم يستطع التوقف عن البكاء. كانت السيارة مليئة برائحة كريهة. خطر ببالي أن سبيدي

كانت رائحته أسوأ من رائحة الخروف الذي أعده أنتوني لأميدزا. لم أكن أعرف هل أضحك أم أبكي. كان تدفق الأفكار غير اللائقة آلية دفاعية. كان بصري غائمًا، لكنني لم أستطع البكاء. شعرت بالسوء لأنني أردت أن أظهر أنني حزين بقدر حزن تشيركيز، لكن لا بد أن تلك الليلة قد دمرت قنواتي الدمعية إلى الأبد. لا شيء جديد يمكن أن يجعلني أبكي مرة أخرى، على الرغم من أنني كنت أبكي كلما تذكرت تلك الليلة. يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تعتاد على البكاء على الذكريات فقط. جلس بورنا بجانبي على المقعد الأمامي. خلال رحلتنا الكاملة من برلين الصغيرة إلى المدرسة، سألني فقط: "هل يمكنك القيادة؟" قبضت على عجلة القيادة، وحدقت إلى الأمام في الظلام، وقمت بالقيادة.

تشيركيز

كنت أحدق في أشكال الدخان الخارجة من فم تشيركيز. بينما كان يدفن سيروفاك وجهه في يديه مع وضع مرفقيه على المنضدة. وكان بورنا ينظف مسدسه. كنا وحدنا في الفصل. كان الجميع بالخارج بخدمتهم.

نظر سيرو إلى تشيركيز وتنهد. "امسح هذا الدم يا تشيركيز".

كانت الشارة السوداء ذات حرفA الأبيض، والتي أصبحت مثبتة الآن على طية صدر تشيركيز، ملطخة باللون الأحمر.

رفع تشيركيز رأسه ببطء وتحدث بصعوبة: "أنا بخير. بخير".

كانت الشارة هي الجزء الوحيد المتبقي من سبيدي الذي يمكن التعرف عليه. أخذها تشيركيز عندما كان فريق طبي يقوم بتعبئة أشلاء سبيدي الممزقة. استمر في لفها على الطاولة كما يفعل الأطفال بلعبة الدوامة أو العملة المعدنية. كان قد تجرع ما يقارب نصف زجاجة من البراندي ولم يتوقف، إذ كان من الواضح أنه يحاول أن يسكر، لكنه لم ينجح. إذا نجح البراندي في فعل أي شيء، فهو أنه جعله بدا أكثر رصانة مما كان عليه بالأمس قبل المهمة. قلب الشارة في يديه وبدأ في النحيب. بين الحين والآخر، كان يتوقف ويهمس "اللعنة يا سلطعون"، ويبدأ في البكاء مرة أخرى، ويأخذ جرعة أخرى من الزجاجة. عندما أفرغها، ألقى

بها على الموقد وخرج، مغمغمًا أنه سيعود مباشرة.

استغللنا كل ثانية من غيابه للتفكير فيما حدث في برلين الصغيرة. لكن مهما حاولنا التفكير أو تحليل الأمر، لم نتمكن من معرفة مصدر القنبلة اليدوية. كان سيرو سعيدًا لمنح بورنا إشادة كتابية لمساهمته، ولكن بالنظر إلى الخسارة التي عانيناها، كان من الأفضل عدم ذكر المهمة على الإطلاق. كان سبيدي أصغر المقاتلين وأكثرهم حبًّا من الآخرين بيننا. كان في السابعة عشرة من عمره عندما هرب من المنزل لأول مرة. سافر إلى الجبهة وحاول التجنيد في أقرب وحدة، لكنهم اكتشفوا أنه لم يصل لسن الرشد وسلموه إلى الشرطة العسكرية. وضعته الشرطة العسكرية في أول وسيلة نقل عائدة، لكن سبيدي هرب مرة أخرى. استمر في العودة إلى الخطوط الأمامية حتى أحضره الرفيق السياسي إلينا ذات يوم. كان من المفترض أن نرافقه إلى المنزل مرة أخرى عندما اصطدم بتشيركيز، الذي كان جاره من نفس الشارع. بقي سبيدي معنا، وهدأ والداه قليلًا، اللذان أدركا بالفعل أنهما لن يستطيعا إيقافه، عندما سمعا أن هناك شابًّا أكبر منه من الحي يراقبه ويُبقي عينه عليه.

***

في مهمته الأولى، ذهب سبيدي مع سيرو وعدد قليل من أعضاء الشرطة العسكرية الآخرين إلى نفس الموقع العسكري الذي جلبه الرفيق السياسي منه. كان الموقع بحاجة إلى تدخل الشرطة العسكرية لأن أحد الرجال هناك كان يحتجز بقية أفراد وحدته كرهائن. من الواضح أن شقيقه قد قُتل في وقت سابق من ظهر ذلك اليوم، وعندما سمع الرجل الأخبار، دخل في حالة من الانهيار. أخطأ أحد زملائه في

الاقتراب منه بعدوانية، ورد الرجل بإمساك بندقيته، وحصن نفسه على سريره، وجعل زملائه في المهجع يصطفون بالكامل في وجه الجدار المقابل. أمضى نحو خمسين شخصًا ساعة كاملة يترجونه من أجل أن يتركهم لكن من دون جدوى. تم استدعاء الشرطة المدنية أولًا، على أمل أن يصلوا إلى الموقع بسرعة أكبر. لكن عندما رفضوا التورط في أمر عسكري، كان على سيرو ورجاله التدخل.

بينما كانوا يقفون خلف الباب نصف المفتوح للمهجع المحاصر، أعطاهم سيرو آخر تعليماته وهو يهمس. كان يطلب منهم إزالة شارة الشرطة الخاصة بهم حتى لا يستفزوا الرجل المستاء أكثر. بينما شق سبيدي طريقه عبر المجموعة وذهب مباشرة نحو الباب. كانت يداه موضوعتين في جيوب سترته السوداء التي تشبه سترات راكبي الدراجات النارية، ودخل المهجع بشكل عفوي كما لو كان يدخل حانة. مشى بجوار سرير الرجل المسلح، وتوقف في منتصف الغرفة، وبدأ يستدير في كل اتجاه. راقب سيروفاك ورجاله الموقف في رعب، وهم يستعدون للأسوأ. لكن مشهد سبيدي، الشاب ذو الخدود الملساء مع قصة شعر برتقالية زاهية، صرف انتباه الرجل المسلح تمامًا. حاول إيقاف دموعه ووجه بندقيته نحوه. أخبرنا سيرو أن سبيدي تجاهله وبدأ في النظر في أرجاء الغرفة، وهو يحدق فوق الأسرة وتحتها بتعبير لا معنى له. كان بقية الرجال في الغرفة مصدومين وتلبستهم حالة من الصمت الشديد. لم يكن أي منهم قادرًا على معرفة ما كان يفعله هذا الشاب الصغير في وسطهم. وكما لو كان سبيدي غافلًا عن الوضع الحساس من حوله، انحنى لينظر تحت أحد الأسرة وقام بالسب.

"تبًّا يا رجل! أين يمكن أن يكون؟".

تبادل الرهائن داخل المهجع نظرات حائرة. أنزل الرجل المسلح بندقيته، وهو في حيرة تامة. وكما قال رجال سيرو لاحقًا، كانت هذه هي المرة الوحيدة التي رأوا فيها سيرو يقوم بعمل رمز الصليب على نفسه أثناء مهمة. كان لا يزال سبيدي يحدق في جهات مختلفة، ويضع يديه بثقة في جيوبه. وأخيرًا توقف أمام سرير الرجل المسلح ونظر تحته.

"اللعنة يا سلطعون! ها هو!".

أنزل الرجل بندقيته في دهشة، ونظر إلى سبيدي، الذي ذهب بخفة إلى المخرج. نزل الرجل من على سريره بينما ما زال يراقب سبيدي ونظر تحت السرير ليرى سبب تلك الجلبة. لم يعثر على أي شيء، فنادى على سبيدي "يا فتى! عم تبحث؟".

أشار سبيدي إليه بيديه ليتحلى بالصبر، ثم أدخل سيروفاك والرجال.

"من هنا يا رفاق. لقد وجدته".

سار سيروفاك مترددًا، بينما يتعهد بداخله بإعطاء سبيدي ضربة قوية عندما ينتهي كل هذا. واندفع من خلفه بقية أعضاء الشرطة وهو ما أثار دهشة كل من في الغرفة. انحنى سبيدي وأشار إلى أسفل السرير. "أترى؟ ها هو يا رجل".

انحنى سيرو وباقي الرفاق في ارتباك، غير متأكدين مما يجب عليهم فعله بعد ذلك. لقد شعروا وكأنهم ممثلون مسرحيون نسوا ما يجب عليهم قوله أمام مسرح بجماهير غفيرة. فقط سبيدي وحده هو من تصرف بثقة كاملة بالنفس. "ألم أخبركم أنه يجب أن يكون في مكان

ما قريب؟".

ما أثار دهشة الجميع، أن الرجل المسلح نزل من سريره، وانحنى إلى جانبهم، وسأل بصوت خافت: "ما الذي تبحثون عنه؟".

كان سيرو وباقي الرجال يمسكون به بالفعل في تلك اللحظة، ويكبلون يديه بالأصفاد بينما كان يتلوى تحت أجسادهم الثقيلة. وعندما قاموا بسنده ليقف مستقيمًا، كان يملؤه الغضب وصرخ في وجه سبيدي: "ما الذي كنت تبحث عنه بحق الجحيم؟".

قال سبيدي: "عن طريقة لمنعك من الاستقواء على هؤلاء الرجال". وابتسم ابتسامة متفاخرة.

عندما عادوا من المهمة، تولى سيروفاك مهمة توبيخ سبيدي، وسأله من أين أتته فكرة الدخول بهذه الطريقة والمخاطرة بحياته. قال سبيدي: "أنا أعمل بشكل أفضل تحت الضغط".

***

دخل شيركيز إلى المهجع، بينما يطقطق أصابعه. جلس بجانبنا وتنهد. "لا أنتوني، لا ماريجوانا".

رمق سيرو الجميع بنظرة حانية. "يا رفاق، لا تفكروا وتلوموا أنفسكم. كل ما قلتموه لي يوضح أنكم خططتم ونفذتم مهمتكم دون خطأ".

"بلا خطأ؟" قال تشيركيز وهو يختنق بالبكاء.

"تشيركيز، أنتم فعلتم كل ما في وسعكم. لا أعرف كيف جاءت تلك القنبلة، لكن لم يعد الأمر مهمًّا حقًّا. لا بد أنه القدر. لقد تفادى سبيدي

القنبلة التي قتلت المراسلين البريطانيين عند النصب التذكاري. لا بد أن هذه القنبلة كانت تنتظره طوال الوقت".

دخل أنتوني عبر الباب. كان متجهمًا وبالكاد نظر إلينا. قفز تشيركيز واقفًا على قدميه وقد بدا وكأنه استراح أخيرًا. "أين كنت؟".

جفل أنتوني من السؤال، لكن تشيركيز كان بالفعل إلى جانبه وهمس بشيء في أذنه. رد أنتوني بسحب عبوة صغيرة من جيبه ووضعها بيد شيركيز. انضما إلينا على الطاولة، وبدأ تشيركيز على الفور في تفتيت التبغ وتحضير سيجارة ماريجوانا.

قال سيروفاك وهو لا يزال يحاول العثور كلمات مناسبة للعزاء: "على الأقل لم يتألم سبيدي. لقد مات في ومضة. لا يمكنك أن تتمنى طريقة أفضل من هذه للموت في ساحة المعركة. الرجل الآخر، ما هو اسمه؟ ماركو؟ رقد المسكين جريحًا لساعات، وعندما أعطيتموه أملًا، مات".

"ماركو كوفاتشيفيتش. كان هذا اسمه. على الأقل هذا ما قاله لنا رجاله".

"ماركو كوفاتشيفيتش؟" اندهش سيروفاك. "يا إلهي، يا للمفارقة!".

أثار كلامه فضولنا. "أي مفارقة؟" سأله بورنا.

استدار سيروفاك نحوي، ليتأكد مجددًا. "قلت ماركو كوفاتشيفيتش، أليس كذلك؟ هل أنت متأكد من أن هذا كان اسمه؟".

"متأكد تمامًا. قال ذلك أحد رجاله".

"حسنًا، ها هي المفارقة". تابع سيروفاك حديثه. "جندي يدعى

ماركو كوفاتشيفيتش يموت أمام روضة الأطفال المسماة ماركو كو فا تشيفيتش " .

قمنا بتمرير السيجارة بيننا في صمت. لم يأخذها أنتوني، لكنه كان يتجرع بكثرة من زجاجة البراندي. عندما قامت السيجارة بدورة كاملة ووصلت إلى تشيركيز مرة أخرى، استنشق عدة مرات في تتابع سريع. بدا أنه يفكر في شيء ما، وحدق في الفراغ، ثم أخذ منها أنفاسًا قليلة أخرى. مددت يدي إليه، وحثثته على تمرير السيجارة، لكنه لم يفعل شيئًا سوى أن حدق بي، واستنشق مرة أخرى. أخيرًا سلم لي السيجارة، وهو يحدق في الدخان.

"ماذا قلت عن القدر يا سيرو؟".

"إنه لا يمكن الهروب منه يا تشيركيز. هذا ما يجعله قدرًا".

"نعم. لا يمكن الهروب منه. لكنك قلت إن سبيدي نجا من الموت حين أصيب البريطانيان؟".

"نعم. كان شيمي معه في ذلك الوقت".

قلت: "وأنا كذلك".

قال تشيركيز: "ذلك لا يهم". بدا وكأنه يتلمس بعض الترتيب المعين للحقائق. "قلت إنه نجا من الموت بالقرب من النصب، وهذا جعلني أفكر...".

فجأة، انتزع الزجاجة من يد أنتوني وأخذ جرعة كبيرة. "أنتوني!".

ارتجف أنتوني، لكن تشيركيز حدق فقط في الأمام: "لماذا سألتنا عن

ماركو كوفاتشيفيتش؟".

ارتبك أنتوني. بدأ في تكوين رده، محاولاً ألا يبدو رده غير متماسك: "حسنًا، كنت أسمع الاسم كثيرًا، وسألت من هو ذلك. كان هذا كل شيء".

"أوه، حقًّا؟" قال تشيركيز ساخرًا، ثم التفت إليه لينظر إليه في وجهه. "لم تكن هناك عندما شرح بورنا خطته. قلت إنه يجب عليك الذهاب. لقد قلت إن السبب في ذلك هو أن لديك شيئًا لتقوم به. ما الذي كنت تقوم به يا أنتوني؟".

جفل أنتوني وارتبك: "الآن، توقف عندك يا تشيركيز. ما الذي تود قوله؟ إني خائن؟ هل جُننت؟ أنا متطوع، أنا هنا منذ البداية...".

قال تشيركيز بغضب: "لا تقل لي هذا الهراء، أيها العاهر. ماذا قال سيرو للتو؟ ما هو اسم روضة الأطفال اللعينة؟".

لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عما كان يتحدث تشيركيز عنه. كان وجهه يزداد احمرارًا. نظرتُ إلى بورنا وسيروفاك. بدوا مستعدين لكبح جماحه إذا خرج عن السيطرة. كان أنتوني يتصبب عرقًا. فك الوشاح الذي كان يرتديه حول رقبته واستخدمه لمسح جبهته. "مثل الرجل الذي قُتل، أليس كذلك؟ ما المشكلة في ذلك؟".

"حسنًا، بعد الحرب، ربما يقررون إنشاء نصب تذكاري لماركو كوفاتشيفيتش الذي قُتل أمس. ما رأيك؟".

"ربما". تمتم أنتوني. "أو ربما لا؟".

"لا أعتقد ذلك يا أنتوني". وضع تشيركيز سيجارة في فمه بيد

مرتعشة. راقبناه وهو يشعلها وينفث الدخان. ”كما ترى، سيكون الناس في حيرة من أمرهم بشأن مسألة إلى من يعود النصب التذكاري. ماركو كوفاتشيفيتش، الجندي المناضل الذي مات في الحرب العالمية الثانية، أم ماركو كوفاتشيفيتش الذي توفي أمس. نفس الاسم. من السهل ارتكاب خطأ. هل كنت لترتكب هذا الخطأ، أنتوني؟“.

نهض أنتوني من على الطاولة بينما بدأ تشيركيز بالصراخ بوجهه: ”إذا كان اسم روضة الأطفال هو ماركو كوفاتشيفيتش، وكان هناك نصب تذكاري في الحديقة أمام روضة الأطفال، فسيكون نصبًا تذكاريًّا لماركو كوفاتشيفيتش اللعين! أليس هذا صحيحًا يا أنتوني؟“.

ألقى بورنا وسيرو نظرة خاطفة على بعضهما. بدا تشيركيز مجنونًا، وكان لون وجهه غير طبيعي. بدأنا نخشى أنه أصبح يفقد عقله.

استطاع بصعوبة كبح جماح نفسه، وأطبق قبضة يده. ”هل هذا سبب اختفائك يا أنتوني؟ لقد كنت تقوم بالتجسس حول روضة الأطفال لأن ذلك الجزء لم يكن يغطيه القناص. لقد رأيت النصب التذكاري والنقش المكتوب عليه ”ماركو كوفاتشيفيتش“، ولهذا السبب سألت من هو. لم تكن تسأل عن الرجل المحاصر من قبل القناص. كنت تسأل لمن يعود النصب التذكاري في الحديقة. كنت تبحث عن سبب لإزالته“.

دفع أنتوني كرسيه بعيدًا وصاح: ”أنت أصبحت مجنونًا يا تشيركيز!“.

قفزنا على أقدامنا، وكتمنا أنفاسنا. كانت هناك مواجهة من نوع ما وشيكة، لكن أفكار تشيركيز كانت تأتي بسرعة كبيرة وبشكل فوضوي بالنسبة لبقيتنا كي ندرك ونجمع القصة التي كان يحاول إيضاحها.

لقد سألت: "من هو ماركو كوفاتشيفيتش حتى تتمكن من تفجير تمثاله! لقد وضعت متفجرات تحت النصب يا أنتوني! سبيدي لم يُقتل بأي قنبلة يدوية! لقد قُتل بالديناميت الذي وضعته على التمثال، أيها الغبي اللعين!".

بدأ أنتوني يرتجف، دون أن يصدر أي صوت.

"بينما خاطرنا بجياتنا لإنقاذ حياة رجل، شننت أنت حربًا على قطعة من الجرانيت تحمل اسمًا غبيًّا!".

شعرت بالغضب يتصاعد من بطني، ويملأ صدري. فقد أنتوني رباطة جأشه تمامًا، وكان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه. حاولت أن أتحكم في نفسي وأتجنب الإهانات، لكنني أردت منه أن يفهم عواقب فعلته. "لقد قتلت الفتى بهرائك!".

لم يعِرني أحد أي اهتمام. أمسك تشيركيز بحلق أنتوني وحطم منفضة سجائر ثقيلة على رأسه. "أيها اللعين! أيها اللعين البائس يا أنتوني!".

سقط أنتوني على الأرض وسط بركة من دمائه. كان الدم يتدفق بشده من جبهته. انتحب بقوة وهو في حالة من الذهول "لم يكن من المفترض أن تكونوا هناك، لم يكن من المفترض...".

نظر سيرو إلي وإلى بورنا. كان تشيركيز يركل أنتوني، دون أن يرى حتى أين تأتي ضرباته، وهو يصرخ بشتائمه بأعلى صوته.

"آمل أن يبنوا لك نصبًا تذكاريًّا في نيو أورلينز، يا ابن العاهرة! وآمل أن يظل قائمًا إلى الأبد، حتى يعرف الجميع كم كنت جالبًا للخزي والعار!".

كنا نسمع صوت عظام تتكسر تحت حذاء تشيركيز الثقيل. كان يضرب أنتوني بأي شيء يمكن أن يمسكه؛ فكان يكسر الكراسي والزجاجات والحطب على ظهره. شاهدنا الأمر لبضع لحظات، ثم غادرنا الغرفة بصمت. كان من الممكن سماع صوت تشيركيز وصراخ أنتوني بالخارج. اندفع شابان من المهجع المجاور إلى الردهة، خائفين من أصوات الارتطام والصراخ المتدفقة عبر الحائط.

"أنت!" أشار سيرو بإصبعه إلى الجندي الأول الذي وصل إلينا. "قف حراسة عند هذا الباب، ولا تدع أي شخص يدخل. هذا أمر".

عندما عدنا بعد نصف ساعة، وجدنا حشدًا صغيرًا قد تجمع أمام باب المهجع. لم يسمح الحارس لأحد بالمرور. أمر سيروفاك الجميع بالانصراف، ثم دخلنا الغرفة. في الداخل، رأينا مشهدًا لم يكن من المحتمل أن ينساه أي منا أبدًا. على الأرض في منتصف الغرفة، وجدنا أنتوني مُستلقيًا فاقدًا للوعي، عاريًا من نصفه الأعلى، ووجهه منتفخ لدرجة تجعل من الصعب التعرف عليه، وجسده مرقط بكدمات دامية. كانت ذراعاه ممددتين بزوايا غير طبيعية، ومن الواضح أن الكوعين مكسوران. كانت الأرض من حوله مغطاة بآثار جزمة ملطخة بالدماء، وبجواره وضع سكين ملطخ بالدماء. كان صدره بالكامل منقوشًا بحرف A أحمر كبير. وكانت تتدلى زجاجة مكسورة من فمه الذي أصبح بلا أسنان. وقف تشيركيز أمامه منفرج الساقين، موجهًا تيارًا من البول إليه كما لو كان مرحاضًا. كان خداه الملطخان بالدماء الداكنة تتدفق عليهما الدموع.

الوشم

كان تشيركيز مستلقيًا على سرير المستشفى، مقيدًا بأحزمة جلدية حول معصميه وكاحليه وحزام واحد عريض على بطنه. بدا وجهه كما لو كان ينصت لنا باهتمام، لكنه في الحقيقة كان مخدرًا تمامًا. وقفنا ننظر إليه أنا وبورنا بينما كان الطبيب يراقبنا، ووقف سيروفاك جانبًا، وهو يلعب بشاربه. من الواضح أن بورنا ظل في ذاكرة الطبيب منذ حادثة التطعيم. الآن بعد أن أصبحنا على أراضيه، بدا أنه عازم على اتخاذ موقف أكثر سلطة. اقترب منا وذراعاه معقودتان، ويضغط بإحداهما على ذراع نظارته التي كانت بيده.

"حسنًا، أيها السادة، حان الوقت لإنهاء زيارتكم".

رمقته بنظرة جانبية.

قال بورنا بهدوء: "نحن لا لسنا في زيارة يا دكتور. نحن هنا لجلبه".

"أنصحكم بشدة أن تتركوه هنا. إنه يحصل على أفضل رعاية ممكنة".

قلت: "أفضل رعاية ممكنة هي نصف زجاجة براندي محلي الصنع وحزمة من الماريجوانا".

التفت الطبيب إلى سيروفاك: "أيها القائد، بالتأكيد أنتم لن تأخذوه معكم؟".

”سنأخذه يا دكتور. لقد حصل على قسط جيد من الراحة. سيكون جيدًا تمامًا غدًا. لكن قل لي، كيف حال الزميل الآخر؟“.

ارتدى الطبيب نظارته ووضع يديه في جيوب معطفه الأبيض. بدا مضطربًا: ”لقد أصيب بإصابات بالغة. كيف قلت قد حدث ذلك؟“.

سَعل سيروفاك: ”لم أقل شيئًا، لكن يمكنني أن أخبرك الآن. تعرض الرفاق لكمين عندما كانوا عائدين من برلين الصغيرة. تمكنوا من الفرار، ولكن ليس قبل أن يبقيهم العدو أسرى طوال الليل. ذلك الرجل هو من تلقى أسوأ معاملة من العدو“.

أصبح الطبيب غاضبًا بشدة: ”لكن هذا غير مقبول! ما فعلوه به هو جريمة حرب!“.

”في الحرب، لا يلعب الجميع وفقًا للقواعد يا دكتور“.

”يا إلهي، مظهره مروع. لا بد أنهم عذبوه طوال الليل“.

”ماذا يمكنني أن أخبرك يا دكتور؟ نحن في حرب مع حيوانات. لقد رأينا ما هو أسوأ“.

”نعم أعلم. لكنني رأيت جرحى، وليس شخصًا مضروبًا بالهراوات بهذه الطريقة“.

حك سيرو رقبته، ثم أشار إلى سرير تشيركيز، وقام بحركة دائرية غامضة. ”الآن، أيها الطبيب، على أي حال...“.

”هل تريد مني أن أفكه؟ هل ما زلتم مُصرين على أن تأخذوه معكم؟“.

"نعم سنأخذه".

"حسنًا، ولكن عليك التوقيع على..".

"بربك" قال سيروفاك وهو يحاول مساومته. "هل وقعت على أي شيء عندما استلمته منا؟".

"حسنًا، لا، لكننا لم نصل إلى الرسميات بعد. قصدنا أن نفعل ذلك في النهاية".

"لن تفعلوا ذلك على الإطلاق. فكه يا دكتور".

أوصلنا الطبيب إلى السيارة بينما كنا نحمل تشيركيز مثل كيس أو طرد سنوصله لأحدهم. بمجرد أن ركبنا السيارة، وضع الطبيب يده على السقف وانحنى نحو النافذة حتى يتمكن من رؤيتنا. "من فضلكم، ضعوا في اعتباركم..".

قال بورنا وهو يخرج كوعه من النافذة: "لقد قمنا بذلك بالفعل".

تراجع الطبيب وعبس. ضغطت على دواسة البنزين ولوحت له. "وداعًا، ممرضة ميلدريد".

غادرنا ساحة المستشفى بأقصى سرعة، وانعطفنا بشكل حاد للطريق الرئيس. كان تشيركيز نائمًا في المقعد الخلفي، ورأسه على فخذ بورنا. جلس سيرو بجانبي في المقعد الأمامي وأمسك بالمقبض. نظر إليّ في عجب وضحك. "ممرضة ميلدريد؟".

قال بورنا من الخلف: "الممرضة ميلدريد راتشد. الممثلة لويز فليتشر".

أضفت: فيلم "طار أحدهم فوق عش الوقواق".[34]

"ميلوش فورمان، عام 75". قال برورنا مُضيفًا اللمسة الأخيرة.

تلوى سيرو في مقعده. "اللعنة عليكم أنتم وميلوش الخاص بكم هذا، خمسة وسبعين مرة. أيها المجانين".

ضحكتُ بصوت عال. "بربك يا سيرو. أنت بالتحديد من بين جميع الأشخاص من تعرف كيفية التعامل مع نوباتنا. هل تتذكر آخر مرة كنت فيها معنا في السيارة؟".

أبقى سيرو عينيه على الطريق، لكن زوايا شاربه كانت تبتسم. في ذلك المساء الذي كنت أشير إليه، كان هو في مقر قيادة الشرطة المدنية، يلتقي بقائدها. وبينما كان جالسًا في الاجتماع، شربنا -نحن الذين جاؤوا معه- حتى الثمالة. وفي طريق العودة، كان عليه أن يُقحمنا في السيارة ويقود هو بنفسه. جلست أنا وسبيدي، وتشيركيز، في الخلف، نصف واعين، بينما جلس أميدزا بجوار سيرو، في حالة ليست أفضل. لا أستطيع أن أتذكر ما كنا نثرثر بشأنه، لكنني أتذكر أن سبيدي بدأ في البكاء. شيء ما لامس عاطفته وبكى كالطفل الصغير. بدأ تشيركيز، الذي لم يستطع تحمل الأمر، بضربه على رأسه، والصراخ في وجهه للتوقف، لكنه بذلك جعل سبيدي يعوي وينتحب بشدة أكثر، إلى أن بدأ تشيركيز نفسه يبكي. "لا تبكِ أيها اللعين! لا تبكِ! " صرخا معًا في انسجام تام حتى انزعجنا أنا وأميدزا وبدأنا بضربهما. تعثر أميدزا على المقعد الأمامي، وبدأت مشاجرة كاملة في الخلف. أصبحنا في حالة

34- طار أحدهم فوق عش الوقواق One Flew Over the Cuckoo's Nest فيلم دراما أمريكي صدر عام 1975 من إخراج ميلوش فورمان. (المترجم)

تامة من الفوضى، بينما ندفع بعضنا بعضًا باليدين والقدمين. سئم سيروفاك من السيارة التي أصبحت تتعرج على طول الطريق وأوقف المحرك. التفت إلينا بتعبير جليل. "اللعنة يا رفاق. نفد منا البنزين. سيتعين عليكم الخروج ودفع السيارة". أشعل سيجارة بينما نزلنا من السيارة، وأخرج ذراعه اليسرى بشكل مريح عبر النافذة. بمجرد أن ألصقنا ظهورنا بمؤخرة السيارة وبدأنا بالدفع، استخدم يده اليمنى لتوجيه عجلة القيادة برفق. وبصرف النظر عن الشخير واللهث، لم نسمع المزيد من الضوضاء، وبعد نحو كيلومترين من التمرين، أفقنا تمامًا من أثر الكحول. وعندما توقفنا لالتقاط الأنفاس، أخرج سيرو رأسه من النافذة. وبعدما أصبح راضيًا لأننا استفقنا، قام بتشغيل المحرك وألقى بعقب سيجارته علينا. "أراكم في المدرسة، يا أولاد!".

***

جاء تشيركيز بعد نحو اثنتي عشرة ساعة من النوم، تمطى وتثاءب، وذهب إلى المطبخ. تظاهرنا بالجوع أيضًا حتى نتمكن من متابعته ومراقبة سلوكه. ارتشفنا القهوة وتحدثنا بلا مبالاة بينما كان يلتهم ست بيضات مخفوقة وكومة من الجبن ونصف لتر من الزبادي. لعق أسنانه بلسانه وخرج إلى الفناء. راقبناه عبر النافذة وهو يفتش زيه العسكري. أخرج من جيب صدر سترته عبوة صغيرة من الماريجوانا، وفكها، ثم توقف. جلس على مقعد في الفناء وأخذ يحدق في الأفق أمامه، يفكر في شيء ما. أخيرًا قام بتمزيق العبوة إلى قطع ونثر الماريجوانا على الأرض. داس على كل قطعة قبل أن يجلس. وبمجرد أن قام بإشعال سيجارة، رأينا أنه من الآمن أن ننضم إليه.

كان اليوم دافئًا لدرجة أننا خرجنا بقمصاننا فقط. كان الجو مشرقًا جدًّا في الخارج لدرجة أن الثلج الذي غطى الفناء كان يلمع كما لو كان قد تم رشه بقطع زجاج. صحيح أن الشمس ستختفي في فترة ما بعد الظهيرة وتبقى مخفية لبقية فصل الشتاء، ولكن في ذلك النهار كان يمكننا أن نستمتع بنعمتها وكرمها غير المتوقع.

"هل سيأتي أي شخص معي؟" أخبرتهم. "أنا ذاهب إلى ميلان المجنون. لقد وعدته أن أحضر له زجاجة كيروسين".

"يمكنني أن آتي معك". قال سيروفاك وهو يرمقني بنظرة حادة، ملمحًا إلى أنه يجب علينا إقناع تشيركيز بالمجيء".

"لنذهب جميعًا. أعني، ما الذي يوجد هنا لنفعله؟ ننتظر حتى يستدعينا أحد الحمقى الذين يشعرون بأهمية ذواتهم للوقوف حراسة أمام مرحاضه؟".

لم يكن بورنا وسيروفاك بحاجة إلى مزيد من الإقناع. ركضت إلى المهجع وأحضرت الكيروسين. خرجنا من فناء المدرسة بخطى فاترة. تبعنا تشيركيز دون كلمات. كان ميلان، على غير العادة، جالسًا أمام مقصورته عندما وصلنا. إذ نادرًا ما كان يقضي وقتًا بالخارج، لكن لا بد أن تغير الطقس قد أغراه أيضًا. تعرف على سيروفاك من بعيد ونهض على قدميه ليلقي التحية عليه. "مرحبًا أيها المعلم".

"نهارك سعيد يا سيد ميلان"، قال سيروفاك بصوت المعلم الوقور.

أما بقيتنا، فقد أومأ لنا ميلان برأسه بلطف لكنه لم يُظهر أي علامة على رؤيتنا من قبل. علمنا من التجربة أنه لا يستطيع التفريق بيننا. كان

الظلام دائمًا سائدًا في مقصورته لدرجة أنه لن يكون قادرًا على التعرف على كل من قضى ليلة معه هناك إذا حاول.

قلت له وأنا أقدم له الزجاجة: "تفضل يا ميلان. الكيروسين الخاص بك، حتى تتمكن من رؤية ما تفعله عند شيّ البطاطس".

"جيد جيد!" قال ميلان مُبتهجًا. "شكرًا لك يا بني".

قال بورنا: "ولا تشربه بدلًا من البراندي".

"هاهاها، أيها الأوغاد!" ضحك ميلان مظهرًا فمًا بلا أسنان. "أشرب الكيروسين، مستحيل!".

ظل يبتسم ويومئ برأسه، وهو ينظر إلينا في وضح النهار. تجولت عيناه بيننا من واحد إلى آخر كما لو كان يرانا للمرة الأولى. عندما وصل إلى بورنا، توقف. تلاشت ابتسامته تدريجيًّا إلى أن اختفت تمامًا. نظر بورنا إليه وأعطاه إيماءة وابتسامة. تقدم ميلان للأمام وكأنه يحاول قراءة شيء ما في وجه بورنا. نظر إلى بورنا بعمق في عينيه، وتراجع إلى الوراء بشيء من التعثر، وأخذ يحدق مرة أخرى. نظر سيرو إلي، وأنا، بدوري، نظرت إلى تشيركيز. انزلقت زجاجة الكيروسين من يدي ميلان. بدأ فكه يرتجف وامتلأت عيناه الصغيرتان الداكنتان بالدموع. تراجع عن بورنا بخطوات متثاقلة وهو خائف ومشى نحو سيروفاك. أشار بإصبعه وهو يرتعش إلى بورنا كما لو كان يحاول قول شيء ما. نظرنا نحن الأربعة إلى بعضنا في حيرة. التصق حاجبا بورنا معًا وهو ينظر في وجوهنا واحدًا تلو الآخر، للتحقق مما إذا كان أي شخص آخر يفهم ما حدث للرجل العجوز. تنهد سيرو، ووضع يده على كتف ميلان،

وقال بصوت عميق: ”ما الأمر يا ميلان؟“.

انفجر الرجل العجوز بالبكاء، وهو لا يزال يقترب من سيروفاك أكثر. راح يرفع إصبعه بصعوبة ويوجهه نحو بورنا. ”أنت! لقد كنت أنت!“.

كان الدموع تتدفق بغزارة على وجه ميلان المجعد. انتحب، وهو يلهث من أجل الهواء. ”أنت من قتلت ولدي!“.

اتسعت عينا بورنا في دهشة وذهول. ابتسم ابتسامة مشوشة. بدا سيروفاك مرعوبًا. بينما شعرتُ وكأن سكينًا قد غُرز في معدتي.

تقدم تشيركيز نحو ميلان وصرخ في وجهه: ”ما الذي تثرثر به أيها الرجل العجوز؟“.

انتفض ميلان مشيرًا إلى بورنا بكلتا يديه: ”أنت من قطعت رأس ابني! لقد أخبرتني أن أخبر الجميع بما فعلته!“.

تجمد بورنا تمامًا في مكانه. لقد بدا وكأنه لا يستطيع فهم كلمات ميلان رغم أنه كان يسمعها بوضوح كاف.

هز سيروفاك ميلان من ذراعه. ”ميلان؟ ميلان؟ بربك، أيها الرجل العجوز، سيطر على نفسك! هل تعرف ما تقوله؟“.

ابتعد ميلان عن سيروفاك وألقى بنفسه بين ذراعي بورنا. مسك وجه بورنا بغلظة بينما يغرز أظافره به وهو يبكي. ”قاتل! لقد قتلت ابني! قاتل!“.

وقف بورنا متخشبًا في مكانه، بينما يتلقى ضربات الرجل العجوز. نظر إلي نظرة عاجزة كما لو كان يسألني عما يجب أن يفعله. أمسكه

ميلان من صدره وحاول دفعه بقوة بذراعيه الضعيفتين. بدا الرجل العجوز وكأنه طفل يحاول إيقاع ثمرة غير ناضجة من شجرة كبيرة. ظل بورنا يتمايل في مكانه بلا حول ولا قوة، رافضًا الدفاع عن نفسه. لم يكن الموقف يبدو منطقيًّا بالنسبة له، كما أنه لم يبدُ أن لديه الرغبة لمحاولة إقناع أي شخص بأي شيء. أسوأ ما في الأمر أنني رأيت عجزًا في عينيه. لم يستطع طمأنتي بأن الرجل العجوز كان مخطئًا. قفزنا على ميلان المجنون. أمسكنا به وحاولنا إبعاده عن بورنا. كانت يداه مغروزتين في قميص بورنا، وتمسكانه بجنون. كنا لا نزال في حالة صدمة، لكننا كنا ندرك أننا بحاجة إلى تهدئته. أمسكنا به وحاولنا جميعًا سحبه. انتهى بنا المطاف في كومة على الأرض، وميلان على القمة فوقنا، ممسكًا بيديه الأجزاء التي مزقها من قميص بورنا. اقترب منا بورنا مترددًا، خائفًا، يتوسل بعينيه. بدا أنه يسعى للحصول على دعمنا رغم أنه لم يكن يعرف ما إذا كان يستحق ذلك.

استحوذ علي الشك. ماذا لو كان ميلان يقول الحقيقة؟ هل حقيقة أن بورنا أنقذ حياتي ستغفر له جرائمه؟ كنت أعلم أنني سأكون دائمًا ممتنًّا لما فعله من أجلي، لكن فجأة أصبحت لدي أسئلة أخرى لأفكر فيها أكبر من أي امتنان شخصي. مجرد التفكير فيها جعلني أشعر بالضعف. هل كان بورنا قبل فقدانه للذكرى على الجانب الآخر؟ هل كان يقتل جنودنا؟ والأسوأ من ذلك، ربما لم يكن ابن ميلان المجنون ضحيته المدنية الوحيدة؟

نهضنا من على الأرض، وأسندنا ميلان المجنون، الذي بدا وكأنه مصاب

بالجامود[35]. أخذه سيرو تحت ذراعه وقاده إلى مقصورته، ووضعه في الفراش. وقفنا أنا وتشيركيز وبورنا ننظر لبعضنا بلا أي كلمة. كنا نقف في صمت في منتصف الطريق في يوم شتاء مشمس. سحب تشيركيز بندقيته ووجهها نحو بورنا. سحبت أنا الآخر بندقيتي، وبعد أن ترددت لفترة وجيزة، وضعتها عند رقبة تشيركيز. وقف بورنا حيث كان باكيًا. سمعت بداخل عقلي صدى صوت موسيقى إنيو موريكوني[36]. خرج سيرو من المقصورة. وقف عند العتبة يشاهدنا.

تحدث بورنا إلى تشيركيز: "تشيركيز.... أنا لم أفعل ذلك".

"كيف تعرف؟ هل تستطيع أن تتذكر؟".

"يمكنني أن أخبرك أنني تذكرت. يمكنني أن أخبرك ببعض القصص المخترعة عن نفسي. لكني أقول لك الحقيقة". ارتجف صوت بورنا. "لا أعلم".

"إذًا ربما فعلت ذلك!".

ناداني سيرو. استدرت لأجد نفسي أواجه فوهة بندقيته.

قال: "أنزل بندقيتك الآن".

رميت بندقيتي في الوحل. بينما أبقى تشيركيز بندقيته موجهة نحو

35- الجامود Catatonia، يعرف أيضًا باسم التَخَشّب، وشذوذ الحركة الفصامي هو عبارة عن اختلال عصبي يؤثر على كلٍّ من السلوكيات والوظائف الحركية. حيث تكون هناك أعراض حركية غريبة نتيجة لأسباب نفسية، مثل اتخاذ أوضاع معينة والاستمرار عليها. (المترجم)

36- إنيو موريكوني Ennio Morricone موسيقي إيطالي شهير له العديد من الأعمال، خصوصًا في مجال الموسيقى التصويرية. (المترجم)

رأس بورنا واقترب منه. اقتربنا من بعضنا حتى التقى الجميع في منتصف الطريق. كان قميص بورنا متقطعًا. وعلى ظهر كتفه العاري، كان بإمكاني رؤية جزء من وشم كبير موجود على كتفه. اقترب منه سيرو ومزق قطعة القماش المعلقة. تبادلنا النظرات.

"ما هذا يا بورنا؟" أشار سيروفاك إلى الوشم بفوهة بندقيته.

كان الوشم مرسومًا بدقة كبيرة. كان ثمة تاريخ مكتوب على شريط ملفوف حول شعار نبالة. إذا حكمنا من خلال اللون وحده، كان من الممكن أن يكون الوشم أقدم من عام، لكن التاريخ أزال أي شك. بداية الحرب. حاول بورنا النظر من فوق كتفه. نظر مجددًا إلينا ورفع كتفيه. انحنى تشيركيز لإلقاء نظرة فاحصة. شعرت بنفسي أتصبب عرقًا باردًا. بدأت القشعريرة تملأ يدي ورجلي.

رفع سيروفاك أحد حاجبيه ونظر إلي بطرف عينه. "هل بإمكانك التعرف عليه؟".

قلت: "نعم".

شعرت بغصة في حلقي. لم أصدق أن هذا كان يحدث.

"بورنا"، ناديت عليه.

تغيرت نبرة صوتي وكأنه لم يعد صوتي. شعرت وكأن كلماتي يقولها ممثل، دوبلير، يقوم بدلًا مني بتأدية مشهد صعب، بينما جلست عاليًا على رافعة كاميرا، لتصوير المشهد بالأسفل. كان وشم بورنا يمثل شارة القوات الخاصة، وليس أي نوع؛ بل وحدة نخبوية، مُدربة على القتال في جميع الظروف. وحدة كانت، ويا للهول، تنتمي إلى الجانب الآخر.

ابتلعت ريقي بصعوبة ونطقت الكلمات.

"بورنا، أنت واحد منهم".

بدا فم سيروفاك جافًّا أيضًا. صوب بندقيته نحو صدر بورنا: "لديك ثلاث ثوان لتخبرني باسمك ورتبتك".

قام بورنا بإغلاق جفنيه. سقطت الدموع على خديه، لكن صوته ظل هادئًا بشكل غير متوقع: "لا أعلم".

أعاد سيرو تعمير بندقيته وبدأ العد. "واحد!".

قال بورنا: "لا أعرف. إذا كنت تريد قتلي لأنني لا أعرف اسمي، فهيا أطلق النار".

"اثنان!".

"لا يمكنني تذكر اسمي، أو من أين أنا، أو أي شيء آخر".

"ثلاثة!".

قفز تشيركيز على سيروفاك وأمسك بفوهة بندقيته. "توقف! إياك أن تقوم بالعد مرة أخرى أبدًا. إياك".

ابتلع سيرو ريقه بصعوبة. اقتربت من تشيركيز وأمسكته من الحزام. "سبيدي رحل يا تشيركيز. لا شيء يمكن أن يغير ذلك. دعونا نهدأ. الجميع تحت ضغط كبير".

ابتعد تشيركيز عني. "أنا أعمل بشكل أفضل تحت الضغط!".

التفتَ إلى بورنا ووضع فوهة بندقيته أسفل ذقنه. "اسمك لا يهم. ما

يهم هو من أنت. وأنت لست واحدًا منا".

بدأت عيون بورنا تتنقل بين وجوهنا. كنت أرغب بشدة في دفع يد تشيركيز بعيدًا، لكن لم يكن لدي القوة. كان الأمر أكبر من قدرتي. دفع تشيركيز بندقيته أكثر في عنق بورنا. كان حلق بورنا يرتعش. "صدقني، لا أحد يريد أن يعرف إجابات أسئلتك أكثر مني".

قال سيروفاك وهو يبصق بازدراء على الأرض: "بشرط أن تعرف كيف تقول آه-مين بدلًا من آمين".

أنزل بندقيته ووجهها نحو الأرض. رأى تشيركيز حركته بطرف عينه، فأنزل سلاحه أيضًا. رمش بورنا، وكأنه غير متأكد أين ينظر.

دفع سيروفاك بندقيته نحوي. "خذها".

أخذتها بقلق وتوجس. أخذ سيرو تشيركيز تحت إبطه. وقبل عودتهما إلى المدرسة، التفتَ إلي. "لديك الحق الأقوى هنا لتقرير مصيره. اذهب الى الغابة. ما تفعله هناك هو من شأنك. فقط لا تعود به".

أبقيت "بورنا" أمامي في مرمى بصري، بينما أسير خلفه ونحن في طريقنا. ليس لأن ذلك كان ضروريًا. فهو لم تكن لديه نية في الهروب.

دخلنا معًا الغابة.

سيبتيك

كان المهجع صاخبًا على نحو غير معتاد. فقد انضم إلينا رجال من الشرطة العسكرية. لقد دعوا إلى عقد اجتماع مع سيروفاك؛ حيث بلغت الشهور المرهقة المتتالية ذروتها باحتجاجات عامة. وبحسب القصة المتداولة، كانت هناك كتيبة جديدة من الشرطة العسكرية تنتظر الانتشار في المدينة، محبوسة في ملجأ مهجور. فبينما كان كل واحد منا يقوم بعمل ثلاثة رجال، كانوا يجلسون على مؤخراتهم دون فعل أي شيء، غير قادرين حتى على العودة إلى المنزل أو إجراء مكالمات هاتفية. لقد سئموا من الراحة بقدر ما سئمنا نحن من المشقة. علم رجال سيرو بالأمر وقرروا الضغط على قائدهم. أما مسألة ما إذا كان سيرو لديه القدرة على إحداث أي تغيير حقيقي فلا تزال غير معروفة. فما زلت لا أعتقد أن كلمته لها أي وزن خاص عندما يتعلق الأمر بتخصيص الموارد. كان كبار المسؤولين يريدون أن يسمعوا أن المهمة قد أُنجزت ولم يكونوا يهتمون بشكل خاص بما إذا كان قد قام بها خمسون أو مئة وخمسون رجلًا. قررت عناصر الاستطلاع عدم المشاركة. ليس لأن عبء العمل لدينا كان أسهل ولكن لأننا تم إلحاقنا بالشرطة وكان سيروفاك قائدهم في المقام الأول.

كان هناك عدد من الأشخاص في الغرفة أكثر من أي وقت مضى، بينما كان شعوري بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. رمقني تشيركيز

بنظرات توحي كما لو كان يسألني عما إذا كنت أرغب في التحدث عما حدث في الغابة. لكنني تجنبتُه وتجنبت نظراته وأي محاولات أخرى للحديث. لم يهدأ الصخب في المهجع. بدأ الحشد يجعلني أشعر بعدم الارتياح. جلست على سريري وأشعلت سيجارة. جلس الجميع باستثناء سيروفاك. وقف أمام السبورة وانتظر أن يتقدم أحدهم ويشرح سبب الاجتماع. أخيرًا، وقف رجل يدعى سيبتيك على قدميه.

"سيرو! كنا نتحدث، وتم اختياري لأخبرك بما قررناه. فليكن واضحًا من البداية أنني أتحدث بالنيابة عنا جميعًا".

قال سيرو: "هذا جيد يا سيبتيك. كلي آذان صاغية".

بدا سيبتيك متشجعًا وبدأ يعدد النقاط التي لديه على أصابعه: "هناك خمسون منا مع الاستطلاع. ونحن نحرس ست نقاط حول مقر القيادة. ونحتل موقعًا أماميًّا عند المنشرة. ونقوم بدوريات في المدينة ونتشاجر مع الجنود السكارى الذين يطلقون النار في الشوارع ويقتحمون منازل الناس. ونأخذ نوبات عمل في سجن المدينة؛ بغض النظر عن أن الشرطة المدنية يجب أن تكون قادرة على القيام بذلك بمفردها. ونرافق كل ضابط أينما ذهب، ونقيم نقاط تفتيش عند مداخل جميع القرى المجاورة، ونذهب للاستطلاع خلف الخط الفاصل، كل يوم. ونأخذ مناوبات في الطابق السفلي، ونحرس المدرسة، وفوق كل ذلك، تم اختيار عشرة منا للعمل كفرقة الإعدام. نحن نكون خارج الخدمة أربع ساعات فقط في اليوم، وعلينا أن نقضيها في حالة تأهب قصوى".

بدا سيروفاك منزعجًا بالفعل. تنهد بغضب وحاول تسريع الأمور. "نحن لسنا في اجتماع نقابي. أوضح مقصدك مباشرة".

أومأ سيبتيك. "الناس أصبحوا مهتاجين وسريعي الانفعال. يكفي أن يخسر شخص ما أثناء اللعب بالبطاقات حتى تتوتر الأجواء. لا يمكننا العمل في هذه الظروف بعد الآن. ونحن نطالب أن تقدم لنا المساعدة والراحة".

ساد الصمت الفصل الدراسي. كان سيروفاك ينظر إلى سيبتيك، الذي كان يبذل قصارى جهده حتى لا يبدو متوترًا. "تطالبون؟ هل أنت متأكد من أن هذه هي الطريقة التي تريد صياغة الأمر بها؟".

جفل سيبتيك قليلًا لكنه بدا وكأنه قرر إطلاق العنان لغضبه. "تبًّا لذلك يا رجل، امنحنا بعض الراحة! دعنا نعود إلى المنزل لمدة أسبوع. في الوحدات الأخرى، يعملون ساعتين في اليوم ويقضون بقية الوقت في حالة تأهب منخفضة. بينما بالطريقة التي نقوم بالأمر بها، سينتهي المطاف بكل واحد منا ميتًا أو في سلة مهملات، أيهما يحدث أولًا. بالطبع نحن نطالب وبشدة!".

جلس بعدما أصبح منفعلًا ووجهه متوردًا. بينما راقب الرجال عن كثب رد فعل سيروفاك.

تنهد سيرو: "حسنًا يا سيبتيك. سأنقل كل ما قلته. لكن ضع في اعتبارك أن ما يقررونه في قيادة الجيش هو أمر لا يعود إلي".

"فقط افعل كل ما تستطيع. لأنه لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا النحو. لم تنهَر الأوضاع بعد فقط لأننا ندفع أنفسنا إلى أقصى ما يمكننا. انظر هنا، ألقِ نظرة".

أخرج سيبتيك قدمه من حذائه، مُظهرًا جُوربًا سميكًا. "هذا ما يجب

أن أتجول فيه لأنني لا أستطيع ارتداء أحذية طويلة. عندما أخرج، أرتدي عدة جوارب فوق بعضها وكيسًا بلاستيكيًّا فوقها. إنه مجرد ظفر غارز في الجلد، لكنه يؤلم للغاية. وأرادوا الاعتناء به في المستشفى، لكنني لم أسمح لهم بذلك لأنهم أخبروني أنني سأضطر إلى البقاء في المنزل لمدة أسبوع. هناك عدد قليل جدًّا منا لدرجة أن مناوبات الجميع ستنتقل من ساعتين إلى ثلاث ساعات أثناء غيابي، ومن يمكنه البقاء على قيد الحياة لمدة ثلاث ساعات بالخارج؟ ربما إذا ارتفعت درجة الحرارة قليلًا، لكن طالما بقيت أقل من سالب عشرة، فلن يكون الأمر كذلك. نحن على يقين من أننا سنسقط موتى عند سالب خمسة عشر كما عند سالب خمسة وعشرين". تحمل نظرة سيرو العابسة وأوضح مقصده في النهاية. "نحن بحاجة إلى تعزيزات، ونحن بحاجة إليها الآن. ليس الأمر أننا نطالب بأن تخرجهم لنا من جيبك وكأنك ساحر. فالرجال موجودون هناك بالفعل، يتوسلون أن يتم نشرهم وإسناد المهام إليهم".

نظر إليه سيروفاك بضع نظرات ثاقبة وهو يفكر، ونفخ خديه. بدا كما لو أنه لم يسمع قط أن رجاله يمكن أن يُستنزفوا من ثقل الأعباء. عندما ينظر المرء إليه، قد يعتقد المرء أن الادعاء كان متهورًا.

"سيبتيك. عندما أستمع إليك وأنت بهذا الشكل وتتحدث بهذه الطريقة، فهناك شيء واحد أود معرفته. هل يشاركك الآخرون الرأي".

نهض سيبتيك على قدميه مرة أخرى. "لقد قلت ذلك بالفعل. أنا أتحدث نيابة عن الجميع".

راحت أنظار سيروفاك تجوب الغرفة. "لنسمع إذًا، جميعكم! ما رأيكم في ذلك الخطاب القصير من سيبتيك؟".

ساد الهدوء الغرفة. نظر سيبتيك من فوق كتفه إلى رفاقه. كانت رؤوسهم منحنية ومنخفضة، يهمسون فيما بينهم. نظر إليهم غير مصدق، ثم التفت إليهم بشكل كامل مديرًا ظهره إلى القائد. "يا رفاق، تكلموا. هذا هو سبب عقدنا لهذا الاجتماع. لماذا لا تقولون أي شيء الآن؟".

لم يصدر أحد أي صوت. حدق سيبتيك بذهول في رفقاء دعمه الذين تراجعوا. التفت إلى سيروفاك وصرخ: "إذا لم يكونوا يعتقدون الأمر نفسه، فلماذا قد يطلبون مقابلتك؟ هذا هو سبب وجودنا هنا في المقام الأول!".

قام سيروفاك بمسك شاربه وراح يلفه ببطء ولم يقل كلمة أخرى. كانت مناورته تؤتي ثمارها. لقد كان يستغل بمهارة سيكولوجية الجماهير التي تفسح المجال لسلطته. لم ينظر أحد حتى لعيون سيبتيك. بدا وكأنه يشعر بالهزيمة.

"ما خطبكم بحق الجحيم؟ قولوا له ما قولتموه لي!".

لكنه لم يكن بحاجة لتكلف عناء ذلك. اقترب منه سيرو واضعًا يده بلطف على كتفه. "يمكنني إعطاؤك بضعة أيام. اذهب للمنزل. خذ قسطًا من الراحة. اعتنِ بقدمك".

ابتعد سيبتيك عنه بقوة. "إذًا أنا الشخص الذي يجب إعادته إلى المنزل لأنني غير متزن؟ أصبحت أنا من أخترع هذه الأشياء، وبقيتكم مجرد متفرجين؟ ليس لديكم أي من هذه المشاكل، وأنتم موجودون هنا فقط لتظهروا اتفاقكم مع القائد؟".

”سيبتيك، لقد وافقت على مقابلتك في حين كانت لدي أشياء أكثر أهمية لأفعلها، لكن هذا لا يمنحك الحق لـ..“.

كانت ضحكة سيبتيك قاسية. ”أوه، أنا متأكد من أن لديك أشياء أكثر أهمية للقيام بها. أيها المحارب العجوز الشجاع أنت. كان يمكن لابني البالغ من العمر خمس سنوات القيام بعمل أفضل في قيادة هذه الوحدة. كل ما تفعله هو الجلوس على مؤخرتك والتكليف بالمهام. وتنام في الليل بينما يتجمد جنودك. عار عليك يا رجل. عار عليك!“.

استدار سيبتيك ومشى إلى الخارج وهو يعرج بينما يشق طريقه عبر الرجال الذين ما زالوا ثابتين مكانهم، ولم يصدر أي منهم أدنى صوت. ”وأنتم! عار على كل واحد منكم! من هذه اللحظة فصاعدًا، لا أريد أن يأتي أي منكم لي بمشاكله. يمكنكم تقديم التقارير لي، يمكنكم إيقاظي للخدمة، لكن بخلاف ذلك، ابقوا بعيدًا عني!“.

وعند الباب، استدار وصرخ: ”وحافظوا على مسافة لعينة عندما أقوم بتنظيف سلاحي!“.

جلس تشيركيز بجانبي: ”ذلك الرجل ضاق ذرعًا بالأمر تمامًا. لكن أي سلاح ذلك، ما الذي يتحدث عنه؟“.

”يقولون إذا كنت تحاول أذية شخص ما، فقط اجلس بجانبه عندما تقوم بتنظيف سلاحك. الناس يكونون مهملين في كثير من الأحيان. ويكون الرصاص مُعبأ في السلاح. ليس من النادر أن نسمع أن رصاصة قد انطلقت من بندقية أثناء تنظيفها“.

”لا تمازحني“.

”لا أفعل. هذا ما قالوه“.

”ما زلت أعتقد أنك تبالغ“.

”سيقول الناس ذلك أيضًا إذا أخبرتهم بما فعلته لأنتوني“.

اندفعت دموع الغضب إلى عيون تشيركيز. أمسك بي من السترة ودفع قبضته تحت ذقني. ”أنتوني قتل سبيدي!“.

”أتفهم مشاعرك، لكن سبيدي مات بسبب غباء أنتوني. لم يقتله أحد عن قصد“.

”أنت لست الشخص الذي سيعيش بقية حياته يلقي التحية على والديه! لقد فقدت أعز صديق لي!“.

أمسكت بقبضته وثنيت ذراعه خلف ظهره حتى شهق من الألم. ”هل تعتقد أنك الوحيد الذي فقد صديقًا؟ قف في طابور، يا تشيركيز“.

كان المهجع فارغًا. لم يكن لدى الرجال ما يقولونه عندما أتيحت لهم الفرصة، والآن بعد أن ذهب سيبتيك وسيرو، لم يكن لديهم سبب للبقاء. لاحظ اثنان من المتفرجين أن هناك خطبًا ما بيني وبين تشيركيز، لكن لم يتدخل أحد. فالكثير من الجدالات الأخرى كانت تندلع بالفعل في كل ركن من الغرفة.

سيروفاك

قال الطبيب لتشيركيز وهو يصافحه: "أنا مسرور جدًّا لرؤيتك على قدميك وبصحة جيدة. كنت في حالة سيئة للغاية تلك الليلة لدرجة أنني طلبت أن يرافقك ممرض دومًا. لقد كنت ألوم نفسي على السماح لك بالرحيل منذ ذلك الحين".

"لا تقلق يا دكتور. أنا بخير".

"نعم أنا أرى ذلك، وأنا سعيد من أجلك. لم أتوقف أبدًا عن الاندهاش بمدى قوة وبأس بعضكم أيها الفتيان. كان ليصرخ الكثيرون لتتم إعادتهم إلى منازلهم إذا ما لقوا أقل بكثير من المعاملة التي عانيت منها كسجين".

نظر تشيركيز إلى الطبيب بتعبير أجوف. تذكر سيروفاك أن تشيركيز ليست لديه فكرة عن القصة التي أخبرنا بها الطبيب؛ فسارع إلى الانضمام إلى المحادثة. "دكتور، نحن هنا وفقًا لاتفاقنا".

اكفهر وجه الطبيب: "لقد تم نقل الرجل إلى المدينة. لم نستطع فعل أي شيء أكثر من أجله هنا".

"ما هو التشخيص؟".

"كسور متعددة. عظمتا الترقوة، والمرفقان، وعظام المشط، وجميع الأصابع، وعظم الحوض، وعظم الفخذ الأيمن، وعظام كلا الساقين،

وأربعة أضلاع..".

تبادلنا أنا وسيروفاك النظرات. كان تشيركيز يتفحص الجدران باهتمام شديد، وكأنه يتأمل سقف كنيسة سيستينا[37].

قال الطبيب: "اخترق أحد الضلوع الرئة، مما تسبب في نزيف. تظهر الأشعة السينية ظلالًا على الرئة، لكننا لا نملك التجهيزات اللازمة لإجراء المزيد من الاختبارات. أظن أن الدماء تسد الشعب الهوائية".

"ماذا يعني ذلك يا دكتور؟".

"هذا يعني أنه سيصاب بجلطات دموية في قنوات الشعب الهوائية. سترتفع درجة حرارته وقد يدخل في غيبوبة. يحتاج إلى تنظير قصبي وسبر عاجل. وهذا ليس كل شيء. نعتقد أن إحدى فقراته قد تكون متصدعة. سيحتاج إلى إجراء عملية جراحية، وليس لدينا هنا الظروف ولا الشروط الملائمة لذلك على الإطلاق. كما تعلمون، حتى الكهرباء لدينا لا تعمل كما ينبغي".

كان من المعروف أن التيار في المستشفى لديه جهد كهربائي غير موثوق به. حتى المصابيح الكهربائية لا تضيء بشكل طبيعي ولكنها تومض مثل الشموع. كان أول ما يفعله المرضى في الصباح هو أن ينظروا إليها، ويقيسوا السطوع، ويتناولوا وجبة الإفطار وهم ما زالوا يراقبون السقف. وفي اللحظة التي تسطع فيها المصابيح الكهربائية بقوة، يعرفون أن الجهد أصبح مستقرًّا ويتسابقون عبر الردهة ليصطفوا

37- هي أكبر كنيسة موجودة بالقصر الباباوي الذي يعتبر المقر الرسمي للبابا في الفاتيكان وتشتهر بمعمارها الفريد. (المترجم)

لفحوصاتهم. كان يتعين إجراء الأشعة السينية والفحوصات الأخرى خلال تلك الفرصة، قبل أن يتضاءل الجهد مرة أخرى.

يدين المستشفى بحالته الحالية لحادثة وقعت في بداية الحرب. فقد كانت مجهزة بشكل لائق من قبل، والآن لم يعد لديها حتى جميع النوافذ. كان هناك تيار شديد من الهواء يجتاحها لدرجة أن المرضى كانوا يدخلونها بجروح ويخرجون بنزلات برد. وكان من سوء حظها أنها كانت تقع على الجانب الآخر من الشارع بالقرب من ثكنات جيش الدولة السابقة. كان من المفترض أن تتخلى القوات المتمركزة في البلدة عند اندلاع الحرب عن الثكنات وأن تحصل على حرية المرور خارج البلاد، لكن قائدها رفض. وهدد بقصف المستشفى بالقنابل اليدوية ما لم يُسمح له بحمل كامل مخزون الحامية من الأسلحة والذخيرة. لم يسمح المواطنون المسلحون بإعطائه ما كان لهم أساسًا، لذلك قرر الرجل تنفيذ تهديده. أطلق عدة قنابل يدوية على المستشفى. قتل بعضها عدة مرضى. لقد فعل ذلك دون سابق إنذار، وبما أن الجميع قد اعتبر تهديده الأصلي محض تهديد فارغ، لم يتم إخلاء المستشفى. لم يستطع أحد أن يتخيل أن شخصًا ما يمكن أن يفعل ذلك.

في طريقنا للخروج، صافحنا الطبيب مرة أخرى. شكره سيرو على الاتصال بنا وإطلاعنا على حالة أنتوني. غادرنا المستشفى وعبرنا الشارع وسرنا إلى الحانة المقابلة للمستشفى. استقبلنا العدد القليل الموجود من الزبائن بالداخل بالتحية. بينما احمر وجه النادلة وارتبكت. جلسنا على طاولة فارغة ووضعنا بنادقنا عليها. قام سيرو بالطلب لنا جميعًا. "اصنعي لنا قهوة يا عزيزتي. وفي المرة القادمة، ضعي بودرة على خدودك. يتورد المرء هكذا عندما يخفي البراندي تحت منضدة

الاستقبال والبيع".

ضحك الزبائن، ولوح سيرو بيده بلطف. "أحضري لنا بعض كؤوس البراندي أيضًا. اجعليها ممتلئة!".

ظللنا نقرع أصابعنا على الطاولة حتى وصل طلبنا. كنت مرهقًا للغاية لدرجة أنني بالكاد حملت كأسي. "دعونا نجعل هذا سريعًا، ثم نعود إلى المدرسة، حسنًا؟ أحتاج للحصول على قسط من النوم".

قال سيرو: "قل لي". ثم ارتشف رشفة من البراندي الخاص به، ملأ بها فمه، ثم ابتلعها. "ماذا فعلت في الغابة؟".

احمر وجهي. لقد كنت سأتناول لتوي كأسي من البراندي عندما صدمني السؤال. "أنت من بين كل الناس ليس لديك الحق في أن تسألني عن ذلك".

"لم لا؟".

"قلت إنه كان قراري، أتذكر؟".

"وهذا يمنحك الحق في إخفائه عني؟".

"بالضبط. ما فعلته هو شيء بيني وبين الرجل المجهول".

قال تشيركيز: "إذًا، متى أصبح بورنا الرجل المجهول مرة أخرى؟".

"اصمت يا تشيركيز".رفضتُ النظر إليه وواصلت التحدث إلى سيرو. "كان بإمكانك أن تفعل ما تريد. لكنك تركت القرار لي".

"إذا لم تتساءل عن أوامري حينها، فلا داعي لفعل ذلك الآن. ماذا فعلت

مع بورنا؟".

"أنت لا تريد أن تعرف. لقد أعطيتني ذلك الخطاب عن أنه من حقي أن أقرر مصيره، لكن الحقيقة هي أنك لم تكن لديك الشجاعة لتقرر بنفسك".

نظر سيرو حوله، محاولًا عدم لفت الانتباه إلينا. انحنى إلى الأمام وهمس في وجهي بصوت حاد. "لا عليك بمصيره! أنا مهتم بمصيرنا! وحاذر مما يقوله لسانك هذا! أنا ما زلت قائدك!".

"نعم، حسنًا، فيما يتعلق بذلك، أعتقد أن سيبتيك عرف حقيقتك فعلًا. فأنت تختفي عندما تحل الصعاب. تسلمنا مهامنا وتذهب إلى مكان ما في الريف. عندما رأيت أنه كان هناك عدد قليل جدًّا منا، لماذا لم تبدأ في مشاركتنا واجباتنا ومهامنا؟".

انفجر بوجهي. "أين رأيت قائدًا يقف حارسًا؟".

"وأنت أين رأيت خمسين رجلًا يسيطرون على جبهة طولها ثلاثين كيلومترًا؟".

لاحظ الزبائن الآخرون أن الجو كان يزداد حدة. بدؤوا في مغادرة الحانة بهدوء. توقف سيروفاك عن خفض صوته. "بورنا يعرف كل خططنا. يعرف مواقع جميع وحداتنا. إذا سمحت له بالرحيل، فيمكننا أن نتوقع هجومًا كبيرًا على هذه المنطقة في الأيام القليلة المقبلة. ما فعلته معه قد يقرر من سينتصر في هذا الجزء بأكمله من الجبهة. وهل تعرف ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أنني بحاجة مُلحة لمعرفة ما فعلته!".

قال تشيركيز: "في الواقع، هناك ما هو أكثر من ذلك. إذا كانت لهم

اليد العليا هنا، فقد يغير ذلك كيفية انتهاء الحرب بأكملها".

حدقت به بدهشة، ثم لم أستطع السيطرة على نفسي. "آهاها، إذًا نتيجة الحرب كلها تعتمد علي؟ هاها، رائع!".

قفز سيرو وأمسك بي من طية صدر السترة. "توقف عن ذلك! ما الذي تظن أنه مضحك للغاية؟".

"لماذا تركته بين يدي اللعينة إذا كنت تعتقد أن الحرب اللعينة كلها تعتمد عليه؟".

وقف تشيركيز على قدميه وجذب ذراعي سيروفاك، ليحثه على تركي. "بربكم يا قوم. نحن نخيف الجميع. دعونا نجلس ونتظاهر بأننا متحضرون".

شربنا البراندي. ومسح سيرو العرق من جبهته.

قال "حسنًا. كان ذلك غير لائق. لكن يجب أن تتذكر أنه تم التعرف عليه من قبل شاهد عيان. ليس ذنب أحد سواك أنك تعلقت به كثيرًا".

"سيرو، حتى لو كان واحدًا منهم..".

"هو واحد منهم، أيها اللعين العنيد!".

حدقنا إلى بعضنا كما لو كنا نحاول قراءة أفكار بعضنا. أظهرت عيناه أنه يفهم الموقف الذي سيضعني فيه. كان لن يحب أن يكون بمكاني. وقد فهمت مخاوفه أيضًا، لكن شيئًا ما منعني من الاعتراف بأنه كان على حق. لكن إذا لم أستطع حتى أن أكون منصفًا، فماذا بقي لي في الحياة؟ فلقد تم استنزافي بقدر رحيل أطيب وأجمل الأشياء

كالصداقة والحب والثقة.

نظرت بعيدًا وأجبرت نفسي على قطع ما تبقى من علاقتي مع بورنا. "أنت على حق. إنه واحد منهم".

أنهى سيروفاك شرب قهوته: "إذا كنت قد سمحت له بالرحيل -وعليك أن تصدقني، أنا لا أقول ذلك لأنني غاضب منك وأريد أن ألومك- ولكن إذا فعلت ذلك، فهو معهم الآن، ويتم استجوابه".

قال تشيركيز: "وعلى الأرجح يُبقي فمه مغلقًا بشأن المكان الذي كان فيه. لقد عرفناه جيدًا بما يكفي لنعرف أنه لن يخوننا".

قال سيروفاك: "تخمين. والتخمين لا يعني شيئًا في الحرب".

"سيرو! إذا كنت تريد تجنب التخمين، فكان يمكنك القيام بذلك بكل بسهولة. كان بإمكانك اعتقاله ونقله إلى السجن".

راح سيروفاك يحك ذقنه. "الأمر ليس بهذه البساطة".

بدا تشيركيز مندهشًا. نقر على ذراع سيروفاك. "ما هو الذي ليس بهذه البساطة؟ القبض على مشتبه به وسجنه؟ ليس ثمة ما هو أبسط من ذلك".

لم يرد سيروفاك. فهمتُ مشكلته بالضبط.

قلت: "نعم، يا تشيركيز، لكن إذا كنا قد أسرناه، فستكون هناك أسئلة يجب الإجابة عنها. مثل من سمح لجندي معادٍ بالبقاء مع وحدتنا؟ من

سلّحه وتركه يتجول هكذا؟".

نظر تشيركيز إلي. "لكن كفاتيرنيك وافق على ذلك!".

"بربك. هل سمعت من قبل عن عقيد مسؤول عن شيء ما؟ سوف يتدفق القرف للأسفل في اتجاه مجرى النهر، كما هي الحال دائمًا، في هذه الحالة، إلى الضابط الميداني الأقرب إلى القوات. ففي النهاية، لم يقم كفاتيرنيك بأكثر من ترك بورنا في رعايتنا. لم يضع بندقية في يده ولم يرسله في مهام".

تلاقت عينانا نحن الاثنين بعيني سيروفاك فأخفضهما.

بدا شيركيز مرعوبًا. "هل هذا هو سبب تفضيلك للتخلص من بورنا يا سيرو؟ لقد أردته أن يرحل بهدوء لأنك كان من الممكن أن تكون مسؤولًا عن مذبحة!".

نظر إليه سيروفاك نظرة عابسة. "ما الذي تثرثر بشأنه يا تشيركيز؟".

"حسنًا، تخيل لو كان بورنا قد تذكر من هو. كان من الممكن أن يستيقظ في إحدى الليالي بكل بساطة ويفكر بداخله "واو، يا إلهي! أنا مستلق في وسط مقر قيادة للعدو!" كان بإمكانه قتلنا جميعًا أثناء نومنا".

قام سيروفاك بوضع كأس البراندي الخاصة به على الطاولة. كان يرتجف، ولكن ليس من البراندي. دفعت تشيركيز في كتفه. "كفى هراء. دعونا نلتزم بما هو حادث، وليس بما كان يمكن أن يحدث".

صمتنا. أشعل كل واحد منا سيجارة، بينما نمرر الولاعة بيننا. أخيرًا،

تحدث تشيركيز بصوت رصين. "لقد أنقذ المئات منا. مستحيل أن يخوننا الآن. يمكنك أن تعرف شيئًا كهذا عن الرجال".

قال سيروفاك: "لقد أنقذ المئات بالأمس رافضًا أن يبتعد عن مساره. غدًا، يمكن أن يكون مسؤولًا عن مقتل الآلاف".

نظرا كلاهما إلي، موضحين أنهما يطالبان بمعرفة الحقيقة.

نهضت وتركت مشروبي وأنا لم أنته منه. "عندما كنت في الغابة، أوجه سلاحي نحو بورنا... تساءلت عما إذا سيكون من الأصعب قتله أو التعايش مع عواقب عدم قتله".

نظرا إلي في صمت. حملا بنادقهما، وكل ما توقعاه قبل مغادرتنا الحانة هو أنني أصبحت صادقًا. التقطت بندقيتي، بينما أتساءل ماذا، إذا كان هناك أي شيء آخر، أردت أن أقوله. كانت هذه أول مرة أقول اسم بورنا منذ عودتي من دونه. لاحظ تشيركيز، وحزن وجهه. "لقد رأيتك. أعني عندما رجعت. ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدرسة وجلست بجوار الملعب".

حدقت فيه. "هل تجسست علي؟".

"رأيتك مصادفة يا رجل".

"جيد و...؟".

"حسنًا، جلست وقمت بتنظيف بندقيتك".

"إذًا لقد فعلت ذلك".

"لكننا لم نسمع طلقة واحدة".

"الغابة ليست قريبة من المدرسة. علاوة على ذلك، يقوم شخص ما بإطلاق النار دائمًا في مكان ما بالجوار".

"إذًا هل أطلقت النار من بندقيتك؟".

"نعم".

"حسنًا، هل أصبت أي شيء؟".

تفحصت وجهه لعدة لحظات، ثم علقت بندقيتي على كتفي. "ليس لديك ما تقلق بشأنه. هيا بنا".

في الخارج، كانت الشمس عبارة عن دائرة شاحبة تختبئ خلف الغيوم. كانت السماء مطلية باللون الرمادي. سارع سيروفاك ورائي. "سيظل لدي أنا أشياء كثيرة أقلق بشأنها حتى تخبرني بما فعلته معه".

توقفت عند السيارة وحدقت فيه وأنا أفكر -لسبب ما- ليس في بورنا بل في شيمي. كان أعز أصدقائي، وتركته في مكان بائس ليموت وحده. لقد أنقذت نفسي على حساب حياته، وكانت هذه هي الحقيقة. ربما كانت لتقول ماجدة إنه في صداقتي مع بورنا وجدت طريقة لقمع وكبت ذنبي في التخلي عن شيمي وتركه يموت. إن هذه القرارات، تلك التي نتخذها في لمح البصر، نتذكرها مدى الحياة؛ في أغلب الأحيان لأنها خاطئة. ولكن مهما كانت قراراتي، فهي في النهاية لي لأعيش أنا معها وليست لأي شخص آخر. لم يكن لأي أحد في الجيش الحق في أن يسأل عما قمت به. في القبو، اضطررت إلى الاختيار بسبب الأخطاء التي ارتكبها أولئك من هم فوقي؛ وكان هذا ينطبق تمامًا على الوضع

مع بورنا. يمكن لسيرو أن يمتلئ الغضب والقلق كيفما أراد، لكنه لن يحصل على إجابة مني. بدأت أستمتع بالقوة التي أعطاني إياها ذلك. لقد أدرك ذلك التحول الذي حدث لحالتي المزاجية. تصلب فمه. انفجر بالغضب. ظلت الصفعة التي وجهها لي تؤلمني حتى المساء. لم أتحدث لأحد لبقية اليوم.

مهام الحراسة

بعد أن تشاركنا أنا وتشيركيز عدة مناوبات في مهام الحراسة، بدأ الناس يلاحظون أن بورنا لم يكن موجودًا. لم يطرح أحد أي أسئلة، لكن كان ذلك المعتاد. إذ قد تكون الأسئلة محفوفة بالمخاطر، وكانت الشائعات سهلة وغالبًا ما كانت تصل حتى قبل أن يغادر أحدهم. بات من المفترض أن بورنا قد أُرسل في مهمة سرية، أو أُعيد إلى وحدته، أو نُقل إلى المدينة لإجراء تقييم نفسي. كانت بعض التفسيرات مُفصلة بشكل مثير للدهشة وراحت تنمو بشكل أكثر تفصيلًا مع كل مرة تعاد روايتها. كنت الشخص الأكثر ترجيحًا لأن يعرف الحقيقة، لكن لم يحاول أحد أن يسألني.

لم يشارك سيروفاك وتشيركيز ما يعرفانه مع أحد. لقد لاحظت أن الناس باتوا يعطوننا جميعًا مساحة واسعة. كانوا ينظرون إلينا من بعيد كما لو كنا ملعونين، ويتجنبون التواصل معنا في حال كان المرض معديًا. لقد كنا نمر بالكثير من الأحداث الغريبة مؤخرًا، وكان اختفاء بورنا هو الجزء الأخير منها فقط. كان لكل منا أسبابه للترحيب بالعزلة. أبقى تشيركيز نفسه بعيدًا عن الأضواء لأنه لا يريد أن يراه أحد بعدما حدث مع أنتوني. من جانبه، سيكون لدى سيروفاك الكثير من التفسيرات ليقدمها إذا تبين أنه كان يرسل أحد أفراد القوات الخاصة للعدو في مهام. فهو حتى لم يأمر بورنا أبدًا بإجراء جلسة فحص جسدي مع راوكار، وهذا هو السبب الذي جعل الوشم يبقى كل تلك

المدة دون أن يلاحظه أحد. لكن كان لا يزال في ذهن سيرو الكثير. فقد كان اليوم الذي يتعين عليه تقديم تقرير مكتوب فيه يقترب.

***

خلال النصف الأول بأكلمه من مناوبتنا، ظل تشيركيز يتحدث عن سبيدي. وأنا لم أقاطعه قط. بدا وكأنه يشعر بالحاجة إلى سرد قصة حياة سبيدي بأكملها بتفصيل دقيق. بدا أن هذه كانت هي طريقته في حفظها بالذاكرة بشكل أكثر شمولًا بالإضافة إلى التصالح مع حقيقة أن سبيدي قد رحل. ربما تحدث أيضًا حتى يمنعني من الانزواء. لقد مر ما يقرب من أسبوع منذ رحيل بورنا، وكان مزاجي كئيبًا على الدوام. واستغل تشيركيز كل فرصة ليخرجني منه.

كان تحمل موت سبيدي أصعب من أي شخص آخر لأنه كان صبيًّا يحاول بعناد أن يصبح رجلًا، وكانت وسيلته ذاتها للوصول إلى ذلك -الذهاب إلى الحرب- تضمن أنه لن يصل أبدًا إلى وجهته. ولم تكن تلك هي المفارقة الوحيدة معه. لقد كان في الأساس صريحًا وبريئًا وغير ملوث، وهو ما يتناقض بشكل صارخ مع كل ما كان يحيط بنا. كانت الفوضى والأذى في كل مكان من حولنا، وقد انغمسنا في ذلك وأصبحنا جزءًا منه، في حين أن حديث سبيدي بالكامل عن ذلك لم يكن يمثل سوى التباهي الشبابي وشارة بلاستيكية.

جاءت لحظة لم أعد أستمع فيها إلى كلمات تشيركيز. لم يكن مملًّا بالنسبة لي، لكنني لم أعد أستطيع تحمل ذلك. شعرت كأنني كوب يتم ملؤه بينما يفيض الماء بالفعل منه. أبحرت بعيدًا مع أفكاري، في المستقبل، قبل أن أعرف حتى إنني أفعل ذلك. سيكون من الرائع جدًّا

تذكر اللحظة التي كنت أتشاركها مع تشيركيز في يوم من الأيام. سأكون في مكان ما دافئًا، ممددًا على كرسي بذراعين أمام جهاز تلفاز، وأعود إليها باعتزاز، وستكون الحياة طيبة. وكل ذلك سيكون بفضل بورنا. أمسكت نفسي حينها متلبسًا، وأنا أدرك أن هذه كانت المرة الأولى منذ شهور عديدة التي كنت أفكر فيها في العودة إلى الحياة المدنية. لقد فاجأني ذلك بل وأخافني قليلًا. كنت أغادر مرحلة التصالح مع الموت وأحلم أحلام يقظة بالحياة بعد الحرب. لكن في النهاية، كيف سيكون ذلك؟ هل كنت، أو كان أي منا، لا يزال طبيعيًّا؟ أو بالأحرى، هل سنكون قادرين على العودة إلى طبيعتنا بعد أن أصبحنا على ما نحن عليه الآن؟ اعتقدت أنه ربما كل ذلك الغضب والكراهية والجنون، كل ذلك الذي وضعت نفسي به سيحررني، لذلك لن أكون منزعجًا مرة أخرى من أي مشكلة أصغر من الموت الوشيك.

من الغريب أنه غالبًا ما أصبح التعامل مع الحياة الآن أكثر صعوبة من التعامل مع الموت في ذلك الوقت. خلال الكثير من الوقت الذي قضيته على الجبهة، إذا أيقظني أحدهم بسلاح مصوبًا إياه نحو رأسي وأخبرني أنها آخر لحظة لي على هذا الكوكب، كنت سأقول: "حسنًا، أنا قادم؛ فقط اسمحوا لي أن أتبول أولًا".

أدرك تشيركيز أنني لم أعد أستمع له وأعطاني دفعة صغيرة. "اسمع، أريد أن أعترف بشيء".

"تفضل".

"فيما يخص موضوع بورنا. مهما فعلت معه، فأنا لا أهتم. أعني، في النهاية، صحيح أنني أود أن أعرف ما حدث وكل ذلك، لكنني لا أريد أن

أضغط عليك، لذا..".

"تشيركيز. قلت إن لديك ما تعترف به".

"نعم. لو كنت أنا الذي ذهبت للغابة مع بورنا...".

توقف لبرهة، ليحثني -من الواضح- على قول شيء ما. أفترض أنه توقع مني أن أقول "نعم؟ ماذا كنت ستفعل؟" لكنني لم أقل شيئًا.

بصق بعفوية من بين أسنانه: "كنت سأقتله".

حدقت به، غير متأكد مما يجب علي أن أفكر فيه "هل من المفترض أن يريح ذلك ضميري أم ماذا؟".

"اسمع، ليس لدي أي فكرة عما إذا كنت قتلته أو تركته يرحل. أفترض أنك تركته يرحل. من خلال معرفتي بك وبعلاقتك به فيبدو أمرًا منطقيًّا. لكني أقول فقط. كنت سأقتله".

"لماذا يا تشيركيز؟".

"لأنه كان يمثل مخاطرة كبيرة للغاية، وعلينا جميعًا أن نتذكر ما كان على المحك هنا. القرارات التي نتخذها لا تتعلق بنا وحدنا".

"وأنت لا تعتقد أنني على علم بذلك؟".

"أنا فقط أقول إنني أعتقد أنك مثالي. وهذا يأتي بكل هذه المعضلات الأخلاقية. هنيئًا لك على كل ذلك، ولكن هناك أوقات يكون فيها ذلك غبيًّا وخطيرًا. وعلى أي حال، لا يمكنك الهروب من القدر. بعد مقتل سبيدي، بدأت أنظر إلى الأشياء من منظور مختلف".

”ما زلت أنصت يا تشيركيز“.

”لا شيء يمكن أن ينقذك إذا كان من المقدر لك أن تموت. إذا كان من المقدر لك أن تأخذ رصاصة في ذلك اليوم وقمت بالقفز والاحتماء، فسوف تتصدع جمجمتك على الأرض وتموت بهذه الطريقة“.

”هل ساعدتك هذه النظرية في التغلب على موت سبيدي؟“.

”لا. لكن ساعدتني على فهم أنك أسوأ حالًا مني، لذا أدركت ذلك. السيئ يمكن دائمًا أن يصبح أسوأ“.

”لماذا قد أكون أسوأ حالًا؟“.

”أعتقد أنك تكره بورنا، وأنت حتى لا تعرف ذلك“.

”كيف يمكن أن أكرهه بعد كل شيء؟“.

”أعتقد أنك لا تستطيع تحمل ما هو عليه“.

”حقًّا. وما هو ذلك؟“.

”الشيء الذي تحولنا إليه جميعًا. شخص لا يفهم أي شيء ولا يزعجه ذلك حتى. الشيء الذي سنضطر إلى تركه وراءنا إذا قررنا استئناف حياتنا الطبيعية“.

”جيد جدًّا يا تشيركيز. لقد ضاجعت إخصائية نفسية، وأنت الآن تُدشن عيادتك الخاصة“.

”قل ما تريد، ولكن ما زلت أعتقد أنك تكرهه في أعماقك“.

”وأنا أعتقد أن الشرب الكثير قد أفسد عقلك“.

"أنت تكرهه للغاية".

"أنا لا أكره أي شخص، يا رجل. أنا فقط أحاول البقاء على قيد الحياة".

"كلا أنت تفعل. كان يجب أن تدرك ذلك، وكان يجب أن تقتله".

"هراء. ليس عليك أن تكره شخصًا ما لقتله على أي حال".

"انظر، أنا أتفق مع ذلك. لهذا السبب أقول إنني كنت سأقتله. لكن انتظر، هل هذا يعني...؟".

"هل تحاول التلاعب بي لإخبارك؟".

"لا، فقط أقول ما لدي".

صمت تشيركيز، ثم عاد مرة أخرى: "ما هو آخر شيء قاله لك؟".

"قال إنه يعرف أنني رجل نبيل".

"إذًا هل تركته يذهب؟".

"هل سألتك أي شيء عن أنتوني؟".

"لا".

"هل علقت على حقيقة أنه يحتضر في المستشفى؟".

"لا لم تفعل".

"أعطيتك أي نصيحة؟".

”لا“.

”إذًا. اغرب عن وجهي“.

ظللنا صامتين لبضع لحظات، حتى أدركت أنني كنت قاسيًا معه. لم أستطع لومه على الفضول. قلت: ”أنا أتفق مع ما قلته عن القدر. لا يمكنك الاختباء منه، ولا فائدة من محاولة الهروب أيضًا“.

خلعت خيط الخرز الذي كنت أرتديه تحت قميصي. ”ألقِ نظرة على هذه المسبحة“.

”نعم أراها“.

”هل تعرف كيف حصلت عليها؟“.

هز تشيركيز رأسه نافيًا ومترقبًا في الوقت ذاته إيضاحي.

”قبل أن آتي إلى هنا، ذهبت إلى الكنيسة وطلبت من الكاهن أن يعطيني مسبحة. عرض علي الاختيار من بين مجموعة كاملة“.

”نعم. هذه هي الطريقة التي حصل بها الجميع على مسابحهم، بشكل أو بآخر“.

”لا أعرف، لقد حاول الكاهن بيعها لي“.

”الكاهن فعل ذلك؟“.

”نعم“.

”الكاهن حاول أن يبيع لك مسبحة؟“.

"نعم. ولكن اسمع. كنت واقفًا في الكنيسة وألقي نظرة على المسابح، وهو يردد الأسعار. استدرت بحدة وخرجت. لا تعليق، أليس كذلك؟ بعد بضع مئات من الأمتار، وصلت إلى محطة الحافلات. هل تعرف موقف الحافلات القريب من الكنيسة في الحي الذي أسكن فيه؟".

"وأنت ذاهب إلى وسط المدينة؟".

"نعم. كنت أنتظر الحافلة لأنني بحاجة إلى أن أكون في سوق السمك. كنا سنلتقي هناك لأننا كنا متجهين إلى هنا. شيمي كان ينتظرنا هناك بشاحنة صغيرة".

"ثم؟".

"ظللت منتظرًا. مرتديًا زيي العسكري. كان لا يوجد سوى عدد قليل من الأشخاص الآخرين ينتظرون معي. أحدهم كان ذلك الرجل الأكبر سنًّا، الذي كان بعمر أربعين أو نحو ذلك، وكان يتحدث مع ابنه. كان الطفل بعمر خمس سنوات تقريبًا أو ست على الأكثر. ثم عند لحظة معينة، سمعت الرجل يقول للطفل: "هيا اذهب إذًا، لا تخف". كنت لا أنصت فعليًّا لأنني كنت ما زلت غاضبًا مما فعله الكاهن. وبينما كنت أفكر كيف كان ينبغي أن أقول له شيئًا بذيئًا، اتجه الطفل نحوي وشدني من ساق بنطالي. نظر جميع من في محطة الحافلات إلينا، بينما تفاجأت أنا وارتبكت كالأبله".

ضحك شيركيز. "تابع".

"حسنًا، نظرت إلى الأسفل، ورأيت الطفل يمد يده إلي. يا إلهي، حجم قبضته يا رجل... كان صغيرًا جدًّا".

ضحكنا معًا لأول مرة منذ أيام.

"أعطيته يدي، وخمن ماذا حدث؟ أسقط فيها مسبحة".

غمرت المشاعر تشيركيز. "أوووه، أنت تمازحني".

"أقول لك الحقيقة يا رجل. أعطاني مسبحته. إنها هي التي أرتديها الآن. وعلاوة على ذلك، قال: "هذه مسبحة جدتي. أعطتني إياها لحمايتي عندما يطلق الأشرار النار على المدينة"".

راقبني تشيركيز، بعينين دامعتين.

"على أي حال، استدار الطفل وعاد إلى أبيه. وقفت هناك مذهولًا. كان الجميع في محطة الحافلات يبتسمون. وكانت هناك امرأة تمسح عينيها بمنديل. ناديت على الطفل، وخلعت الشارة من قبعتي، وأعطيته إياها".

ضحك تشيركيز بسرور.

"يا إلهي يا تشيركيز. كان يجب أن ترى الفرح على وجهه. لقد اتسعت عيناه وامتلأتا بالسرور والبهجة الشديدة".

"لقد أعطاك مسبحة جدته، يا رجل. تخيل كم كانت تعني له".

"نعم. أكثر بكثير من أي ثمن كان يمكن للكاهن أن يضعه عليها".

سكت تشيركيز. تنشق قليلًا، ثم نزع الشارة من طية صدر السترة ونظر إلي. "أعطني خوذتك".

خلعت خوذتي وأعطيته إياها. قام بتثبيت الشارة على قماش التمويه الذي يغطيها وأعادها إلى رأسي.

”هذه هديتي لك“.

قضينا بقية المناوبة في صمت.

***

حل علي الصباح وأنا مستيقظ بالفعل، لذا أمسكت بخوذتي ونزلت لتناول الإفطار. كان تشيركيز وسيروفاك يقفان بالفعل في الردهة، ويتحدثان إلى ميلان المجنون. بدا أن سيرو كان يتحدث للرجل العجوز بالخطاب المعتاد حول درجات ابنه. كنت أعبر من جانبهم، لأقف في الطابور أمام المقصف، عندما بدأ ميلان المجنون، الذي بدا مصدومًا بشدة، يلاحقني بعينيه. توقف سيرو واستدار ليرى ما أزعج الرجل العجوز. وجدنا أنفسنا نقف في منتصف الردهة تمامًا مثل ذلك اليوم على الطريق. رمش ميلان بعينه، وهو بوجه سيروفاك، محاولًا على ما يبدو فهم ما كان يتحدث حوله سيروفاك. ثم ضاقت عيناه في حالة من الغضب. دفع سيروفاك بعيدًا واقترب مني، وأمسكني بشدة من مرفقي. التفت إلى سيرو وبصق عليه. ”أي درجات التي تتحدث عنها؟ ابني مات!“.

نظرنا بعضنا لبعض بقلق. يبدو أننا كنا نشهد إحدى نوبات اليقظة التي كان يعاني فيها الرجل العجوز مرارًا وتكرارًا من فقدان ابنه. التفت إلي. أمسك بي من حنجرتي وبدأ يخنقني بكل قوته. أبعدتُ يديه عني، ثم دفعته للخلف برفق. ترنح، لكن تشيركيز أمسك به ومنعه من السقوط.

نظر ميلان إلى تشيركيز وسيرو مشيرًا بإصبعه نحوي. ”لقد قتل ابني!“ تجمدنا بمكاننا من هول الصدمة. ألقى ميلان بنفسه نحوي مرة

أخرى. "لقد قتلت ابني! لقد قطعت رأسه!".

كان سيروفاك وتشيركيز يحدقان به فقط. تدخل العديد من الرجال الذين كانوا يمرون عبر الردهة، وأمسكوا بميلان وسحبوه إلى الخارج. أجلسوه على مقعد في الفناء وحاولوا تهدئته. كان يبكي بألم وحرقة، ويوجه من حين لآخر نظراته إلى مدخل المدرسة.

ابتلع تشيركيز ريقه بصعوبة، ونظر إلى سيروفاك. "سيرو. الرجل العجوز يحلق في الخيال تمامًا".

كان سيروفاك يحوم في مكانه، غير متأكد مما سيقوله.

اقترب مني تشيركيز. هز رأسه يمينًا ويسارًا وهو في حالة من الذهول. "إذًا هذا يعني أنه لم يكن بورنا".

شهقت مستجمعًا ما تبقى لدي من السخرية. "كلا، لقد سمعتم للتو، إنه أنا".

اتكأ سيروفاك على الحائط، ووضع يده في جيوبه بحثًا عن السجائر. نظر إلي نظرة حزينة. "بالأمس كان بورنا. اليوم أنت. غدًا سأكون أنا أو أي شخص آخر. من الواضح أنه يرى قاتل ابنه في كل شخص".

"لا أعتقد أن الأمر كذلك. برأيي المتواضع، أعتقد أنه رآني أنا وبورنا ونحن نطلق النار على ذلك المجنون في السيارة الحمراء، وبطريقة ما أعاد ترتيب الأحداث لتعني أننا قتلنا ابنه".

استنشق سيرو الدخان وقدم لي سيجارة أخرى. "لكن هذا لا يغير أي شيء. فلا يزال بورنا منهم كما ثبت ذلك".

رفضت السيجارة. "لا شكرًا. أملك سجائري".

كانت هناك سيجارتان أو ثلاث مثبتتان بخوذتي دائمًا. خلعتها حتى أتمكن من تدخين واحدة الآن. وقد جعلني ذلك ألقي أول نظرة جيدة على الشارة التي أعطاني إياها تشيركيز بالأمس في الظلام. كانت الشارة مُلصقة بالجانب الذي يقول "وُلدت لأقتل" بعد الكلمة الأولى مباشرة. اتسعت عيني بذهول. لقد بات لدي شعار جديد مروع، وقد رتب نفسه من تلقاء نفسه. عرضتها على تشيركيز حتى يتمكن من قراءتها. "بورنا يقتل BornA to Kill ".

نظر تشيركيز إلي. "تذكر ما قلته لك أمس؟ لا يمكنك الهروب من القدر. ربما ولدت لقتله".

عندها فقط مر الرفيق السياسي وألقى نظرة على النقش على خوذتي. "لا أعتقد أن هذا صحيح نحويًّا. بل كانت يجب أن تكون اقتل بورنا To Kill Borna ".

نظر إليه تشيركيز من الأعلى إلى الأسفل بتعبير ساخر. "هذا إن كنت أنت على صواب، نحويًّا وسياسيًّا".

سار الرفيق السياسي في اتجاه غرفة العمليات. اقترب مني سيرو. "لم تنم كثيرًا في الأيام القليلة الماضية، هاه؟".

"ما زلت واقفًا. مما يعني أنني بخير".

"احصل على قسط من الراحة بعد الإفطار. ستقوم بمرافقة كفاتيرنيك إلى اجتماع لقادة الألوية. سيبدأ في الساعة العاشرة".

"سيرو!" بدا شيركيز ثائرًا. "لقد عدنا للتو من مهام الحراسة".

"أنا أعلم، لكن الآخرين عادوا لتوهم كذلك".

رمقني سيرو بنظرة استجداء. "أنت الرجل الأكثر ثقة لدي، وكفاتيرنيك نفسه لا يريد أي شخص من الشرطة. لقد طلبك أنت على وجه التحديد. علاوة على ذلك، لدي أخبار جيدة. لقد سبق لي أن أخبرت الآخرين. سنحصل على تعزيزات غدًا. هناك توجيه رسمي جديد أيضًا. أي شخص من الوحدة يطلب إعفاءه من خدمته العسكرية تتم الموافقة على طلبه. وأي شخص يبقى ستتم ترقيته، حتى إن البعض منكم سيحصلون على مناصب قيادية. وستكونون قادرين على العودة إلى المنزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ومن الآن فصاعدًا، ستُعفون من جميع المهام بخلاف الاستطلاع".

"ماذا عن العمل الذي كنا نقوم به حتى الآن؟" سأل تشيركيز.

"ستتولى الشرطة العسكرية المسؤولية بالكامل. سوف يتم نقلكم إلى مجموعة الاستطلاع المشكلة حديثًا. جميعها من المتخصصين".

"وماذا نكون نحن بحق الجحيم؟" قال تشيركيز. "هواة يعبثون في الحرب؟".

قلت: "نحن ممثلون يا تشيركيز. وسيأتي ممثلون بديلون متخصصون في تمثيل الأجزاء الخطرة لتأديتها بدلًا منا".

"توقفا عن نوبات الانفعال تلك كلاكما! أليس هذا ما تريدانه؟".

قلت: "أريد فقط أن أعود إلى المنزل في أسرع وقت ممكن".

قال تشيركيز: "أنا أيضًا. أريد أن تنتهي الحرب".

قلت: "لا أبالي إذا انتهت بي أو من دوني. أريد فقط العودة إلى المنزل".

رمقني سيروفاك بنظرة استغراب. لم يسمعني أبدًا أتحدث هكذا من قبل.

قال: "تحدثنا عنك في اجتماع القادة هذا الصباح. وقمت بترشيحك لتكون القائد الجديد للاستطلاع".

لم أرد. أعتقد أنه أدرك في تلك اللحظة أنني قد وضعت بالفعل حدًّا للأمر وأنني سئمت وتعبت من الحرب. ومع ذلك، لم يكن مستعدًّا لقبول ذلك. ألقى نظرة علي قبل المغادرة. "كل واحصل على قسط من الراحة، ثم سنتحدث. وأزل تلك الرموز الفاشية". أشار إلى الخوذة التي كانت تتأرجح في يدي.

كان تشيركيز يحاول السيطرة على ضحكاته بصعوبة. "الرموز الفاشية؟ ماذا بحق الجحيم؟ هاهاهاها".

"أنا جاد، يا تشيركيز. سيأتي مراقبون أوروبيون لزيارتنا. ستكون هناك أطقم تلفزيونية ومتحدث باسم الرئيس. لقد أُمرنا بعرض الرموز الرسمية فقط. آخر شيء نحتاج إليه هو أن يراك شخص ما بذلك".

استقام تشيركيز بطريقة مسرحية. وبدأ التهريج والإتيان بحركات عبثية. للحظة، كان يبدو كما لو أن سبيدي كان يقف بجانبنا في الظل، يستعد للانضمام. "والرئيس نفسه؟" قال تشيركيز بلطف. "ألن يقوم والد الأمة بزيارتنا؟".

ألقى سيروفاك نظرة على غرفة العمليات. "أبقِ صوتك منخفضًا يا تشيركيز".

أشحت بنظري للأعلى. "ليس لدي أي فكرة عن كيف يكون أحدهم والدًا لأمة، على أي حال".

هز تشيركيز كتفيه. "من خلال مضاجعة والدة الشعب بالتأكيد".

كان الرفيق السياسي يجوب الردهة مرة أخرى، في الوقت المناسب تمامًا للاستماع إلى الملاحظة. رمقني أنا وتشيركيز بتعبير مهين. ثم ألقى نظرة توبيخية على سيروفاك، وهو يبدو أنه يشعر بالاشمئزاز من عدم قدرته على إسكاتنا. اقترب من تشيركيز، لكن وهو حريص على ألا يدخل في مواجهة معه. "كيف تجرؤ على السخرية من القائد العام!".

"بينما أخاطر بحياتي، يمكنني أن أسخر من أي شخص أريده، أيها الرفيق السياسي".

احمر وجه الرفيق السياسي وهمس: "ألا يوجد شيء مقدس بالنسبة لك؟".

فقد تشيركيز أعصابه. أمسك الرفيق السياسي من ياقة السترة ودفعه نحو الحائط. انتقل من حالة الهدوء إلى الانفجار في لحظات معدودة. احمرت عيناه. أصبح صوته ممتلئًا بالغضب. "مؤخرتي أقدس بالنسبة لي من القدس. ابق بعيدًا عني بحق الجحيم، من هذا اليوم فصاعدًا متى قابلتني في هذه الممرات. اغرب عن وجهي إلى غرفتك اللعينة، واكتب تقاريرك، واجمع نقاط الترقية الخاصة بك، وامصص قضبان الآخرين وتملقهم حتى تصل إلى أعلى المناصب. أرسل الأموال إلى ابنك

في إيطاليا واستغل كل اتصالاتك ومعارفك في وزارة الدفاع حتى لا يرسلوا إليه خطاب تجنيد مرة أخرى. احتفظ بأشخاصك الغالين بأمان، واحلم بالتقاعد، واترك القتال لنا نحن الذين لا نرى أي شيء مقدس".

أفلت السياسي من قبضة تشيركيز. ركض بشكل جانبي أسفل الردهة، وزلق ظهره على الحائط. "سوف تدفع ثمن هذا!".

ركض تشيركيز وراءه، لكن سيروفاك أمسك به من حول خصره وألقاه على الأرض. "اثبت مكانك، يا تشيركيز. المباراة بأكلمها هي ما تهم يا تشيركيز وليست جولة واحدة. تذكر ذلك يا تشيركز. المباراة بأكملها".

مشيت إلى الرفيق السياسي، وخاطبته بنبرة ودية. "هل تعرف ما هو أول شيء تعلمناه عندما جئنا إلى هنا؟ لا؟ تعلمنا كيف نقتل الرجل بثمن بخس".

نظر إلي الرفيق السياسي بعينين يملأهما الرعب.

"كل ما تحتاجه هو ولاعة سجائر بلاستيكية عادية. ضعها في أنبوب عادم السيارة. عندما يسخن الأنبوب، يذوب البلاستيك ويخرج السائل. لا أعتقد أنني بحاجة إلى شرح ما يفعله السائل في الأنبوب الساخن؟ يشق الحريق طريقه حتى يصل إلى المحرك، وبوووم!... يا رجل هناك عالم كامل من حولك لا تتخيل وجوده حتى. التزم بعملك، ولا تغادر برجك العاجي".

هرب الرفيق السياسي دون كلمة. بينما لا يزال سيروفاك وتشيركيز يتصارعان على الأرض.

كفاتيرنيك

سرعان ما كنت أترنح في المقعد الخلفي لسيارة جيب، جالسًا خلف كفاتيرنيك وسائقه. كنا نسلك طريقًا وعرًا ومتعرجًا إلى فندق مهجور في أعلى الجبل. كان الفندق هو المكان الذي اختارته وزارة الدفاع للاجتماع الذي كان يتوجه إليه كفاتيرنيك. تقرر حضور قادة الوحدات من جميع المناطق المحيطة. عندما توقفت السيارات، واحدة تلو الأخرى، أمام الفندق، نزل القادة واختفوا على الفور خلف أبواب مغلقة. تجمع السائقون والحراس الشخصيون في بهو الفندق. رحنا نحدق ببعضنا لتكوين انطباعاتنا بما أن الجميع سيبقى منتظرًا لوقت طويل. مع وجود الكثير من الأمور التي يتعين علي التفكير بها من الأيام السابقة، كنت أُفضل البقاء في المدرسة وجمع شتات أفكاري. لكن الآن بعد أن جئت هنا، بدا تغيير الأجواء مع بعض الوجوه الجديدة فكرة جيدة.

انضممت إلى الآخرين في مقهى الفندق. كان البعض يتناولون بالفعل المشاريب ويتفحصون أسلحة بعضهم بعضًا، ويعلقون على من كان يستخدم ماذا. في البداية، ظلت المحادثة تدور حول من كان أين، وماذا نعرف عن الوضع على طول خط المواجهة. وعندما شعر الجميع أنهم صاروا على إطلاع كافٍ، هدأ الجو وتحولت المحادثة إلى حكايات مختلفة من وحداتنا. أثبت الرجال المجتمعون أنهم مجموعة مذهلة. إذ لم يقتصر الأمر على وصول معظمهم مبكرًا إلى الخطوط الأمامية ولكن كان لديهم ما يكفي من قصص الحرب الرهيبة التي بإمكانها أن تحبس

أنفاس حتى أقرانهم من ذوي الخبرة. كنت لن أصدق على الأرجح نصف ما سمعته لو لم أكن قد مررت ببعض تلك المواقف المذهلة بنفسي.

كانت القصص الأولى مضحكة في الغالب. لكن المأساة لم تتخلف كثيرًا عن الركب. سمعنا عن الدوريات الليلية المفزوعة التي فتحت النار على أبقار ضالة، ولكن أيضًا عن الجنود القلقين الذين أطلقوا النار على مدني مسالم كان عائدًا إلى المنزل على دراجته ذات الصوت الحاد. كانت أفضل القصص تلك التي تتحدث عن غريبي الأطوار. لم تكن توجد وحدة تخلو منهم. أخبرتهم عن تلك المرة التي اختبر فيها تشيركيز سترة واقية من الرصاص استعرناها من الشرطة المدنية. كان أي شخص آخر سيسندها إلى جدار أو شجرة. لكن تشيركيز ارتداها بنفسه وأطلق النار في صدره. دفعه الاصطدام عدة أمتار في الهواء، مما تسبب له في مجموعة من الكدمات ذات الألوان الزاهية التي امتدت لأسابيع. قبل أن يهدأ الضحك، انطلق الراوي التالي، وسرعان ما تم خلق إيقاع وتناغم بيننا. تناوب الرواة، وتناوبت ردود أفعال الجمهور بين التنهد في الدهشة والسب في ذهول.

اتضح أن وحدتي لم تكن وحدها التي تعاني من نقص في الأفراد. أخبرنا رجل في مثل سني أن النقص في الناس يمثل نصف مشكلتهم فقط. لقد عانوا بسبب رداءة الملابس وعدم وجود تسليح كافٍ. فمثل هذه الأسلحة التي كانوا يملكونها، التي سُرقت في الغالب من مخازن الجيش المنسية، والتي عادة ما تكون من مخلفات الحرب العالمية الثانية، هي مناسبة للمتاحف أكثر من ساحة المعركة المعاصرة. كان يكفي أن ننظر إليه لنرى أنه لم يكن يبالغ. كان يرتدي زيًّا رسميًّا باهتًا، مقترنًا بحزام أبيض جديد غير متناسق مع زيه. قال: "بالطبع، أنتم

تريدون أن تعرفوا كيف حصلت على الحزام. أعطاني أحد أفراد الشرطة العسكرية من المدينة إياه، لكنكم ستحبون سماع كيف حدث ذلك".

ذات مرة، زار قائد القطاع بأكمله وحدتهم. جاء محاطًا بحارسين مهيبين. وبينما كان يتحدث مع العقيد المحلي، قام مرافقاه -اللذان كان شكلهما مذهلًا- بحراسة الباب. كان طولهما أكثر من مترين، ويرتديان زيًّا رسميًّا مضبوطًا بدقة على أجسادهما، وكانا مشهدًا يستحق التأمل. كان لدى كلاهما أحزمة بيضاء جديدة، وأحذية لامعة جديدة، وقبعات مصقولة بدقة. كانت أسلحتهم جديدة أيضًا. شيئًا فشيئًا، تجمع رجال الوحدة حولهما، محدقين بهما كما لو كانا من فصيلة كائنات حية غير معروفة. كان الاثنان يحظيان باهتمام كبير، وكانا حريصين على التفاخر وإعجاب الآخرين لأنهما كانا يفتقران إلى الخبرة ويودان إخفاء ذلك. لقد كانا يعطيان إجابات متعجرفة لأسئلة الرجال هناك بينما أبقى الرجل الذي يخبرنا القصة جهازه اللاسلكي يعمل آنذاك ولم يغلقه.

"ما هذا السلاح؟" سأل أحد الرجال المحليين.

قال أحد الحراس اللذين كانا يرتديان ملابس أنيقة: "بندقية ماركة براوننج. بمقبض أعسر. منتج ممتاز".

قام بفك أزرار الحافظة الخاصة به، واستعرض سلاحه أمام الحشد، وهو متفاخر ومغتر بنفسه.

"هل ترتد؟" سأل الرجل المحلي.

"ماذا تقصد بهل ترتد؟ تقصد، عند الإطلاق؟".

"بالطبع، عند الإطلاق. هل ترتد للخلف كثيرًا؟".

بدا الأنيق في حيرة من أمره. أعاد سلاحه إلى الحافظة، وهو يخفي قلقه. "لا أعلم".

"هل تقول إنك أتيت إلى الخطوط الأمامية بسلاح لم تطلق منه طلقة واحدة من قبل مطلقًا؟ كان من الأفضل لك أن تحمل ملعقة في هذه الحافظة الفاخرة الخاصة بك!".

سرعان ما كانت الردهة بأكملها تعج بالضحك، ووجد الرجلان مفتولا العضلات صعوبة متزايدة في الحفاظ على تأثيرهما الفائق. انقطع الضحك فقط عندما جاءت سلسلة من الصيحات عبر جهاز اللاسلكي. هدأ الرجال المحليون، وتجمعوا للاستماع. بينما أعطاهما القادمان الجديدان تعبيرات قلقة.

"المخفر يتعرض للهجوم!".

في الصمت الذي حل في الردهة، كان صوت الراديو الضئيل مخيفًا. كان الأمر، كما قال صاحبنا الذي يحكي، مثل الاستماع إلى بث مباشر للاحتضار. لم يترك الصراخ والشتائم الآتية من جهاز اللاسلكي أي مجال للشك في أن وحدة الحراسة بأكملها قد قُتلت. شعرت بعدم الارتياح لأن القصة جعلتني أفكر في تلك الليلة عند المنشرة. تحركت بعدم ارتياح في مقعدي، متسائلًا بداخلي عما إذا كنت سأتحرر يومًا ما من تلك الليلة.

قال صاحبنا: "... بدأنا نركض ذهابًا وإيابًا في الردهة بينما نصرخ بأننا نتعرض للهجوم. هرع هذان الحارسان، ووجهما شاحب تمامًا، إلى غرفة الاجتماعات واقتحماها وقاطعا اجتماع القادة، وصرخا في

ذعر: "سريعًا، سريعًا، يجب أن نهرب من أجل حياتنا!" يا إلهي.. ظللنا نضحك لساعات".

بدأنا نرتبك في مقاعدنا. كان الناس يسعلون ويلقون بالنظرات الحائرة على بعضهم. لم أستطع أن أصمت. "أنا آسف، لكني لا أرى ما المضحك".

"يا رجل". قال الرواي ضاحكًا. "من برأيك كان على الطرف الآخر على اللاسلكي؟ لقد كان رفقاؤنا من المهجع، يقدمون عرضًا لهذين المتفاخرين!".

اجتاحت موجة من الارتياح الغرفة. بدأنا في الابتسام، ثم قهقهنا بصوت عال، ورحنا ندفع بعضنا بعضًا بينما كنا نمرر الولاعة بيننا. عاد الجو هادئًا مرة أخرى، وأصبحت الردهة محاطة بسحابة تأملية من دخان السجائر. تحدث رجل أصلع في منتصف العمر، وهو أحد أعضاء الشرطة العسكرية وكان يشغل منصب حارس أمن مدني من قبل، وقدم لنا نفسه على أنه بولي. لقد تحلى بالشجاعة ليروي القصة التي رواها له ابن عمه. كان ابن عم بولي من الشرطة العسكرية أيضًا. ولفترة من الوقت كان يقوم بواجب الحراسة في سجن المدينة، حيث كان في إحدى الزنازين، في الحبس الانفرادي، سجين خاص تم احتجازه؛ وهو قائد ثكنة البلدة في جيش البلد السابق. كان القائد هو الرجل الذي تسبب في مقتل العديد من المدنيين عندما أمر بقصف المستشفى المقابل لثكنته في الشارع. تفرق جنوده الشباب غير المدربين في أعقاب الحادث. بينما تم القبض على القائد نفسه ووضعه في زنزانة انفرادية. وكانت تقوم بزيارته ليلًا امرأة قُتلت طفلتها في القصف. كل مساء، كان

الحراس يسمحون لها بالدخول إلى الزنزانة، ويغلقون الباب خلفها. كانت تدخل هادئة وهي ترتدي ملابس لائقة كما لو كانت ذاهبة إلى الكنيسة، مع وشاح أبيض حول رأسها وحقيبة من القش على ذراعها. كانت تخرج في الصباح ملطخة بالدماء. لم يعرف أحد بالضبط ما كانت تحمله في حقيبتها، لكن الغرض من الزيارة كان واضحًا بدرجة كافية. حتى مستأجرو المباني المجاورة تحدثوا عن الصرخات المؤلمة التي كانت تأتي من السجن في الليل.

في المرة الأولى التي تم فيها تكليف ابن عم بولي بالحراسة في الليل، التقى بالمرأة التي أتت كالمعتاد. كان يعرف من تكون ولماذا كانت هناك، لذلك أوضح لها بأدب أنه لن يسمح لها بالدخول إلى الزنزانة. كان للمرأة الحرية في أن تحاول غدًا أو متى كانت مناوبة شخص آخر؛ فهو لن يسمح بشيء من الأعمال الدامية في مناوبته. لم تعترض المرأة. جلست فقط وتحدثت معه لفترة. ألقى الضوء المتناثر بظلاله على وجهها بينما كانت تحكي له قصتها.

قالت المرأة: "كنت أمضي ليالي بلا نوم كلما احتاجتني، أستيقظ، وأصنع الشاي، وأضع كمادات باردة على جبهتها، وأقيس درجة حرارتها. كان كلما يحل الظلام وهي لم تعد إلى المنزل من المدرسة، يملؤني القلق الشديد حتى تعود. كنت أحملها في حضني إلى عيادات الأطباء، وأوصلها إلى أنشطة ما بعد المدرسة، وأدرس معها، وأساعدها في واجباتها المدرسية، وأصنع الفساتين لدميتها، وأصطحبها إلى الحدائق والغابات الطبيعية للتنزه. كنا نقطف الزهور من المروج والتوت في الغابة ونعود إلى المنزل لصنع المربى. علمتها كيف تقوم بخياطة الملابس، وخبز الفطائر، وطبخ الطعام. كنت أحممها وأمشط

شعرها وأحكي لها قصص ما قبل النوم ونرسم معًا رسومات جميلة. لقد كانت هي كل حياتي. عندما بدأ زوجي يشرب الكحول ويضربنا، حزمت حقائبنا وأخذتها من يدها ورحلنا وتركناه. لم أتزوج مرة أخرى أبدًا، ولم أنظر إلى أي رجل آخر. لقد وهبتها كل حياتي، لكن كان لا يزال القدر ينتظرني حيث أردت أن أهرب منه. لقد أجرت عملية الفتق. كان من المفترض أن تعود إلى المنزل في ذلك اليوم. لكنه قرر قصف المستشفى بالقنابل اليدوية وإظهار قوته للجميع. وماذا بقي له الآن من هذه القوة؟ لا شيء سوى كراهيتي. إنه الشيء الوحيد الذي يبقينا نحن الاثنين أحياء الآن. لقد أصبحت مجرد جسد بلا روح، أتغذى فقط على ما بداخل تلك الزنزانة. أدعو الله أن نظل أنا وهو بصحة جيدة حتى لا يخرج من هناك قريبًا. من الذي لن يمتلئ قلبه بالكراهية لو كان بمكاني؟ من له الحق في أن يحاكمني؟".

لقد أزعجتنا قصة تلك الأم المخلصة التي تحولت إلى غول. أستطيع أن أقول من وجوه الناس إنه لم يكن هناك أحد يحكم عليها. وفي رواية بولي، لم يحكم عليها ابن عمه أيضًا، لكن كانت لديه مبادئه التي لا يمكنه الحيد عنها. لقد كرر للمرأة ببساطة أنها لن تدخل الزنزانة في تلك الليلة. قامت من على الطاولة. ورمقته بنظرة سيجد صعوبة في نسيانها.

"إذًا أنت لن تسمح لي بالدخول؟".

"أنا آسف، لكن لا".

كما أوضح بولي، لم يكن لدى ابن عمه رغبة في أن يستعرض قوته على المرأة على اعتبار أنه يملك السلطة والقدرة على إبعادها. أراد

فقط أن يوضح لها موقفه، وبعدما حدث ذلك لفت وشاحها حول رأسها وغادرت. علقت قصتها برأسه، لذا قام ببعض التنقيب. عَلِم أنها عانت لسنوات من سوء المعاملة الزوجية. لقد تركت زوجها، كما أخبرته، فقط عندما بدأت ضرباته بالسقوط على الطفلة. ذهبت هي والفتاة للبقاء في منزل والدتها، بينما احتفظ الزوج بالشقة وحياته المهنية. ومن مفارقات القدر القاسية، أن الفشل في المنزل قد ساعد الزوج في العمل. إذ من أجل مواساته في آلامه، قام رؤساؤه بترقيته. أصبح قائد حامية البلدة؛ أي الرجل الذي أمر بقصف المستشفى وقتل طفلته. ما كانت تحمله المرأة في حقيبتها هو صور الفتاة الصغيرة. كانت تُريها لزوجها السابق في زنزانته، وتسبه وتلعنه وتضربه بقضيب معدني. وهو لم يدافع عن نفسه أبدًا.

قال بولي: "لكن الجزء الأكثر رعبًا هو الطريقة التي تركت بها ابن عمي. وهي في طريقها للخروج، رفعت رأسها عاليًا وقالت له: "أتمنى أن تموت وحيدًا في حفرة مهجورة، وتبقى هناك لفترة طويلة"".

جلسنا في صمت بينما دخان السجائر يتموج من حولنا. ارتجف أحد الحراس الأصغر سنًّا، كما لو كان يحاول التخلص من شخص غير مرئي يعانقه من الخلف.

قال بولي: "لا يمكنني التوقف عن التفكير في تلك اللعنة. قُتل ابن عمي قبل أسبوعين. وجده العدو في المنشرة. لقد ترك وراءه زوجة وطفلين".

في ختام القصة، شعرت كما لو أن شخصًا ما قد غرز حربة في بطني. ظللت صامتًا. فأن أخبر بولي بأنني عرفت للتو من هو ابن عمه بدا أمرًا غير متعلق بنقاشنا وبلا مغزى.

استمر الحكي. بات لدى الجميع رغبة في سرد القصص. لقد أراد كل واحد فرصة لإخبارنا إحدى مغامراته. كانت القصص الطويلة والقصيرة والمضحكة والحزينة تتدفق بحرية مع القهوة والمشروبات الكحولية. في النهاية، وفي جو مرح، فتحنا موضوع الأفعال المدهشة والاستثنائية في القتال التي إما رأيناها أو سمعنا عنها. إذا عاش أي من الأشخاص الذين كانوا هناك في تلك الليلة طويلًا بما يكفي ليكون لديهم أحفاد، فسيكون لديهم ما يكفي من القصص ليحكوها لهم حتى وصولهم إلى الجامعة. القصة التي تصدرت كل القصص الأخرى جاءت من السائق الذي كان برفقة قائد اللواء الذي سيطر على المنطقة الواقعة إلى الشمال من منطقتنا.

في القطاع المجاور لهم، في أحد الألوية الأخرى، كان هناك جندي شاب اسمه ماكس. كانت قصته مذهلة منذ المقدمة ذاتها لدرجة أن الرجال هدؤوا وجذبوا كراسيهم أقرب نحو الراوي مشكلين بها دائرة. كان ماكس من قرية على الجانب الآخر من الخط الفاصل. في بداية الحرب، كان يخدم فترة تجنيده في جيش الدولة السابق. حينها في قرية ماكس، كانت القوات شبه العسكرية قد تشكلت بالفعل. كان الجيش النظامي يمدهم بالأسلحة، ويحفز ويدفع القرويين للقتال من خلال قصص قتلة مفترضين كانوا يستعدون بالتأكيد لمهاجمتهم. مع انتشار الخوف والبارانويا، لم يضيع القرويون أي وقت في حمل السلاح. وسرعان ما نفذوا الضربات الاستباقية الأولى ضد القرى من

جانبنا. أصبحوا في حالة انغماس شديدة في الحرب لدرجة أنهم أنشؤوا ميليشيا صغيرة، كانت تسيطر على جميع الطرق القريبة. وكان في مقدمتهم كاهن القرية؛ الرجل الذي كان، بالمناسبة، عراب ماكس، والذي اختار الآخرون أن يكون في القيادة.

من بين القرية بأكملها، رفض والدا ماكس فقط التسلح. ذات ليلة تصدى لهم باقي أهل القرية، وتجمعوا أمام منزلهم. كان يقودهم صديقهم القديم، الرجل الذي استبدل رداءه بزي عسكري. استدعاهما إلى الفناء، وطلب منهما الانضمام إلى الميليشيا المحلية مرة أخرى. تردد والدا ماكس، وفجأة خافا من جيرانهما، الذين كانوا مسلحين تمامًا، وكأنهم قطاع طرق.

حاولا النقاش معهم بعقلانية، قائلين لهم إن النزاع الذي نشأ بين الدول ليس من شأنهم، وأنه لا ينبغي أن يكون من شأن أي شخص آخر في القرية، وأن الأمر متروك لسلطات كل من الدولة القديمة والجديدة لإيجاد حل عقلاني. غير أن العقل قد احتل مقعدًا خلفيًّا، كما كان يحدث غالبًا في تلك الأيام.

كان الجيش النظامي قد انخرط بالفعل في الحرب علانية. كان ماكس قد قرر بالفعل قطع فترة تجنيده القصيرة والهروب. ورأى أن الوقت قد حان عندما كانت وحدته تنتقل من مكان لآخر. كان على متن شاحنة محملة بالذخيرة في مؤخرة الركب. عندما وصلت القافلة إلى مفترق طرق أخرج السائق عنوة وأخذ مكانه وانطلق في اتجاه مواقعنا. انفصلت إحدى المركبات ذات الوزن الخفيف على الفور عن الركب

وطاردته. استمر سباق ماكس للنجاة بحياته نحو عشرة كيلومترات؛ رحلة سريعة تخللتها رشقات نارية، والتي انتهت فقط عندما وصلت كلتا السيارتين إلى أراضينا واضطر المطاردون إلى تقليص خسائرهم والعودة إلى الوراء. سلم ماكس الشاحنة والبضائع في أقرب مركز استجابة للكوارث، حيث قدم له رجالنا ملابس مدنية حتى يتمكن من العودة إلى المنزل. لم يكن قد تم تعيين الخط الفاصل في ذلك الوقت، ولم يكن هناك أي إجراء خاص. بدأ ماكس رحلته عبر الغابة ووصل إلى قريته في اليوم التالي. عندما وصل، وجدها تحولت إلى معسكر للجيش. كان منزل والديه فارغًا. اعترضته مجموعة من القرويين المسلحين واقتادوه إلى عرابه، الذي كان يحكم حينها المعسكر. استقبله الكاهن السابق بخطاب حزين عن جنون وتقلب الزمن. أخبر ماكس أن والديه صدما الجميع بتخليهما عن شعبهما والتخلي عن ابنهما. قال إن ماكس كان فخرًا وفرحًا للقرية بأكملها، وهو أول فتى محلي يخدم في قوات النخبة الخاصة، وكان من المؤلم للغاية أن يبصق والداه على الإيمان والشرف والأقارب ويتنقلان عبر الحدود لمحاربة ذويهم.

استمر ذلك الكذب المحير حتى المساء. وفهم ماكس عندما وجد والديه وشقيقته مذبوحين، وجثثهم ملقاة في البئر الموجودة أمام منزلهم. في نفس تلك الليلة، هرب من القرية، وركض عبر الحقول ليصل إلى جانبنا. قال لرجالنا إنه منشق عن جيش البلد السابق، وتطوع للانضمام إلى قواتنا. على الرغم من أن اسمه لم يدرج في السجلات الرسمية، فقد تم قبوله في اللواء المحلي. في الليل، كان يغادر من تلقاء نفسه. كانت الأنباء التي تعقب مغادرته تتمثل في تدمير مخازن الذخيرة وتخريب الدبابات وتدمير نقاط الحراسة ومواقف السيارات المليئة بالسيارات

التي تم حرقها. لم يمض وقت طويل قبل أن تنتشر قصته، فتأثر الضباط بما لا يقل عن القوات. لقد أصبح الجميع يعاملونه كأهم ما لديهم.

زوده طاقم اللواء بالمعدات التي طلبها، وظل ماكس يغادر في غاراته الليلية. كان يعرف كل شجرة في المنطقة وكان وحده أقوى من دوريات العدو. وبقدر ما كان جريئًا وسريع الذكاء، دمر معدات العدو، ودمر معسكراتهم، وجمع المعلومات لإعادتها إلى كتيبته. لم يكن هناك موقف لا يستطيع التكيف معه، ولم يكن هناك مخطط جريء للغاية بالنسبة له على إدراكه وتنفيذه. لقد كان بمثابة جيش وحده، قادرًا على مواجهة أي تحدٍّ والخروج سالمًا. كان كلما يغادر، يخاف رفاقه من أنه لن يعود، ولكن كان دائمًا يجدونه هناك صباح اليوم التالي يتناول معهم الإفطار. وعندما كانوا يسألونه كيف كان أداء الليلة الماضية، يقوم فقط برفع إبهامه قائلًا: "تمامًا مثل ماكس الغاضب"[38].

ومع ذلك، مثل كل حكايات البسالة العظيمة، انتهت قصة ماكس أيضًا بالحزن. أخبرنا السائق أنه ترددت الأقاويل أن ماكس ذهب في مهمته الأخيرة عشية يوم ذكرى الأموات. غادر عند الغسق، مجهزًا بأسلحة مضادة للدبابات. ولم يرَه أو يسمع عنه أحد مرة أخرى. لا يمكن أن يكون قد ضل الطريق -كان الجميع على يقين من ذلك- لأنه غالبًا ما كان يقطع عشرات الكيلومترات في ليلة واحدة ولا يزال يعود بأمان إلى كتيبته. مع مرور الأسابيع وعدم ظهور أي علامة على وجوده حتى الآن، كان على أكبر المتفائلين قبول أنه قُتل.

عندما أنهى السائق قصته، لم ينبس أحد ببنت شفة. جلسنا في صمت

38- ماكس الغاضب Mad Max هي سلسلة أفلام حركة أسترالية صدر أول فيلم فيها عام 1979. (المترجم)

لفترة طويلة ورؤوسنا منحنية في دائرة. في نهاية المطاف، أطلق رجل قوي البنية بشارب شيب تنهيدة ثقيلة. "أتمنى لمن قتله ألا يجد السلام أبدًا".

تنشقت نفسًا طويلًا عميقًا وتوقفت عن متابعة المحادثة. لا أعرف كم من الوقت بقينا هناك، لكن الظلام كان قد حل عندما كنا في طريق عودتنا.

***

جلست في المقعد الخلفي للجيب وفكرت في الأوقات التي قضيتها مع بورنا. لقد جعلني الوشم على كتفه مقتنعًا جدًّا بأنه كان متطوعًا في قوات العدو. اعتقدتُ أنه سارع للانضمام إلى القوات الخاصة سيئة السمعة في اللحظة التي بدأت فيها الحرب. الآن فهمت أنه دخل الخدمة في وقت السلم. كان أحد أفراد آخر جيل من المجندين الذين تم تجنيدهم من جميع أنحاء البلاد قبل أن ينهار البلد. بعد شهور فقط من تجنيدهم، اندلعت الحرب وغيرت القواعد. لكن بورنا حصل على وشمه قبل أن يعني ذلك الولاء. حصل عليه، مثل الأجيال التي سبقته، كذكرى من الوقت الذي قضاه في الخدمة. لقد فعل الكثير من الرجال الأكبر سنًّا من جانبنا الشيء نفسه في وقتهم، ولا يزال لديهم الوشم لإثبات ذلك.

فكرت أيضًا في اليوم الذي حصلنا فيه على اللقاحات والخطاب الذي ألقاه للطبيب. لقد أخبرنا بسره في ذلك الخطاب، رغم أنه لم يفهمه أحد في ذلك الوقت. "هؤلاء الناس وافقوا على التواجد هنا. وإذا كان هناك ثمن يجب دفعه مقابل ذلك، فهم على استعداد لدفعه. لكن يجب إبعاد عائلاتهم عن الأمر".

كم أفهم جيدًا الآن. لقد سُلبت منه عائلته وإيمانه بالناس بأقسى طريقة ممكنة. لم يتوقف أبدًا عن الانتقام لهم، وقد فعل ذلك بشكل متوافق مع كلماته، متصالحًا مع دفع أي ثمن، غير مكترث بسلامته. في الليلة التي التقينا فيها، كان في إحدى غاراته، التي أخذته إلى أبعد من المعتاد لأنه كان يتابع رتلًا من الدبابات. لقد أُخذ على حين غرة عندما انضم إلى الرتل وحدة مشاة آلية أخرى، وهو ما حدث فقط لأن العدو كان في منتصف هجوم ضد لوائي. لقد كان حظًّا رائعًا لي أنه تم أسره من قبل نفس الدورية التي أسرتني لاحقًا، بينما لو كان حظه جيدًا، كانت لن تتقاطع طرقنا أبدًا. كانت قصته عن إصابته عن طريق دبابة حقيقية. كان فقد ذاكرته حقيقيًّا. لو لم يكن الأمر كذلك، لكان من السهل عليه أن يبرئ نفسه من كل الاتهامات.

قطع كفاتيرنيك حبل أفكاري بالنظر إلي من مكانه في المقعد الأمامي. ابتسم لي. "ليس لدى سيروفاك سوى المديح لك. يقول إنك أحد أفضل الرجال في وحدته".

هززت كتفي بلا مبالاة. فبصرف النظر عن وجود أشياء أخرى في ذهني، لم أكن أهتم حقًّا.

نظر إلي كفاتيرنيك بفضول. "لقد أصررت على مرافقتك لي. هل أخبرك؟".

"أخبرني أنك طلبتني على وجه الخصوص. بصراحة، لقد تفاجأت".

ظل ينظر إلي من فوق كتفه. "من النادر أن يتحدث قائد بإعجاب عن أحد جنوده. خاصة عندما يكون القائد في طريقه إلى منصب آخر".

”سيروفاك سيغادر؟“.

”لقد تمت ترقيته. وسيحل محله في اللواء زميل متمرس كان يعمل في وزارة الداخلية. هل أخبركم أنكم ستحصلون على تعزيزات غدًا؟ وحدتكم ستنفصل عن الشرطة العسكرية“.

”ذكر شيئًا من هذا القبيل، لكن ليس بالتفصيل“.

استدار كفاتيرنيك في مقعده بالكامل، ليصبح مواجهًا لي. ”أعتقد أن قيادة الجيش تدرك أنكم جميعًا منهكون بالعمل منذ البداية. الخسائر التي تكبدتموها تم عزوها إلى ذلك أيضًا. لكن الأمور ستتغير للأفضل الآن. سيصبح جدول مهامكم أخف بكثير. وإذا أراد أي من القدامى مثلك الإعفاء من الخدمة والعودة إلى المنزل، فما عليه سوى التوقيع على الأوراق“.

فركت عيني. كنت متعبًا جدًّا لدرجة أنني شعرت وكأن جفني يتدلى وحده. كنت مضطرًّا للذهاب في هذه الرحلة بعد الإفطار مباشرة، ولم أنم حتى قبل مناوبة الحراسة الليلية السابقة. شعرت وكأنني مثقوب بعدد لا يحصى من الثقوب الصغيرة التي كانت قوتي تتسرب من خلالها. وكان حديث كفاترنيك يستنزفني أكثر.

”رائع. من أين يمكن الحصول على هذه الأوراق؟“.

ضحك كفاتيرنيك. ”هل ترغب في العودة إلى المنزل؟ لدينا خطط أخرى لك“.

نظر إلى السائق، الذي ضحك أيضًا، ثم عاد إلي: ”لقد تم ترشيحك للترقية. لتكون قائد مجموعة الاستطلاع“.

قال السائق: "يبدو إذًا أن هناك أشياء رائعة في انتظارك".

قال كفاتيرنيك: "رائعة حقًّا". جندي اليوم، قائد مجموعة غدًا. ستصبح جنرالًا بنهاية الحرب".

ضحك كلاهما. بدا كفاتيرنيك مشوشًا بسبب تعبيري المتبلد. "أنا لا أمزح. لقد رشحك سيروفاك. لقد وقعت على ترقيتك بنفسي".

رفعت كتفي مرة أخرى بلامبالاة. شعرت وكأن جفوني مثقلة بالرمال.

"لقد أبهرته وجعلته عاجزًا عن الكلام، أيها العقيد". قال السائق وهو يغمز.

أمسك كفاترينيك بحقيبته وبدأ في البحث. "سأريك حتى يمكنك أن تتأكد بنفسك. بشرط أن أتمكن من العثور عليه في هذا الكم من الأوراق".

راحت تتوغل يداه في المظاريف، تفتح وتغلق الملفات. كنت مستمتعًا رغمًا عني. "أصبحت تشبه ساعي البريد أيها عقيد".

ضحك، وهو ينظر إلي من فوق كتفه. "إنها كل التقارير التي تلقيتها بالأمس. قضيت الليل كله في استعراضها حتى أتمكن من تجميع التقرير الرئيس. يجب أن يقوم شخص ما بالعمل الممل، أليس كذلك؟ آه، ها هو".

سلمني مظروفًا. فتحته وبسطت الأوراق على فخذيّ، وأضأت المصباح حتى أتمكن من القراءة. بعد بضع كلمات فقط، أدركت أن كفاتيرنيك قد خلط مظاريفه. لا بد أن ترقيتي ما زالت في حقيبته؛ لأنني كنت أقرأ التقرير الذي تلقاه من سيروفاك.

#

تقرير

عمليات وحدات الشرطة العسكرية والاستطلاع مع اللواء رقم ١٩٩
للفترة ما بين ١ نوفمبر ١٩٩١ و ١٤ نوفمبر ١٩٩١
عناية: قائد اللواء ١٩٩ العقيد نيكولا كفاتيرنيك

في ليلة الأول من نوفمبر، هاجمت قوة معادية كبيرة مخفرنا في المنطقة ذات الاسم الرمزي "المنشرة"، مما تسبب في مقتل اثنين من جنودنا شيمي بوليتش (1956) وزلاتكو برانكوفيتش (1967). أصيب الجندي سيناد أميدزيتش بقضمة الصقيع أثناء هروبه، مما أدى إلى نقله إلى المستشفى. بعد تقييم القدرة القتالية المتبقية لأميدزيتش، تم إعفاؤه من الخدمة. كان سبب فقدان المخفر هو قلة خبرة القوات. لذا قررت أن أقود شخصيًّا جميع المهام المستقبلية ذات الأهمية. في الرابع من نوفمبر، تلقت الوحدة لقاحات السل. كادت قائمة أسماء الجنود أن تغادر المبنى مع الفريق الطبي، لكنني تمكنت من منع التسرب الأمني في الوقت المناسب. في السادس من نوفمبر، بعد تلقي بلاغ حول مناورات العدو في المنطقة ذات الاسم الرمزي "الملكة"، قمت بقيادة فريق من عناصر الاستطلاع في مهمة استطلاع خاصة. في مساء نفس اليوم، اتخذت قرارًا بالتسلل إلى معسكر العدو، والذي تمكنت من خلاله من القضاء على قوة العدو بأكملها وألحقت أضرارًا جسيمة بأسطولهم. في الثامن من نوفمبر، تم إحباط محاولة انتحاري لتفجير

طاقم اللواء وتم القضاء عليه تحت إشرافي. في العاشر من نوفمبر، قُدت عملية بهدف القضاء على قناص خطير في المدينة ذات الاسم الرمزي "برلين الصغيرة". تم تنفيذ العملية بنجاح، وتلقت معنويات العدو ضربة موجعة. ضحى الجندي إيغور سبيديك (1974) بحياته أثناء أداء واجبه. في طريق عودتنا من العملية تعرضنا لكمين من قبل العدو. تم استجواب الجندي أنتوني شاكيتش وضربه طوال الليل. تمكنت من استغلال سُكر حراس العدو في التخطيط والتنفيذ لعملية هروب، وبعد ذلك قدت المجموعة بأمان إلى أراضينا. تم نقل الجنديين أنتوني شاكيتش وإيفيكا تشيركيز إلى المستشفى. عاد إيفيكا تشيركيز إلى الخدمة بعد تعافيه التام. بينما تم نقل أنتوني تشاكيتش (1962) إلى جناح الجراحة في المدينة ذات الاسم الرمزي "أفالون"، حيث توفي متأثرًا بجراحه اليوم.

14 نوفمبر 1991

قائد الشرطة العسكرية

أندريا سيروفاك

#

بحلول الوقت الذي أطفأت فيه المصباح، كان هناك شعور مزعج يملأ معدتي. لم أعد أتساءل كيف حصل سيرو على ترقيته. لم يكن التقرير المفترض عن أفعالنا سوى أداة دعم كبيرة له. تذكرته عندما كان يقول لتشركيز، في ذلك الصباح بالتحديد، شيئًا عن "المباراة الطويلة". حسنًا، أنا الآن أقدر بالتأكيد كم كان لاعبًا بارعًا. كان كفاتيرنيك هاويًا، لكن سيرو عرف كيف يلعب. لا بد أنه ابتز العقيد بالموافقة على التقرير الكاذب من خلال تذكيره أن المسؤولية ستكون مشتركة، وبمجرد أن تم تحقيق ذلك، ربما كان العقيد متحمسًا جدًّا لرؤيته يغادر لواءه لدرجة أنه ساعده في الترقية أيضًا. لكنني لم أتفاجأ من أنهم حموا بعضهم بعضًا على طول الطريق في التسلسل القيادي. الجزء الذي جعلني أشعر بالغثيان هو سرقة دور بورنا في الأحداث. لقد أقحم سيرو نفسه في مكانه، ماحيًا بورنا من كل الذاكرة بسهولة مثل تسجيل فيلم جديد على شريط مستعمل.

ضغطت على فكي، بينما أمد يدي بالتقرير له. "سيادة العقيد!".

استدار كفاتيرنيك وابتسم. "إذًا؟ هل أنت مستعد لتولي القيادة؟".

"سيادة العقيد! لقد أعطيتني ورقة خاطئة".

عقد كفاتيرنيك حاجبيه، وأخذ التقرير من يدي. قام بمطالعة النص وتجمد، ثم طوى الورقة من المنتصف. نظر إلي بعيون واسعة. بقينا هكذا لفترة طويلة. أخيرًا استدار وجعل نفسه أكثر راحة في مقعده. لم

نتحدث أنا وهو مرة أخرى، في ذلك اليوم أو في أي يوم آخر. جلست لبقية الرحلة الطويلة، متقوقعًا على نفسي وأحدق في الظلام. أسندت رأسي إلى النافذة الباردة، غارقًا في التفكير. ظلت السيارة الجيب تتأرجح على طول الطريق المتعرج. وبينما يصطدم رأسي بالزجاج، رأيت انعكاس عيني. لقد انغمست دون إرادة مني في ذكريات أسبوع مضى، حيث اليوم الذي كان يقف فيه بورنا في مرمى بصري في الغابة.

***

أصبح الكثير مما كان غامضًا بشأنه واضحًا في الوقت المناسب. أعرف الآن كيف أصبح يعمل بمفرده، أو لماذا بدا وكأنه يريد أن يلكم تشيركيز عندما أهان تشيركيز ماجدة. لقد ذكرته بأخته المقتولة، ولم يستطع تحمل رؤيتها تُساء معاملتها.

يتردد صدى أحد أقواله بداخلي بصورة حية. "لا أحد يستحق أن يعاني نتيجة خيارات الآخرين". كانت بورنا على حق. أو ماكس، أو ماكس المجهول، أو أيًّا كان اسمه الحقيقي. كل شخص يستحق أن يعاني فقط من أجل خياراته الخاصة، كما أعاني أنا من خياراتي بالضبط.

في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان مظهره يشع سلمية، وكأنه يوافق على أي قرار سأتخذه. كنت قد اتخذت قراري بالفعل على الطريق، حتى قبل أن نصعد إلى الغابة. لا أعرف ما إذا كنت سأشعر بأي اختلاف حيال ذلك اليوم إذا كنت قد تركت قراري للحظة الأخيرة. ربما كنت سأكون قادرًا على القول إنني لم أمعن التفكير في الأمر.

سألته عما كان سيفعله إذا تم عكس أدوارنا. لم يرد. كان بإمكانه

مساعدتي بالقول إنه لا يعرف، لكنه لم ينبس ببنت شفة. أعتقد أن هذا كان عادلًا. فقد أخبر الكاهن ذات مرة، أنه لا يحتاج إلى بركة أحد. لم يكن من الصواب أن أطلب بركته. لا سيما في هذا الأمر. لم تكن لدي القوة لإطلاق النار عليه. لم تكن لدي القسوة لفعل ذلك. لم أستطع مواجهته بحقيقة أنني فكرت في قتله، بغض النظر عن أنه هو نفسه قال إنه لا توجد خطيئة في محاولته البقاء على قيد الحياة.

أنزلت بندقيتي وقلت: "هناك قصة سمعتها عندما كنت طفلًا. لا أتذكر بالضبط من قالها، ولا مغزاها، أو حتى إذا كان لها مغزى من الأساس، لكني فقط تذكرتها الآن. تريد أن تسمع؟".

راقبني دون كلمات، ولم يرفع عينيه عن وجهي أبدًا.

"ذات مرة، جاء رجل غريب إلى قرية. حكيم متنقل أو شيء من هذا القبيل. كان أول شخص يصادفه هو طفل. اقترب من الطفل وسأله "من أنت؟" وحيث إن الطفل قد نشأ وتربى جيدًا، لذلك أخبر الرجل باسمه بأدب. لكن الرجل قال ‹أنا لا أسأل عن اسمك. أنا أسأل من أنت›، قال الطفل ‹أنا ابن مدرس القرية› فرد الحكيم ‹أنا لا أسأل من هو والدك. أنا أسأل من أنت›، فرد مجددًا الطفل ‹أنا مجرد طفل›، فقال الحكيم ‹أنا لا أسأل كم عمرك. أنا أسأل من أنت›".

ظللنا ننظر لبعضنا في صمت. "من أنت يا بورنا؟".

انزلقت عيناه إلى البندقية المتدلية من كتفي.

"من أنت؟" كررت، بينما أرفعها وأوجهها نحوه.

"أنا... بورنا".

”أنا لا أسألك عن اسمك أو لقبك أو ما يطلقونه عليك. أنا أسألك من أنت“. ببطء، وبتأكيد، كررت الكلمات، ”من أنت؟“.

كنا ننظر لبعضنا بينما كان الثلج حولنا يتلألأ في الشمس.

”أنا من أنقذ حياتك“.

”أنا لا أسأل عمن أنقذت حياته“.

”أنت تسأل من أنا، أفهم ذلك“.

”نعم. إذًا من أنت؟“.

”لا أعلم“.

أنزلت بندقيتي ووجهتها إلى الأرض. ”أنا أعرف يا بورنا“. أنت نفس ما أكونه أنا. نحن نفس الشيء جميعًا. أنت عبارة عن مجموعة من القرارات التي اتخذها أشخاص آخرون لك. تمامًا مثلما اتخذوها لي، ولسبيدي، وتشيركيز، وسيروفاك، وكفاتيرنيك، وأنتوني، ولذلك الرجل ماركو كوفاتشيفيتش... أو لأميدزا. إذًا دعني أخبرك عنه“.

استرخى قليلًا، وفتح زر عنق قميصه الممزق.

عندما وُلد أميدزا، أرادت والدته تسميته باسم أخيها الراحل. لكن والده كان لديه أخ أيضًا، لذلك ضغط من أجل أن يسميه باسمه. لم يتمكنوا من تحديد أي عم يسمونه مثله، لذلك أطلقوا عليه اسم جده. من جانب أبيه. وبما أن عائلة أميدزا من أصل عرقي مختلط، بات عليه أن يتحمل عواقب

ذلك. كان اسمه سيناد[39]. عندما كان يبلغ من العمر بضعة أشهر، اصطحبته والدته إلى الكنيسة لتعميده. رحب بها الكاهن بحفاوة. لكنه سأل بعد ذلك عن اسم الطفل، وفي اللحظة التي سمعه فيها، اعتقد أنها تعبث معه فطردها على الفور. عندما عادت إلى المنزل، أخذه والده بين ذراعيه وواساها "إذا لم يستقبله أهلك، سيستقبله أهلي". لذا بدلًا من التعميد، تم ختان أميدزا الصغير وفق طقوس إسلامية. بحلول الوقت الذي بلغ فيه سن البلوغ، بدأ ممارسة الرياضة. لقد كان جيدًا في ذلك وأراد أن يصبح مدربًا رياضيًّا محترفًا. لكن والداه أقنعاه بأن الأموال الكثيرة تكون في السياحة، لذلك ذهب أميدزا للدراسة حتى يصبح نادلًا. فأصبح، مرة أخرى، شيئًا اختاره الآخرون له. وهذا ما يحدث لنا جميعًا، طوال حياتنا. يتم تحديد الاختيارات واتخاذ القرارات لنا، وتُلقى القطع التي تشكل هويتنا علينا، ونجمعها معًا نتشبث بها، ونبجلها مثل الكتاب المقدس. لكن أين نحن من كل هذا؟ أين الإنسان، الإنسان الفرد؟ أين خياراتنا؟".

"هناك دائمًا خيار".

"بالتأكيد، وهو دائمًا مشروط بسلاسل لا نهاية لها من الظروف. فشل أميدزا في الحصول على العديد من الوظائف التي وضع نصب عينيه عليها. كان يذهب لإجراء مقابلة عمل، فيرفضونه بمجرد أن يقدم نفسه، بسبب الاختيار الذي تم اتخاذه له عندما كان لا يزال يرتدي حفاضات. لم يعد اسمه مهمًّا فقط عندما حان وقت الحرب، والآن سيكونون سعداء بتقليده وسامًا وتسميته بالوطني. تكمن المشكلة فقط في أن أميدزا لا

39- هو اسم شائع لدى مسلمي البوسنة وهو يأتي من الكلمة العربية "سند". (المترجم)

يهتم بالوطنية أكثر مما كان يهتم بشأن عمله كنادل. لكن ما هو وطنه على أي حال، دولة أمه أم دولة أبيه؟ لقد دُفِع إلى خط المواجهة وسُلم بندقية. بعض الخيارات اتُخذت له بألا يكون وطنيًّا".

أخرج كل واحد منا سيجارة وأشعلها.

"ما هو وطنك يا بورنا؟".

أفسد الدخان المنبعث من سجائرنا النقاء المقدس للطبيعة غير الملوثة من حولنا. كنا ندخن في صمت بينما كان نسيم الهواء المنعش يبعد الدخان عنا.

"أيهما وطني؟ ذلك الذي أدافع عنه؟ هذا هو وطني لأنه منذ سنوات عديدة رسم أحدهم خطًّا على الخريطة. لو كان انزلق قلمه قليلًا، فربما كان سيصبح لدي وطن مختلف، وربما كنت سأدافع عنه من الذي هو وطني الآن. في غضون عشر سنوات، قد تظهر قوة ثالثة وتحتلنا جميعًا. هل سيكون هذا وطننا أيضًا؟ هل سنموت من أجله إذا خاض حربًا؟ هل سنكون أبطالًا ووطنيين مرة أخرى وننزف من أجل منحنى مطبوع في أطلس لأننا من المفترض أن نحبه كثيرًا؟

"الحقيقة هي أننا هنا لأن منازلنا قُصفت. الحقيقة هي أن، قبل الحرب، لم نكن نهتم بمن أتى من أي دولة، ربما باستثناء عندما نتجادل حول من أنتج أفلامًا أفضل. الحقيقة هي أنني أنا وأنت لدينا قواسم مشتركة مع هؤلاء الجنود الثلاثة الذين قتلتهم في اليوم الذي التقينا فيه أكثر مما سنحظى به مع سيروفاك أو كفاتيرنيك على الإطلاق".

"هذا ما أنت عليه يا بورنا. اختيار شخص آخر. تمامًا مثل بقيتنا. إذا

حاولت أن تقول إنك أكثر وأعقد من مجرد الصناديق التي يضعونك فيها، فسيصفونك بالجنون. تخيل لو قال أميدزا إنه غير راض عن اسمه. أوه، أعتقد أنه كان يمكن أن يغيره إذا أراد ذلك حقًّا، لكن الجميع سيضحكون عليه، ولن يختفي الاسم أبدًا. إن الخيارات التي يتخذها الآخرون لك هي المهمة! إذا كان أميدزا قد رأى أن هذا البلد بالذات لا يستحق حياته، كانوا سيصفونه بالخائن. لقد خدعوه واستغلوه منذ البداية، وفعل الشيء نفسه مع ابنه، مع أخلص النوايا ليكون أفضل. لقد تم تعميد الطفل في الكنيسة. خطأ مرة أخرى. بورنا مرة أخرى، قرر شخص آخر ما سيكون عليه الطفل. لقد تم تسليم أدوارنا إلينا، ثم تدربنا على تأديتها بلا هوادة لدرجة أنني أتساءل عما إذا كان هناك أي شيء آخر نعرف كيف نفعله".

كرر بورنا قوله: "هناك دائمًا خيار"، وكأنه لم يسمع أي شيء قلته.

"سبيدي قام بالاختيار. اختار أن يهزأ من التقاليد والأعراف. لكن هذا جعله منبوذًا، لذلك حاول إثبات نفسه بالفرار إلى ساحة المعركة. لقد اعتقد أنه بمجرد عودته إلى المنزل، سيتم قبوله وتقديره على ما هو عليه. حسنًا، لم ينجح ذلك أيضًا... إنهم يجعلوننا نشعر أنه من الخطأ أن نقرر بأنفسنا، ولكن إليك المفارقة الحقيقية التي يغفلون عنها: إنهم ليست لديهم فكرة عن كيفية اتخاذ القرارات أيضًا، لذلك عندما يتعلق الأمر بتحمل المسؤولية، فإنهم يلقونها على عاتقنا الفور. نحن أفلام رائجة لأنه كان على شخص ما اختيار اسمنا، وهكذا فعل شيمي. نحن هنا لأن السياسيين اختاروا الحرب، لذلك يجب على أحد أن يشنها. يجب على جيلنا بأكمله أن يتعامل معها، رغم أنها فُرضت علينا دون أن يطلب منا أحد أي شيء. والآن أحدهم اختار لي أن أختار ما إذا كنت ستعيش

أو تموت".

رد بورنا باقتناع كبير: "أنا آسف، لكني لا أرى نفسي في قصتك".

"وهذا امتياز خاص لديك. الفارق بيني وبينك أنك معفى من كل هذه الضغوط. لقد سقطت قيودك، على الأقل لفترة من الوقت؛ لذا فالأمر كله واحد بالنسبة لك. أينما ألقوك، هدفك الوحيد هو البقاء على قيد الحياة. أنت وحدك تمتلك هذا الامتياز في هذه الفوضى بأكملها، ولا يمكن أن يبقى الأمر كذلك. العالم الذي نعيش فيه لن يقبل بذلك. أم كنت تعتقد أنك تستطيع البقاء فوق بقيتنا، بريئًا مثل الملاك في وليمة دموية؟".

انغمسنا في صمت قصير آخر. راقبني دون أن يشعر بالذنب على الرغم من أن عينيه أظهرتا أنه يفهم أن مواقفنا لها عواقب، بغض النظر عن أن مواقفنا تم تحديدها ليس بما هو أكثر من مجرد الصدفة.

"من أنت يا بورنا؟".

"إنسان".

"بلى. هذا صحيح، أليس كذلك؟ نحن نظل نتعامل مع بعضنا على أننا أي شيء عدا البشر، ولكن لا يمكن إنكار هذا القدر وهذه الحقيقة، مهما حاولنا جاهدين. أنت إنسان. من الصعب بعض الشيء فقط إقناع نفسي بذلك الآن".

رميت سيجارتي في دثار الثلج السميك الذي يحيطنا. انطفأ الطرف المشتعل قبل أن يذيب القشرة الجليدية.

"اركض يا بورنا. اركض بأسرع ما يمكنك. أنت حر".

جعل الضوء اللامع في عينيه التمسك بالقرار الذي اتخذته على الطريق أمرًا سهلًا. تلك اللحظة التي أدرك فيها أنه سيبقى على قيد الحياة، اللحظة التي أضاء فيها بصيص من الأمل عينيه. كم أسترجع تلك اللحظة كل يوم الآن. برقت عيناه. أعطاني نظرة ودية وابتسامة مشرقة.

"كنت أعرف أنك رجل نبيل".

ركض وهو يستدير ويلوح لي وداعًا. راح يتمايل وهو يركض أسفل التل باتجاه الشمس، بينما يبدو غير متأكد من الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه. كان يجري إلى الأمام بضع خطوات، ثم يلتفت ويلوح لي، ثم يجري مرة أخرى أسفل التل. أسفل المنحدر الحاد، إلى الحرية والحياة، حتى سقط.

ماذا يمكنني أن أفعل للرجل الذي حكمت عليه بالإعدام دون حتى تكلف عناء البحث عن الأدلة الدامغة؟ يمكنني أن أترك له الاعتقاد بأنني لن أفعل ذلك. أنا مدين له على الأقل بهذا القدر. بيد أن ذلك كان عزاءً لا يسمن ولا يغني من جوع، بالنظر إلى أنني أطلقت عليه النار في ظهره بينما كان يستمتع بآخر لحظات إيمانه بالحياة.

لقد سقط بينما يعتقد أنني اخترت أن أومن بالإنسانية على الرغم من كل الشكوك، مقتنعًا بأنني أثق به، مقتنعًا أنني تخليت عن كل الولاءات باسم الحياة. بل ربما حتى معتقدًا أن القدر سيجمعنا مرة أخرى. وأنه سيبحث عني بعد الحرب. وأننا سنزور بعضنا بعضًا. ونظل أصدقاء. ونصبح بشرًا محترمين. ونرتقي بحياتنا. ربما سقط وهناك صورة بذهنه لنا معًا ونحن نشرب براندي محلي الصنع، والذي صنعه بنفسه

وأحضره لي كهدية عندما جاء لزيارتي. صورة لكلينا ونحن نجلس معًا ونشاهد أفلامًا قديمة جيدة، وندلي بتعليقات لبعضنا، ونقارن الأفلام بتجاربنا وخبراتنا. كانت الصفقة التي قمنا بها غير عادلة. لقد منحني الحياة، ومنحته الموت! مات بينما بقيت أنا على قيد الحياة. بشكل مختلف تمامًا عن الصورة التي كان يعتقدها عني.

جائزة الإنجاز الأدبي الممنوحة من مدينة Rijeka عام 2011

يقول أحد أبطال الرواية: "هذه الحرب إنتاج خمس نجوم. وضع المستثمرون الأجانب الكثير من المال فيها، وهناك الكثير من الممثلين المحترفين. الجميع يرتجلون حواراتهم في ذلك الفيلم، لذلك يبدو كل شيء طبيعيًّا جدًّا، وبغض النظر عن كيفية انتهائه، فإنه سيحقق ربحًا لسنوات قادمة".

كلمة Blockbuster؛ في الأصل كانت تشير لقنبلة ضخمة، استخدمها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. كان للقنبلة قوة تدميرية كافية لتدمير مجموعة كبيرة من المباني. عندما أرادت هوليوود اسمًا للفيلم الذي يكون له تأثير هائل على الجمهور، فكروا فيها. وبات من الطبيعي الآن إطلاقها على الأفلام رفيعة المستوى أو الشهيرة، وفقدت الكلمة معناها الأصلي.

هي رواية قاسية ومؤلمة ومزعجة جدًا، كابوسية تُرينا الحرب من الداخل.

إنها قصة أشخاص يفضلون التحدث عن الأفلام على الركض بالبندقية، لكنهم غرقوا في أعماق فكي الحرب. أصبحوا لا يفكرون في الغد لأن الغد قد لا يأتي. كيف تعود إلى الحياة الطبيعية بعد رؤية كل الأهوال التي يمكن أن تصنعها يد الإنسان؟ كيف تعود إلى الحياة الطبيعية وأنت تعلم أن حياتك حاليًا تتكون من الخوف والموت؟ البقاء على قيد الحياة كان هو الهدف والرغبة الوحيدة.

زوران زيمريتش: هو كاتب وموسيقي كرواتي من مواليد 1969. عمل كباحث بوزارة الثقافة الكرواتية وصدرت له عدة روايات. حصد العديد من الجوائز مثل جائزة رييكا السنوية للأعمال الإبداعية وجائزة جمعية الأدب الكرواتي.

Cover design by: Alaa Elnewehy

ISBN 978-977-821-254-9

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET